الدكتور أحمد شلبي
أستاذ التاريخ بجامعة القاهرة

مصر في حربين
٦٧ - ٧٣
دراسة مقارنة



لإبراز أسباب الهزيمة ودعائم النصر

مصر في حربين

١٩٦٧ و ١٩٧٣

دراسة مقارنة لبيان أسباب الهزيمة ودعائم النصر

الطبعة الثانية مع مزيد من الوثائق والدراسات

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها : محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون : ٩٢٤٠٩٨

مصر في حربين

(١٩٦٧ و ١٩٧٣)

دراسة مقارنة لبيان أسباب الهزيمة ودعائم النصر

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبردج

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

(الطبعة الثانية مع مزيد من الوثائق والدراسات)

الناشر



ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

الطبعة الأولى فبراير سنة ١٩٧٥
الطبعة الثانية يوليو سنة ١٩٧٥

ترقبوا الكتاب التالى

« ثورة ٢٣ يوليو بين عهدين »

دراسة تاريخية موثقة

لحوالى ربع قرن مع الثورة

بسم الله الرحمن الرحيم

من كان يريد العزّة فلله العزة جميعاً
إليه يصعد الكَلِمُ الطيِّب
والعملُ الصالح يرفعه
والذين يمكرون السيئاتِ لهم عذابٌ شديد
ومكرُ أولئك هو يبور

قرآن كريم
(سورة فاطر الآية العاشرة)

أرسلتُ لعبد الناصر خطاباً قلت له فيه « اتق الله » فاعتقلني ثلاثة أشهر .
(من شهادة كمال الدين حسين بالمحكمة)

وَصَلَ الوضع بعبد الناصر إلى أكثر مما وصل إليه فرعون في زمانه ، أو اللورد كرومر في عصره . (من شهادة عبد اللطيف البغدادي بالمحكمة)

اقرأ فى هذا الكتاب :

صفحة

٢٦ حقيقة الثورات وتأثير ثورة ٢٣ يوليو على المؤرخ المصرى .

٦٦ ملك التعذيب .

٦٩ نصيب المفكرين والكتّاب من الظلم .

٧١ محكمة الدجوى وكيف شُكلت بقرار مزيّف .

٧٩ الأبرياء فى مستشفى الأمراض العقلية .

٩٦ الثقة أهم من الكفاءة .

١٠٠ المشير عامر والذهب .

١٠٦ الحراسة وسيلة للتعذيب والكسب الحرام .

١١٨ الإنسان بضاعة فى طرد .

١٢٠ كيف كانت العلاقة بين عبد الناصر ومشيره من أسباب الهزيمة .

١٢٢ مواهب المشير عامر كما يراها هيكل طاهى السياسة .

١٢٤ إبعاد الضباط الأكفاء عن الجيش .

١٢٥ الاستيلاء على أكياس الذهب باليمن وجواهر القصور بمصر .

١٢٨ قادة النصر هدّدون المسئول عن هزيمة ١٩٦٧ .

صفحة

١٣٢ هزيمة ١٩٦٧ لم تكن مصادفة ، فمن المسئول عن أرواح الشهداء وضياع الأرض والاضطراب الاقتصادى ؟

١٣٥ ماذا قال عبد الناصر عن ملوك العرب ورؤسائهم .

١٣٩ حرب اليمن ونتائجها السياسية والاقتصادية .

١٤٩ جيل مضلل بمصر ... لماذا ؟

١٦٦ سياسة عبد الناصر وهل جلبت الجلاء أو الاحتلال ؟

١٨٦ عهد فى الميزان أو حصيلة عشرين عاما .

١٨٩ صور مرئية من عهد عبد الناصر .

١٩٨ صور صوتية عن حكام مصر من فاروق إلى السادات .

٢٠٣ الظروف التى ضللت بعض الأخوة العرب .

٢٤٢ « مراكز القوى » تعبير يرفضه التفكير الإسلامى ؟

٢٦٥ ماذا قال هيكل وخالد عبد الناصر عن أسباب انتصارات ١٩٧٣

٢٨٣ مرتبات ومخصصات ومال لمن لا يستحقه .

(الفهرس الكامل فى آخر الكتاب)

كتب للمؤلف

أولا — موسوعة التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى ثمانية أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى ، ومحتويات الأجزاء هى :

١ — الجزء الأول : (الطبعة السابعة)

— مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الإسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ . . فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى — علم التاريخ بين المسيحية والإسلام ... ...

— تاريخ العرب قبل الإسلام : البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

— السيرة النبوية العطرة . — الدعوة الإسلامية وفلسفتها .

— عصر الخلفاء الراشدين .

٢ — الجزء الثانى : (الطبعة الرابعة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ — الجزء الثالث : (الطبعة الخامسة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين فى خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية .

٤ — الجزء الرابع : (الطبعة الرابعة)

— الأندلس الإسلامية ، وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريقها .

— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا (من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر) .

— السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ — الجزء الخامس : (الطبعة الثالثة)

— مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر .

— الحروب الصليبية : دوافعها — أدوارها — نتائجها .

— الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — الجزء السادس : (الطبعة الثانية)

الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن

— دراسة عن وسائل انتشار الإسلام :

مراكز الشمال — هجرات عربية — هجرات غير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .

— الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربي :

غانه — مالي — سنغي — دول الهوسا — برنو — باجرمي — واداي — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .

— الدول الإسلامية الحالية :

موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال .

٧ — الجزء السابع :

الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق .

— دول الجزيرة العربية من مطلع الإسلام حتى الآن :

المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الإمارات العربية — قطر — البحرين — الكويت —

— العراق من مطلع الإسلام حتى الآن .

٨ — الجزء الثامن :

— الدول الإسلامية غير العربية بآسيا منذ دخلها الإسلام حتى الآن :

إيران — أفغانستان — الباكستان — بنجالاديش — ماليزيا — اندونيسيا .

(ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات) .

دراسات تفصيلية في تاريخ مصر المعاصر

٩ — ثورة ٢٣ يوليو بين عهدين :

دراسة تحليلية موثقة عن حوالي ربع قرن مع الثورة .

١٠ — مصر في حربين (١٩٦٧ - ١٩٧٣) :

دراسة مقارنة لبيان أسباب الهزيمة ودعائم النصر .

كتب للمؤلف

ثانياً — موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى ستة أجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الإسلام لهداية البشرية ، فى شئون الفكر ، والسياسة والاقتصاد ، وفى مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، وتشمل :

١١ — الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره : (الطبعة الخامسة)

(مترجم عن الإنجليزية مع مقدمة ضافية للمترجم) .

١٢ — المجتمع الإسلامى : (الطبعة الرابعة)

أسس تكوينه — أسباب ضعفه — وسائل نهضته .

١٣ — تاريخ التربية الإسلامية : (الطبعة الرابعة)

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وأمكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ... ... وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ... ... وغير ذلك من الدراسات التربوية الرائعة .

١٤ — السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى : (الطبعة الرابعة)

دراسة شاملة للسياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى مع المقارنة بالاتجاهات السياسية والاقتصادية الحديثة .

١٥ — الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى : (الطبعة الثالثة)

— فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ... ...

— وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيق والغناء ... ...

— وفى نطاق المال : كصناديق التوفير والبنك الإسلامى والربا ... ...

١٦ — الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الإسلامى : (الطبعة الثانية)

بحث علمى يبرز اتجاهات الإسلام فى مشكلات الحرب ، كالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق المجاهد ، والخديعة فى الحروب ، والثبات والفرار ، والتجسس والخيانة ، والرباط ، والهدنة والأسرى ... ...

(ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثالثاً — مقـــــارنة الأديان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق وتشمل :

١٧ — اليهـــودية : (الطبعة الرابعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية فى التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى إسرائيل ، عقيدة بنى إسرائيل ، يهوه إله بنى إسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين .

— مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون

— اليهود فى الظلام : الماسونية ، الروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية

— من صور التصريع فى اليهودية .

١٨ — المسيحية : (الطبعة الرابعة)

— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة

— بولس واضع المسيحية الحالية : التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدها .

١٩ — الإسلام : (الطبعة الرابعة)

الله فى التفكير الإسلامى ، النبوة فى التفكير الإسلامى ، الروح والمادة فى التفكير الإسلامى ، فلسفة العبادات فى الإسلام ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد فى الاسلام .

٢٠ — أديان الهند الكبرى «الهندوسية ـ الجينية ـ البوذية» : (الطبعة الرابعة)

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا ، مهابهارتا ، يوجاواسستها ، كيتا

— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجود . تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها ... ...

ترجمت هذه السلسلة للأوردية والإنجليزية والفرنسية والإندونيسية

كتب للمؤلف

رابعاً — كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢١ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة : (الطبعة التاسعة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .

٢٢ — رحلة حياة : مشاهد وتجارب مثيرة وهادفة ، تعرض أهم قضايا العصر : مصرية وعربية وإسلامية .

٢٣ — تطور النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور

باللغة الإنجليزية :

٢٤ — ISLAM : Belief – Legeslation – Morals. (مكتبة النهضة المصرية)

٢٥ — History of Muslim Education (دار الكشاف ببيروت والقاهرة)

باللغة الأندونيسية والمالايزية :

٢٦ — Negara dan Pemerintahan dalam Islam

Nabhan (Surabaja) Dan Pustaka National (Singapore):

٢٧ — Masjarakat Islam
٢٨ — Hukum Islam
٢٩ — I Sedjarah dan Kebudajaan Islam
٣٠ — II „ „ „ „
٣١ — III „ „ „ „
٣٢ — Perbandingan Agama (Jahudi)
٣٣ — „ „ (Masihi)
٣٤ — „ „ (Islam)
٣٥ — „ „ (Agama2 yang Terbeser di India:Hindu - Jaina-Buddha)
٣٦ — Sedjarah Pendidikan Islam
٣٧ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam
٣٨ — Social dalan Islam

٣٩ — Perkembangan Keagamaan dalam Islam dan Masehi — Sjamsijah (solo)

٤٠ — Perang Salib

كتب للمؤلف

خامساً — تعليم اللغة العربيـة لغير العرب

وقواعد اللغـة العربيـة

— برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .

— أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .

— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .

— تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤١ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الثانية) .

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة — فالتعبير — فالإملاء — فالخط والمحفوظات ، ثم يقفز بالطالب إلى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا موضوعات جذابة من الفكر الإسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت فى أسلوب مناسب مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٢ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الثانية)

عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة .

ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف .

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعاد طبعها :

٤٣ — فى قصور الخلفاء العباسيين :

أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٤٤ — الحكومة والدولة فى الإسلام :

وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

مقدمة الطبعة الأولى

لك الله يا بلادى ؛

لقد عانيت فترة كالحة مريرة ، نتعرض لها اليوم بالبحث والدراسة :

فترة هزائم متصلة : ١٩٥٦ – حرب اليمن – ١٩٦٧

فترة قطيعة من أكثر الدول العربية والإسلامية .

فترة ذعر وخوف من السجون والمعتقلات والتعذيب .

فترة اضطراب اقتصادى وصل أحياناً إلى الجوع والحرمان .

واحتمل الشعب كل هذه الآلام حتى جاء عهد النور والأمل .

فلنقف وقفة ندوّن فيها تاريخ الماضى ونتهيأ للمستقبل ، داعين الله ألا يجعل فى بلادنا سلطاناً لمن يرتعدون أمام العدو ويستأسدون أمام الشعب الأعزل .

وداعين الله أن يكمل لنا مسيرة النصر التى خطونا فيها خطوة طيبة مباركة .   إنه سميع الدعاء

ونلتقى فى هذه المقدمة لنجيب عن سؤالين مهمين هما :

١ – لماذا نكتب عن الماضى ونثير الغبار ؟

٢ – وإذا كان الماضى سيمس تاريخ جمال عبد الناصر فلماذا لم نكتبه فى حياته ؟

والسؤلان يترددان أو قد يترددان ، ولذلك نجيب عنهما بدقة ووضوح مع الإيجاز :

فمن السؤال الأول نقرر أن هذا هو ضرورة التاريخ ، وليس هنالك عاقل يريد أن يهدر التاريخ ويسدل عليه ستاراً من الكتمان ، وإذا كنا ندرس تاريخ الفراعنة ، أو العهد القبطى بمصر ، أو العهد الإسلامى ، وندرس تاريخ أوربا والعالم كله ، فكيف لا نكتب تاريخ فترة عشناها ورأينا فيها الأحداث ؟ . إن التاريخ أمانة أودعها الزمن فى يد المؤرخ ، والذى يكتم أمانة التاريخ أو يخونها لا يقلُّ ذنبه عمن يخون أمانة المال .

ونكتب كذلك تاريخ الماضى لحماية الحاضر والمستقبل ، فإذا أدرك أى رئيس أن أعماله سيثبتها التاريخ وتتناقلها الأجيال ، وأن الزيف لن يقوى أمام الحياة والنقد ، إذا أدرك ذلك فإنه يُحسن عمله ، فنخدم بدراسة الماضى إنسان الحاضر والمستقبل ، ويقول Hearnshaw [1] فى ذلك : إن دراسة التاريخ كانت على مر الأجيال من أجل خدمة الحاضر ، وإلهامه سبيل الرشاد .

---

(١) علم التاريخ : الترجمة العربية للأستاذ عبد الحميد العبادى ص ٢٤ .

ويقول Josiph Horse [1] : إن الحياة تعلِّم العيش ، وإن ملاحظة أعمال الناس فى الماضى ونتائجها تضيف خبرة إلى خبرتنا ، وتدفعنا إلى تصرف أحسن .

أما الإجابة عن السؤال الثانى فنستطيع أن نبدأها بسؤال هو :

من قال إننا لم نكتب هذا التاريخ فى حياة عبد الناصر ؟ لقد كتبناه فى حياته يوما بعد يوم ، ولكننا لم نستطع نشره ، فقد كان جمال عبد الناصر لايحب النقد ، وكان قاسيا مع من خالفوه فى الرأى ، فكمم بذلك الأفواه المصرية ، وأغلق صحيفة من كبريات الصحف العربية وهى صحيفة « المصرى » ولو حاول إنسان أن ينشر فى عهده شيئا من هذا النوع ماوصلت سطوره إلى الناس ، لأن الرقابة كانت شديدة العنف ، تمنع كل كلمة غير مرغوب فيها من الظهور ، وسنرى نماذج من ذلك فى دراساتنا بهذا الكتاب .

وبعد ، هذه دراسة علمية تاريخية قصدت بها خدمة بلادى ، وأشهد الله أن الإنصاف كان رائدى فى كل كلمة كتبتها ، وهى أمانة المؤرخ ، يؤديها لهذا الجيل والأجيال التالية .

وبالله التوفيق

المعادى فى الرابع من ديسمبر سنة ١٩٧٤

دكتور أحمد شلبي

---

(١) The Value of History p. p. 12—13

وانظر مقدمة موسوعة التاريخ الإسلامى بالجزء الأول من الموسوعة المؤلف.

مقدمة الطبعة الثانية

باسم الله العلى العظيم أقدم الطبعة الثانية لكتابى « حرب ٦٧ — ٧٣ دراسة مقارنة » بعد تحوير قليل فى عنوانه ليصبح :

مصر فى حربين : دراسة مقارنة

وقد سعدت بهذا الكتاب سعادة هائلة لأنه قام بدور كبير فى تصحيح أفكار الجماهير حول فترة من أهم فترات جيلنا، وكان البعض يرى أن هذا الكتاب بجراءته صدر قبل أوانه ، ولكن الحس التاريخى هو الذى أكد لى أن أى تأخير فى نشر تلك المعلومات كان سيعد تخلفاً عن المسيرة العلمية ، وتقصيراً فى أداء الواجب ، وكانت الطمأنينة تملأ نفسى بأن العصر الجديد عصر يحترم حقاً حرية الكلمة وحرية الرأى، وأن الشعب الذى نعيش له والذى كان يعيش فى الظلام يتطلع إلى أشعة من الضوء لتنير له تاريخه وحياته ، وهكذا أقبلتُ على إصداره دون تردد ، وصَدَقَ حدسى فى الجانبين ، فإن أحداً ممن بيدهم السلطة لم يعترض على عملى ، وأقبلت الجماهير عليه إقبالا فاق كل تصورى ، حتى لقد أصبح حديث الناس فى كل منزل ومنتدًى .، واستقبلته

الصحافة المصرية والعربية أروع استقبال ، وتلقيت عنه الأسئلة والخطابات ، كما قرأت صوراً من النقد وصوراً من التأييد .

واتضح لي أن هذا الكتاب ليس ككتبي السابقة أستريح عقب نشره ، وإنما هو كتاب يحتاج بعد نشره لمتابعة ومدارسة ، فأخذت أجيب عن الأسئلة التي اتصلت به ، وأشكر أصحاب الخطابات التي تؤيد ، وأرد على النقد الذي نشر ، وكانت هذه الحركة إثراء الفكرة ، ودعماً لها ، مما جعل الطبعة الثانية منه أكثر وضوحا وأشد عمقاً .

ويجدر بي أن أورد هنا دراسات موجزة عن بعض الملاحظات المهمة التي كانت مثار تساؤل ، والتي ربما لاتزال مثار تساؤل :

عنوان الكتاب :

لم يكن عنوان هذا الكتاب سائغاً عند عدد من القراء ، وكانت حجتهم في ذلك أن العنوان طويل ، وأن به أرقاماً ، وأن من يقرأ العنوان يحس لأول وهلة أن الكتاب حديث عن الحرب ، وقد كُتِبَ الكثير عن الحروب وبخاصة بواسطة العسكريين .

وربما كانت هذه الاعتراضات سليمة عند النظرة السريعة ، ولكن وجهة نظري التي أحرص عليها هي أن هذا العنوان واضح الدلالة لما

أردت أن أكتبه ، والمطابقة بين العنوان ومادة الكتاب شيء مهم جداً لدى الباحثين ، فالقاعدة أن من يطلع على العنوان يدرك إجمالا محتويات الكتاب ، لأن العنوان عبارة عن مؤشر يتحتم أن يكون واضحاً ، فهو كلافتة شارع أو لافتة على مدخل وزارة أو كاية تخبر عما بالداخل[1] . . . وعنوان هذا الكتاب كان من هذا النوع ، إنه :

حرب ٦٧ ـ ٧٣

دراسة مقارنة لبيان أسباب الهزيمة ودعائم النصر

وذلك هو كل ما أردت وما دونت فى الطبعة الأولى ، ومع هذا فإنى أجريت فى العنوان تحويراً قليلا فى الطبعة الثانية ، أرجو أن يجعله أكثر يسراً وقبولا ، ومما ساعدنى على هذا التعديل ، ما لاحظته ولاحظه معى كثيرون من أن دراسة حرب ٦٧ و ٧٣ هى فى الحق دراسة لتاريخ مصر كله كما سنرى بعد قليل ، وليست الدراسة مقصورة على المعارك الحربية .

دراسة الحروب :

من الأسئلة التى اتصلت بهذه الكتاب السؤال التالى :

لماذا اهتممتُ كل هذا الاهتمام بدراسة الحروب ؟

---

(١) اقرأ ما كتبته عن ذلك فى كتابى « كيف تكتب بحثاً أو رسالة » .

والإجابة تتمثل فى عدة نقاط :

أولا ـ دراسة الحروب بوجه عام وحربى ١٩٦٧ و١٩٧٣ بوجه خاص ترتبط ارتباطا وثيقاً بدراسة الأمة كلها وأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وسنرى كل ذلك واضحاً فيما سنعرضه من دراسات .

ثانياً ـ تعتبر الحروب فى التاريخ كبيرة الأهمية، لا من أجل دورانها وأحداثها فحسب ، بل لأنها تسبقها انفعالات صارخة وتعتبر الحروب قمة الانفعالات ، وتتبعها تحولات كبيرة فهى ـ بنتائجها ـ قمة التحولات، وإيضاحاً لذلك أقرر أن أنور السادات بكفاءته ومواهبه تولى رياسة الجمهورية من سنة ١٩٧٠ ولكن التحولات الضخمة لم تبدأ إلا بعد انتصارات أكتوبر ، فالتحولات بدأت مع الانتصار ، كما ارتبط الانكماش فيما قبل بالهزائم .

ثالثاً ـ كانت الحروب موضع دراسات طويلة على مر التاريخ ، والذى يدرس سيرة سيدنا رسول الله بعد الهجرة يدرك أن دراسة الغزوات تستوعب كثيرا من الجهد وتغطى مساحة كبيرة من نشاط هذه الفترة ، ومثل هذا يقال عن معركة صفين التى وضع نصر بن مزاحم

كتابا عنها بحوالى ألف صفحة، ومثلها. كذلك موقعة اليرموك والزلاقة والحروب الصليبية .

الأسباب الحقيقية لأزمتنا الاقتصادية :

يرى البعض أن ما نعانى من أزمات اقتصادية سببه زيادة السكان . وأنا أعجب لهذا الاتجاه وبخاصة إذا صدر من مصرى ، فنحن فى مصر نوشك أن نعانى من نقص فى الأيدى العاملة ؛ فعمال البناء ، وعمال ميكانيكا السيارات، وعمال الكهرباء ، والنجارون، أصبحوا من الندرة لدرجة تهدد أصحاب الأعمال . فأين زيادة السكان ؟

إذا قيل إن الزيادة فى الجامعات أو فى المكاتب . قلنا إن ذلك سوء تخطيط تسأل عنه الحكومة .

وقد اندفع السكان من كل المهن للخارج يعملون ويكدحون ويكسبون العملة الصعبة ، وما علينا إلا أن ننظم عملهم ، وألا ندع أحداً يستغلهم ، وحينئذ يصبح السكان خيراً وفيراً لاعبئا ثقيلا .

ثم إننا نذكر الذين يقولون هذا بأن الأزمات الاقتصادية سببها آلاف الملايين من الجنيهات التى أنفقت على الحروب الخاسرة ، وعلى تثبيت عروش متهاوية ، أو محاربة نظم خارجية ، أو السرقات والتهريب ، ويوم تعرف هذه الأرقام ستثير الذهول والاشمئزاز .

مصادر هذا الكتاب :

مصادر هـذا الكتاب مصادر أصيلة مباشرة أو كما يقول الغربيون (First hand information) فهى عبارة عن رؤيتى كشاهد عيان ، أوعن سماعى سماعاً متواتراً من الثقات . و من يعيد تقليب صفحات هذا الكتاب يتضح له ذلك تماماً :

— خطوط حرب يونيو شهدتها يوماً بيوم وشاهدها معى الملايين .

— المؤتمر الذى عقده جمال عبد الناصر فى ٢٨ مايو شاهدته على الشاشة الصغيرة وشاهده معى ملايين الناس .

— الخامس الحزين عاصرته وعاصرت أحداثه وما به من آلام وضياع ، كما رأيت ورأى الناس معى كيف حوله أنور السادات إلى يوم بهيج حين حدده لإعادة فتح القناة سنة ١٩٧٥ .

— طائرات العدو التى ضربت فى عمق البلاد ضربت المعادى وحول المعادى حيث أعيش وضربت « أبو زعبل » فى طريقى إلى قريتى . . . .

— فُصِلت من الجامعة مع من فصلوا من الأساتذة وحكم علينا بالبطالة والجوع ردحاً من الزمن ، وهنا أرد على شبهة قد يثيرها البعض ، فأقرر :

أولا — أن فصلى من الجامعة كان مطلع ما حصلت عليه من نجاح مادى وأدبى .

وثانياً — أن هذه الدراسة موضوعيـة موثّقة لا دخل للعواطف فيها .

— سمعت جمال عبد الناصر وهو يفخر بأنه قبض على ثلاثين ألفاً فى نصف ساعة ، وسمعت بطريق متواتر ما نزل بهؤلاء من ضر .

— اليمن ، وعلاقاتنا بالدول العربية ، وادعاء الاشتراكية . . . واستغلال بيروت لسياسة عبد الناصر ، كلها حقائق ثابتة ، ذكرنا منها القليل ولا يزال هناك الكثير والكثير .

— إجراءات عملية ١٩٦٧ بكل جوانبها: من عدم الاستعداد الحقيقى للمعركة، ومن هزيمة جيشنا بدون معركة ،ومن قرار الانسحاب المشئوم، ومن ضحاياها فى الرجال والعتاد . . . كل ذلك أعلنه جمال عبد الناصر بنفسه وسمعته منه .

وإذا كان جيلنا قد عايش هذه الأحداث أو قرأ عنها فى الصحف فإن الأجيال القادمة لن تجد هذه الصحف ، ثم إن هناك فرقاً كبيراً بين الكتابة الصحفية التى قد تنتقض بكتابة أخرى ، وبين الكتابة العلمية التى تخضع لقوانين محددة ، وهذه الكتابة العلمية قد تقتبس من الصحف ولكن بعد عملية اختبار دقيقة ، كما أنها تلاحظ الفرق بين الآراء الشخصية للصحفى من جانب وبين البحوث والأخبار المنشورة بالصحف

من جانب آخر ، ثم إن الوثائق والبحوث العلمية لا تفقد قيمتها إذا نشرت في الصحف ، فمثلا إذا نشرت الصحف أسباب الحكم في قضية كشيش ، فإن ذلك لا يقلل من قيمة هذه الوثيقة الخطيرة ، وإذا نشر الأستاذ إبراهيم بغدادي وثيقة عما رآه وهو محافظ المنوفية عن أحداث هذه المحافظة فإن هذه الوثيقة لا تفقد قيمتها لأنها نشرت في الصحف ، وإذا نقل الأستاذ موسى صبري إلى الصحافة ما دار بقاعة المحكمة عن عبد الحكيم عامر وأنباء الذين كانوا يحفرون أرض الحدائق لإخفاء الذهب وأوراق النقد الأجنبي يوم ٧ يونيو سنة ١٩٦٧ فإن نشر ذلك في الصحف لا يقلل من قيمة هذه الحادثة الشنيعة .

ومثل هذا يقال عن موظفي وزارة الخارجية الذين تاجروا في العملة المصرية عقب إلغاء الورقة ذات الخمسين جنيها والورقة ذات المائة جنيه ، ويقال كذلك عن الأقوال التي أدلى بها المرحوم المشير أحمد اسماعيل عن أن الدفاع عن سيناء قبل معارك ١٩٦٧ كان قد ضعف بسبب سحب بعض قواتها المدربة تدريباً عالياً إلى اليمن ، وأن التعاون بين سوريا ومصر لم يكن حقيقياً ، وأن قرار الانسحاب كان مخاطرة ومجازفة غير محسوبة النتائج ضاعفت من حجم الخسائر . . . .

وأطمئن القارىء من ناحية أخرى أنني اطلعت مباشرة على أكثر الوثائق التي ذكرتُها .

وحول هذا الكتاب هناك أسئلة أرسلت لى فى رسائل خاصة وأجبت عنها برسائل خاصة كذلك ، وأسئلة نشرت فى بعض الصحف وأجبت عنها فى مقالات بنفس الصحف ، وربما خطر ببالى أن أضيف هذه المقالات لهذه الطبعة ، ولكن آثرت ـ بعد تفكير ـ أن اقتبس من هذه الردود كل جديد فيها لأضعه فى مكانه من الكتاب ، وعلى هذا فالقارىء سيجد مزيدا من الدراسات من حين لآخر لتصبح نقاط البحث أكثر وضوحا وعمقا .

ولعلى بذلك أكون قد قاربت الهدف الذى سعيت إليه ، وهو خدمة بلادى الحبيبة بكل الود وكل التفانى .

وعلى الله قصد السبيل .

دكتور أحمد شلبى

المعادى فى الثالث من يوليو سنة ١٩٧٥

حقيقة الثورات

وتأثير ثورة ٢٣ يوليو على المؤرخ المصرى

ينحرف الحكم أحياناً فى أى بلد من البلاد ، ويشتد ضغط الحاكم على المحكوم ، فتهبُّ ثورة تزيل الحاكم الظالم وتأخذ السلطان من يده ، وعلى الثورة أن تسرع عقب ذلك فتعيد الحق إلى نصابه ؛ فإذا كان الحاكم الظالم ديكتاتوراً كان على الثورة أن تعيد السلطان للشعب ، وإذا كان إقطاعياً استبد بالثراء كان على الثورة أن تعيد الأموال لأصحابها ، وتستقر الأمور عقب ذلك التصحيح لتسير الحياة فى مسارها الطبيعى وتنتهى مهمة الثورة .

أما إذا بقيت الثورة وفرضت نفسها على الجماهير فإنهاحينئذ تسلب سلطان الشعب وتستبد بالأمر دون تفويض من الناس ، وكأ ا بذلك تدعو لقيام ثورات ضدها ، كما قامت هى ضد المنحرفين السابقين .

وثورة ٢٣ يوليو كانت ضرورية فى وقتها ؛ عملت لتتخلص مصر من مَلِكٍ انحرف وحاشية ضلّت ، وكان لها برنامج طموح صفّق له الشعب ، وكان من الطبيعى أن تزيل كل العقبات التى تقف دون تحقيق هـذا البرنامج كالاستعمار والملكية والإقطاع ، ثم أن تترك

استكمال التفاصيل لمن يمثلون الشعب تمثيلاحقيقياً ، ويعود الجيش إلى ثكناته ، يرقب الأمور عن كثب .

ذلك هو الوضع الطبيعى للثورات من الناحية العلمية ، ولم يكن هذا الوضع بعيداً عن فكر قادة الثورة ، يؤكد ذلك ما قاله محمد حسنين هيكل الذى يسميه فؤاد مطر « كبير الطهاة فى مطبخ السياسة المصرية فى عصر عبد الناصر »[١] فإنه يروى أن بعض القانونيين أفتوا بأن الثورة انتهت يوم ٢٣ يوليو ، وأن دورها انتهى بالتغيير الذى أحدثته ، وأن محمد نجيب بناء على ذلك أخذ يستبعد كلمة ثورة ، وأصدر تعليمات إلى

(١) كتاب « بصراحة عن عبد الناصر » ص ١٠ وفى هذا الكتاب يقرر محمد حسنين هيكل (ص ١٦٤) أنه كان يكتب خطب عبد الناصر ، ورغبة فى توفير وقت القارئ ، وجهدة أقرر له أنه اتضح لى من قراءة هذا الكتاب أنه ليس إلا كإحدى الخطب التى كتبها هيكل ليلقيها عبد الناصر ، ولكن لما كان هذا قد مات فإن مؤلف هذه الخطبة طبعها فى كتاب ، وقد اتجه هيكل فى تأليف الكتب عن كثير من أحداث التاريخ التى عاصرها واشترك فيها ، والذى يقرأ هيكل يدرك بوضوح أن الرجل لا يتحرى الحق تماما ، وأنه يدافع عن نفسه كأنه يحس بأن العهد سيحاكم يوما ، وهو يعد دفاعه من الآن ، وقد وصف الرئيس أنور السادات[١] ما قاله هيكل بأنه تزوير التاريخ ، وعلقت صحيفة الأهرام باللوم على كثير مما كتبه هيكل رئيس تحريرها السابق وكبير الطهاة الذى طالما طها أطعمة أودت بحياة طاعميها .

(١) صحف القاهرة فى ١ / ٦ / ١٩٧٥ .

الصحف باستعمال كلمة «نهضة»[1] ويقرر هيكل كذلك أن رجال الثورة استدعوا مصطفى النحاس من أوربا بصفته زعيم الأغلبية ، وأن مقابلات تمت بين عبد الناصر وبينه ، وبين عبد الناصر وفؤاد سراج الدين و«كانت هيكل هى» وحاول عبد الناصر إقناع فؤاد سراج الدين بأنه مستعد لإعطائهم الحكم على شرط أن يوافقوا على تطبيق الإصلاح الزراعى[2] » .

وهذا يوضح لنا بما لا يدع مجالا للشك طبيعة الثورات ، وأنها تنتهى عقب تحقيق أهدافها الكبرى ، ولكن جمال عبد الناصر رأى أن يبقى فى الحكم ليحقق برنامجه كله ، وقد كان ما عرضه على مصطفى النحاس وعلى فؤاد سراج الدين بدافع الوضع الصحيح للثورات ، ولكنه كان عرضاً مشروطاً بقيود كان يعرف سلفاً أن زعيم الأغلبية لا يمكن أن يقبلها ، فقبوله لها خضوع لسلطة غير سلطة الشعب وذلك مالا يرتضيه زعيم الشعب ، وبناء على ذلك بقى جمال عبد الناصر فى الحكم فترة طويلة حتى يقيم جيشاً قوياً ويحقق العدالة الاجتماعية . . .

وتنفيذاً لهذا الوضع أصبح قائد الثورة رئيساً للدولة ، وتكوّنت له بطبيعة الحال حاشية وأعوان ، لهم نفوذ وسلطان ، وظل اسم الثورة قائماً فترة طويلة كان تأثيرها شديد الوقع على الناس بوجه عام ، وعلى المشتغلين بتدوين التاريخ بوجه خاص .

(١) ص ٤٣ . (٢) ص ٤٦ و ٥٠ .

وكنت ـ كمؤرخ ـ أعانى هذا الإحساس عندما وصلت فى كتابة تاريخ مصر إلى الفترة التى أعاصرها ، إذ كانت الثورة تمدُّ أطنابها حولى ، ومن أجل ذلك لم أستطع كتابة تاريخ هذه الفترة ، واكتفيت بأن قلتُ عن تاريخ مصر من مطلع الثورة حتى سنة ١٩٧١ ما يلى (١) :

« المؤرخ المعاصر إذا كان مخلصاً دقيقاً من جانب ، وكامل الحرية من جانب آخر ، يُعتبر أهم مصدر لتاريخ أحداث عصره ، وهناك تاريخ يدوّنه المؤرخ من الرواية أو من المراجع ، ولكنه إذا دوّن من الرؤية والمشاهدة كان كلامه أدق وأشمل ، وأذكر أننى كنت أقتبس من كتاب العبر لابن خلدون عن تاريخ « مالى » وسرت مع هذا المؤلِّف حتى تاريخ عصره ، وحينئذ كنت شديد الغبطة ، وأنا أنقل عن المؤرخ المعاصر ، وأحسست كأنى أرى الأحداث بنفسى .

« ومع هذا فإنى كمؤرخ معاصر لا أستطيع أن أقوم بدورى فى كتابة تاريخ بلادى ، لأن أمامى عقبتين لا أستطيع تخطِّيهما :

العقبة الأولى ـ قلة الوثائق التى تنير لى السبيل ، فهناك أحداث لم تنشر وثائق عنها حتى الآن ، ومن هذه الأحداث حرب اليمن ، والهزيمة الساحقة

---

(١) انظر الجزء الخامس من « موسوعة التاريخ الإسلامى » للمؤلف .

فى معركة ١٩٦٧، والمحاكمات التى تلت هذه الحرب . . . . وقلة الوثائق فى هذه الأحداث ونظائرها ، لايلقى الضوء على المشكلات ، فلا يتيح الفرصة لدراستها وإبداء الرأى فيها بدقة .

« والعقبة الثانية ـ أننى لا أعاصر فترة عادية من التاريخ ، ولكنى أعاصر ثورة لها منهاجها تجاه الصحافة والبرلمان ، تجاه الكلمة المقولة ، والكلمة المكتوبة ، وهذا المنهاج لا يتيح الحرية الكاملة للباحث .

« من أجل هذا لا أستطيع أن أدون تاريخ هذه الحقبة » ا هـ .

ثم ظهرت بعد ذلك وثائق تعين على البحث ، وهب نسيم من الحرية على بلادى ، وتراخت أو أرجو أن تكون فكت الأغلال عن الأقلام ، فكان على أن أنزل الميدان وبخاصة أننى كتبت تاريخ العالم الإسلامى كله من مطلع الإسلام حتى الآن ، فكيف لا أكتب تاريخ بلادى فى فترة عشتها ورأيت فيها الأحداث ؟ .

وقد هزت أحوال الماضى والحاضر كل الذين اتخذوا الفكر والقلم مهنة لهم ، وكتب كل منهم متأثراً باتجاهه، فصور الأستاذ إبراهيم عبده أحاسيسه فى كتابه « رسائل من نافسعان » فجاء هذا الكتاب عملا يساوق تخصص الكاتب الذى كان أستاذاً للصحافة بجامعة القاهرة .

وكتب الروائى الكبير الأستاذ نجيب محفوظ رواية «الكرنك»، فأبرز فى أحداث هذه الرواية بعض مشاهداته من أحداث العصر .

وأخرج الأستاذ توفيق الحكيم « عودة الوعى » فحمّله مشاهده ومشاعره دون الاستناد إلى مرجع آخر كما قال فى مقدمته .

وأنا أيضاً أكتب عن الماضى والحاضر ولكن باتجاهى الخاص كمؤرخ ، فأعرض الوثائق والأحداث ، وأمهّد لها ، وأعلق عليها ، فأكون بذلك نمطاً جديداً وإن اتفقتُ فى الهدف مع الآخرين .

فاللهم أسألك العون والتوفيق والهداية حتى نذكر كلمة الحق ليكون التاريخ بحقّ شعاعاً من الماضى ينير الحاضر والمستقبل ، وليدرك حاكم اليوم وحاكم الغد أن كل شىء سيظهر يوما ، وأن كلمة الحق ستعلو ، وأن خرس الألسنة لن يدوم ، وتكبيل الناس سينتصر عليه الناس ، وسيصبح الظالم يوماً بدون سلطان يحميه ، ولا لسان يدافع عنه ، فى حين ينطلق المظلوم يدوّن التاريخ ويرفع صوته بقوله تعالى « ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » .

ولست أنكر أن هناك من يتردد فى الكتابة بعد أن هبّ نسيم الحرية ، فالإنسان الذى عاش فى الأصفاد والأغلال حوالى عشرين

عاماً لا يستطيع أن ينطلق فى سير طبيعى إذا تحطمت عنه الأصفاد والأغلال ، و يغلب أن يظل بعد تحطيمها قصير الخطا ، لأن رجليه — بعد أن أثقلهما القيد فترة طويلة — لن تستطيعا الانطلاق مسرعة ، ولأن نفسه التى أترعليها الأسْرُ ، لن تستطيع بسهولة أن تتخلص من آثاره ، فكأنه بذلك يحرم نفسه من الحرية التى مُنِحَها .

وإذا استطاع الكاتب أن يتخلص من تأثير الأصفاد فهل يستطيع القارىء أو السامع أن يتخلص كذلك من تأثيرها ؟ لقد عاش طيلة عشرين عاماً لا تقع عينه ولا تسمع أذنه إلاّ نمطاً خاصاً من الكلمات ، فاذا يكون ردُّ الفعل عليه إذا سمع كلاماً من نوع جديد ؟

على أن هناك بعض المتفائلين الذين يرون أن الكاتب من جانب ، والقارىء أو السامع من جانب آخر سيفتحان صدورهما بسرعة لنسيم الحرية بعد هذا الكبت الطويل ، وهذا هو اتجاهى لا يحكمه إلاّ صالح الدين والوطن ، وأرجو أن يكون كذلك اتجاه قارئى ومريدى .

فباسم الله نبدأ ، ومنه نرجو العون .

حرب ١٩٦٧

أحداثها - نتائج الهزيمة فيها - الأسباب الحقيقية للهزيمة

البدء بنتائج الهزيمة أو أسبابها ؟

هل نبدأ حديثنا عن هزيمة حرب ١٩٦٧ بالكلام عن أسباب الهزيمة ؟ ونتدرج فى ذلك سبباً بعد سبب ويوماً بعد يوم حتى نصل إلى المعركة فنصفها ونصف الهزيمة فيها ؟

أو نتكلم عن دوران المعركة وعن الهزيمة فيها ثم نبحث عن أسباب الهزيمة ؟

وبعبارة أسهل : هل نبدأ بالحديث عن أسباب الهزيمة أو عن أحداث الهزيمة ؟

اتجاهان يعرضان للباحث ، ويكثر أن يتجه المؤلف إلى دراسة الأسباب قبل دراسة النتائج ، فذلك هو الطريق الطبيعى فى البحث ، ولكننا فى هزيمة ١٩٦٧ نجدنا فى وضع مختلف ، فأسباب الهزيمة كانت خافية خلف أبواق الدعاية والادعاء ؛ وكانت هناك زمجرة من القيادة المصرية ، وصرخات مدوية توحى بأن النصر مؤكد فى يد القادة ، وتجعل الفشل بعيد التوقع ، ومن أجل هذا أرانى أميل إلى ضرورة عرض دوران المعركة ونتائجها ، وتصوير الهزيمة فيها ، ثم بعد ذلك نعود إلى الوراء ، نحقق ، ونتذاكر ، لنكشف الستار عن الأسباب

الحقيقية التى دعت لهذه الهزيمة الشنيعة التى مسّت كرامتنا فى الصميم .

وهذا الاتجاه هو الذى اتبعتهُ فى الجزء الثالث من موسوعة التاريخ الإسلامى عند الكلام عن نكبة البرامكة ، فقد كانت النكبة غير متوقعة ، وكان الرشيد يمضى مع جعفر البرمكى أمسية من أمسياتهما الباسمة ، وافترقا بعد شطر من الليل ، وما إن وصل جعفر إلى قصره حتى اقتحمه عليه مسرور جلاد الرشيد يطلب رأسه ، وتمت النكبة .

وكانت خطتى فى تصوير نكبة البرامكة أن وصفتها ، ووصفت أحداثها ، ثم رحت ألتمس الأسباب التى دعت إليها .

ونحن أمام حادث مماثل ، فلنبدأ فى تصوير أحداث الحرب ونتائجها ، ثم نعود بعد ذلك لنتعرف على أسبابها الحقيقية ، وعلى الجذور التى غرست الهزيمة قبل ذلك بعدة سنوات .

يوميات حرب يونيو ١٩٦٧

فى شهر مايو سنة ١٩٦٧ وخلال الأيام التالية له من شهر يونيو الحزين ، حدثت تلك الكارثة الكبرى ، وتلك الهزيمة القاسية ، التى لا تزال حديث الناس ، وفى يوميات محدّدة يمكن أن نستعرض أبرز هذه الأحداث :

— ٧ إبريل قامت إسرائيل بغارة على سوريا انتقاماً لما أنزله بها الفدائيون العرب القادمون من جهة الشمال .

— تحرك جمال عبد الناصر حسين عقب ذلك ، كأنما كان ينتظر ذلك العمل الأحمق من إسرائيل ليقضى عليها قضاء تاماً ، كما فُهِم من تصرفاته وتصريحاته آنذاك .

— ١٤ مايو أصدر جمال عبد الناصر أوامره لقوات مصر أن تزحف لسيناء ، وفى اليوم التالى طلب من السكرتير العام للأمم المتحدة إنهاء عمل قوات الطوارىء الدولية فى الأرض المصرية ، تلك القوات التى اتخذت أمكنتها منذ سنة ١٩٥٦ ، ولم يكن أكثر المصريين يعرفون أن قوات دولية تعيش على أرضهم ، وقد استجاب السكرتير العام للأمم المتحدة لهذا الطلب ، وسحب قوات الطوارىء الدولية ، إذ أن قبول الدولة المضيفة شرط لبقاء هذه القوات .

— وما إن سُحبت هذه القوات حتى أخذت القوات المصرية تحتل مواقعها ومن ضمنها موقع شرم الشيخ الذى يشرف على مضيق تيران ويسيطر على الملاحة فى خليج العقبة ، وتأزمت الأمور تأزماً شديداً .

— ٢٠ مايو أعلن يوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة أنه سيحضر للقاهرة لمحاولة الوصول بالأزمة إلى تسوية .

— ٢٣ مايو قطع جمال عبد الناصر خيط الأمل ، ولم ينتظر وصول السكرتير العام ، وأصدر قراراً بإغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية ،وأمام البضائع الإستراتيجية المتجهة إلى إسرائيل ، حتى لو كانت على ظهر بواخر غير إسرائيلية ، وأعلن أن ذلك عودة لما كانت عليه الأمور قبل عدوان ١٩٥٦ .

— أحدثت هذه التصرفات هلعاً فى العالم ، وتمّ اجتماع عاجل بين ويلسون رئيس وزراء بريطانيا وجونسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، واتضح من الاجتماع إصرارهما على مناصرة إسرائيل علناً ، وفتح خليج العقبة ولو بالقوة أمام الملاحة الإسرائيلية ، وقد علق جمال عبد الناصر على موقف أمريكا وبريطانيا بقوله : أمريكا هى إسرائيل ، وإسرائيل هى أمريكا ، وبريطانيا تابعة لأمريكا .

وفى تعليق موجز على هذه النقطة نقرر الدهشة لمن يدرك هذه الحقيقة ثم يتصدى لصراعٍ ضد هذه الدول ، وليس من يفعل ذلك إلا كمن يرى أن من الشجاعة أن يتصدى لأسدٍ هصور فيفتك به الأسد .

ونذكّر القارىء بأن الاتحاد السوفيتى بمكانته وقوته وجبروته

تراجع أمام أمريكا فى قضية الصواريخ فى كوبا ، ولم يقبل مواجهة أمريكا ، وفكّ الصواريخ بإشراف أمريكا وعاد بها أدراجه ، ولكن جمال عبد الناصر لم يشأ أن يتراجع ولم يعط فرصة للوساطة مما جعلنا نظن أن فى يده عصا سحرية يحقق بها ما يشاء دون تردد أو خوف .

ـ ٢٤ مايو وصل يوثانت إلى القاهرة ، والتقى بجمال عبد الناصر التقاء طويلا مساء ذلك اليوم ، حيث شرح الرئيس للسكرتير العام أسباب ما قام به من تصرف ، ولكن اللقاء لم يكن مثمراً لأن الرئيس لم يدع فرصة لتحقيق حل وسط .

ثم أذاع يوثانت تقريره ، وهو تقرير عادل إلى حد كبير ، وردّ بوضوح على الذين اعتقدوا أنه تسرّع فى الاستجابة لمصر عندما سحب قوة الطوارىء ، وأعاد جذور الخلاف إلى مدى أبعد من سحب قوة الطوارىء وقفل خليج العقبة ، فتحدث عن أعمال التخريب وحقوق الزراعة فى المناطق المتنازع عليها فى المنطقة المنزوعة السلاح بين سوريا وإسرائيل ، وذكر أن جذور الخلاف أبعد جداً من هذا المدى أيضاً ، إنها ترجع إلى قيام إسرائيل ، وطرد العرب ، وعدم الاستماع لقرارات الأمم المتحدة الخاصة بعودة اللاجئين ، وكثرة الاعتداءات الإسرائيلية على كل جيرانها العرب .

٢٨ مايو والمؤتمر الصحفي :

ـ في هذا اليوم عقد الرئيس جمال عبد الناصر مؤتمراً صحفياً حضره عدد كبير من الصحفيين من مختلف بقاع العالم ، وقد استهله الرئيس ببيان تمهيدي وضّح فيه أن المشكلة التي يعيشها العالم ليست مشكلة مضايق تيران ، وليست مشكلة سحب قوات الطوارىء الدولية ، فهذه عوارض طارئة لمشكلة أكبر وأخطر ، هي مشكلة العدوان الذي وقع ولا يزال واقعاً على وطن من أوطان شعوب الأمة العربية في فلسطين ، وما يعنيه ذلك من تهديد قائم باستمرار ضد أوطانها جميعاً ، وذكر الرئيس أن الاستعمار خلق إسرائيل ودعمها وشجع عدوانها حتى ضد مبادىء وقرارات الأمم المتحدة ، واستعملها أداة للعدوان في عدة مناسبات ، وأضاف أنه الآن مستعد لاسترداد حقوق العرب .

وبعد البيان التمهيدي أجاب الرئيس على أسئلة الصحفيين وكانت إجاباته مثيرة وبعيدة عن الدبلوماسية ، وفيما يلي خلاصتها :

— إذا قامت حرب بين إسرائيل وحدها وبيننا وحدنا فإنها يمكن أن تكون مقصورة على الشرق الأوسط وحده .

— الدول الكبرى لا تقرر لنا مصيرنا ولسنا تحت وصاية أحد .

— إن أمريكا انحازت انحيازاً كاملا لإسرائيل ضد العرب ، ولقد قرأت اليوم تصريح نائب الرئيس الأمريكى الذى يتحدث فيه عن إسرائيل « كمنارة للدنيا » وكل ذلك فى سبيل الأصوات وعلى حساب المبادىء .

— كنا نتصور يوماً أن أمريكا سوف تكون سنداً لحركات التحرير ، ولكنها تحولت إلى قوة راغبة فى السيطرة والحكم ، وتتصور أنها تستطيع أن تخط أقدار الشعوب ، وهى تقف ضد الأمة العربية مائة فى المائة .

— إن الضجة التى تثار الآن حول سحب قوات الطوارىء وإغلاق خليج العقبة أمام إسرائيل ضجة مصطنعة تثيرها الولايات المتحدة الأمريكية تشجيعاً ودعماً للعدوان الإسرائيلى . . . وهذه الأشياء كلها من آثار مؤامرة السويس صححناها وأعدناها إلى وضعها السليم ونحن نستطيع ذلك اليوم .

— إن مضيق تيران عرضه ثلاثة أميال أو أربعة ، والقسم الصالح للملاحة فى عرضه ميل واحد ، ومصر على جانبى المضيق (تيران — شرم الشيخ) فمياهه مصرية مائة فى المائه .

— لا يمكن أن يبقى العدوان الصهيونى على أرضنا ، لقد ذه
الاستعمار الصليبى ، ولم يبق منه إلا أطلال أثرية يزورها السياح .

— إننا لا نقيم حساباتنا على احتمال التدخل الأمريكى عسكرياً
وإذا وقع ذلك فإننا سنقاوم وندافع عن حقوقنا وسيادتنا ، ونحن لا نخ
جنرالات أمريكا ، ولا نخضع لتهديد أمريكا ، لأن ذلك معناه التخ
عن حقوقنا .

— نحن لا نريد أن تحدث مواجهة بين الاتحاد السوفيتى والولايا
المتحدة الأمريكية ، فإن مثل هذه المواجهة سوف تكون حرباً نو
وذلك أمر لا نتصوره ولا نتمناه .

وتعليق خفيف هنا يتحتم علينا أن نثبته هو أن هذا الكلام يم
أن يصدر عن إنسان يملك إحداث هذه المواجهة ، فإذا لم يملك ذل
فإن هذا الكلام يصبح لا مدلول له ، وقد هاجمتنا إسرائيل وأيد
أمريكا ولم يتحرك الاتحاد السوفيتى .

— نحن متأثرون من موقف كندا وموقف رئيس وزرا
الذى حصل على جائزة نوبل للسلام ، وهو الآن يؤيد العدوان ويتحد
ضدنا ويتواطأ مع السياسة الأمريكية .

— إذا كانت الحرب مع إسرائيل وحدها فسوف تظل قناة السويس مفتوحة ، وأما إذا كانت الحرب مع غير إسرائيل فلن يستطيع المعتدون أن يمروا من قناة السويس .

— لا أوافق على تدمير المصالح والمنشآت الأمريكية بالبلاد العربية فى حالة العدوان ، ولقد رحبت باقتراح وزير خارجية الكويت الذى أكد فيه أن الكويت سوف توقف تدفق البترول إذا حدث شىء ، ونحن فى انتظار موقف السعودية ، وعلى أية حال فإن أى بلد عربى تتأخر حكومته عن أداء دورها فإن المسئولية تنتقل إلى الشعب فتتصرف جماهيره بوحى ضميرها القومى .

وهنا أيضاً مكان لتعليق ضرورى هو : هل كان عبد الناصر يملك تدمير المصالح والمنشآت الأمريكية بالبلاد العربية ؟

وهل كانت الشعوب العربية تتخطى حكامها لتأتمر بأمره ؟

وأليس فى هذا الكلام مايفيد إثارة الشعوب العربية ضد حكامها ؟

وبعد ذلك سُئِل جمال عبدالناصر عما إذا كانت صحته تحتمل خوض معركة جديدة بالإضافة إلى ماعاناه من معارك ، فأجاب بأنه يستطيع ذلك ، وأنه ليس « خِرِع » مثل إيدن رئيس وزراء بريطانيا أيام العدوان الثلاثى الذى لم يحتمل نتيجة الحرب التى أعلنها .

وسئل عما إذا كان الاقتصاد المصرى يحتمل الصمود لمعركة ؟ فأجاب : إن اقتصادنا متين ، والصحفيون الأجانب يمكن أن يشاهدوا آثار ذلك فى حياتنا اليومية . وقال : ألا يأكل هؤلاء الكباب والكفتة فى بلادنا ؟

— فى يوم ٢٩ مايو بدأت جلسات مجلس الأمن بعد تقرير أوثانت، وقد طلبت مصر من المجلس ألا يقصر بحثه على مضيق تيران ، وأن يبحث المشكلات الأخرى حول فلسطين وأن يبحث كذلك اعتداءات إسرائيل المتعددة .

— فى يوم ٣٠ مايو حضر الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية إلى القاهرة ، ووقع مع الرئيس جمال عبد الناصر اتفاقية الدفاع المشترك .

— فى يوم ٤ يونيو انضمت جمهورية العراق لاتفاقية الدفاع المشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والأردن .

مشاعر الناس حتى الرابع من يونيو :

وقبل أن أصل إلى الخامس من يونيو لابد أن أقف وقفة أصور فيها مشاعرى ومشاعر الناس حتى الرابع من هذا الشهر .

والحق أن وسائل الإعلام هوّنت علينا كل شىء ، وكان تأثرنا باتجاهاتها

شديداً ، حتى أننا أحسسنا أن جمال عبد الناصر فى يده أقدار الأرض ، فقد استهان بجنرالات أمريكا ، وبقوة بريطانيا ، وسخر من كندا ، فلا بد أنه واثق من خطته وواثق من قوته ، وكانت « تل أبيب » على كل لسان كهدف يسعى له الثائرون ، ويلتقى فيه المناضلون ، وقد أطمعنا فى ذلك أن الرئيس رجل عسكرى ومعه نائبه ومشيره وهو عسكرى كذلك ؛ وكانت القوة المصرية تُستعرض فى المناسبات فيمتلىء الجو بأزيز الطائرات وجلجلة الدبابات ، وكان قادتنا يكررون أننا نملك الصواريخ ، وأن لدينا أعظم قوة ضاربة فى الشرق .

وحتى أولئك الذين مسّهم الضر من حكم عبد الناصر صفّقوا له قبل الخامس من يونيو ، فإذا كان عبد الناصر سيثأر لنا من إسرائيل ، وسيهدّ جبروت إسرائيل ، فإن كل خطيئة له تُغفر ، وكل ذلة تنسى .

وأشهد لقد رأيت الشبان يتهافتون على السفر إلى سيناء ليكون لهم شرف الزحف إلى تل أبيب ، ورأيت الكهول والشيوخ وقد تجدد فيهم الشباب ، وراحوا يصفقون للرجل الذى بعثته الأقدار ليقود نضال العرب ، وارتبط فى أذهان المثقفين اسم الناصر صلاح الدين باسم الناصر الجديد ، ولم يكن الشعب وحده هو الذى خُدِع بالضجيج ووسائل الإعلام ، بل إن كثيراً من الدول وقعت فى هذه الهوة

كذلك ، فلم يكن الملك حسين ليغامر بدولته وجيشه لولا أنه خُدع في قوتنا الضاربة كما خُدعت الجماهير .

الخامس الحزين والمعركة الخاسرة :

ومرت الأيام قبل الخامس من يونيو ونحن في فرح وبهجة وأمل عميق ، ليطلع علينا يوم الخامس الحزين بتحول مرير ، ففي صبيحة ذلك اليوم ، استيقظ الناس على أنباء ببدء الحرب ، وكانت إسرائيل قد قامت في الصباح الباكر بهجوم سريع بالطائرات ، واتخذت المطارات المصرية هدفاً لها ، ويقال إن رجال الطيران كانوا في حفل راقص مساء هذا اليوم امتد بهم حتى خيوط الفجر ، فلما أووا للفراش انطلقت إسرائيل فدمرت المطارات والطائرات وهي رابضة في أمكنتها ، وقد تم ذلك في سرعة مدهشة ، وكان نذير سوء ترك البلاد تحت رحمة العدو .

وعندما تعطل سلاح الطيران المصري أصبح الزحف الإسرائيلي على مصر آمناً فاجتاحت جيوش العدو سيناء ، وكان من الممكن أن تدور معارك رهيبة بين الجيش المصري بسيناء وبين المهاجمين ، ومن المعروف أن قوة الطيران تضعف في حال الاشتباك ، ولكن جمال عبد الناصر لم يكلف جيش إسرائيل مئونة الاشتباك ونتائجه ، إذ

أصدر أمراً لجيوشنا فى سيناء بالانسحاب ، فكان ذلك فرصة انتهزها العدو ، فراح يضرب المنسحبين دون رحمة ، وعلى هذا انهارت الجبهة المصرية فى سرعة عجيبة وحُسِبت تلك هزيمة على جيشنا مع أن هذا الجيش لم يدخل معركة حقيقية ولم يقاتل العدو فى صراع ، ولكنه كان ضحية القيادة التى جانبها التوفيق تماماً ، وقد قال موشى ديان تعليقاً على النصر الذى أحرزه دون قتال : إن ما حققناه من نصر كان أكثر بكثير مما تمنيناه ، ولو أن أكبر أعداء مصر قد وضع تخطيطاً لسحق جيش مصر ما استطاع أن يحقق ما حققته سياسة جمال عبد الناصر .

ويتساءل الناس : هل كان زحفنا إلى سيناء تخطيطاً مدروساً أو كان مجرد مظاهرة ؟

إن تصرف جمال عبد الناصر عقب تأميم القناة فى سنة ١٩٥٦ يشبه تصرفه فى مايو ١٩٦٧ ، فكلاهما اندفاع بدون خطة ودفعٌ للجنود والمعدات بدون نظام ، وبشكل يسميه الأستاذ توفيق الحكيم « التهويش[١] » وفى كلا الحالتين لم يُجْدِ التهويش شيئاً ،

---

(١) عودة الوعى ص ٥٥ .

وأسرع جمال عبد الناصر يصدر أوامره بانسحاب الجيش ، ولكن الانسحاب سنة ١٩٥٦ حماه اتفاق الاتحاد السوفيتي وأمريكا ضد المعتدين ، فسرعان ما صدرت أوامر القوتين الكبيرتين لانجلترا وفرنسا وإسرائيل بالانسحاب العاجل ، واستسلمت القوى المعتدية أمام صرخة القوتين الكبيرتين ، وما إن انسحب المعتدون تحت ضغط أمريكا وروسيا حتى انطلقت أبواق الدعاية عندنا تهتف بانتصار مزعوم حققناه ، ويبدو أن قادتنا وقعوا فى شبكة الخديعة التى نصبوها للجماهير فاعتقدوا فعلا أنهم انتصروا ، وحاولوا تكرار التهويش سنة ١٩٦٧ . ولكن الحال هنا كان مختلفاً ، فإن سخرية جمال عبد الناصر بأمريكا وجنرالات أمريكا جعل هذه الدولة تمادى فى تأييد إسرائيل ، وبالتالى يطول بقاء إسرائيل فى بلادنا الحبيبة .

لقد كان قرار عبد الناصر بالانسحاب بمثابة قرار بالهزيمة ، وبتسليم الأسلحة الضخمة إلى العدو ، وبسبب الزحف بدون نظام والانسحاب بدون نظام ضاعت أسلحتنا وسقط رجالنا بعامل الجوع والجهد والعطش ، كما سقطوا برشاش العدو والمواد الحارقة التى ألقاها العدو على المنسحبين والعائدين .

والعجيب أن الهزائم فى سيناء كانت تتم ، وإذاعات مصر سادرة فى ضلالها، فقد كانت هذه فى جانب وميادين القتال فى جانب آخر ، كانت القوة المصرية تنهار بينما تذيع الإذاعة أننا أسقطنا المئات من طائرات إسرائيل ، وأن انتصارنا حق لاشك فيه .

ويقولون عن هذه الحرب إنها حرب الأيام الستة ،والواقع أن الجبهة المصرية انهارت فى ساعات ، وسرعان مااحتل العدو سيناء وغزة ، ثم راح بعد ذلك يزحف على الضفة الغربية للأردن فاستولى عليها ، كما استولى على مرتفعات الجولان جنوبى سوريا ، وكان انهيار مصر من أهم ما قضى على جبهة الأردن والجولان .

صدى الهزيمة :

وقد وقفت الدول العربية وقفة موحدة أمام هـذه النتيجة المريرة ، فقد أصدرت كل الدول العربية المنتجة للبترول قرارات بوقف ضخ البترول ، ووقف تصديره إلى أمريكا وبريطانيا ، وقطعت أكثر الدول العربية علاقاتها مع أمريكا وبريطانيا ، وتعطلت قناة السويس ، وقررت حكومة السودان الدخول فى معاهدة الدفاع المشترك مع مصر ، وأقفلت كل المطارات والموانى العربية فى وجه وسائل المواصلات الأمريكية والبريطانية .

وفى أثناء المعركة قرر مجلس الأمن وقف الحرب ، ولكن المعركة كانت تُحَدَّد فى الميدان ، وقد أعلنت أكثر الدول العربية وإسرائيل قبولها لهذا القرار ، ولكن إسرائيل ظلت تعتدى وتزحف ، ولم يتوقف عدوانها حتى يوم السبت العاشر من يونيو حين تم لها احتلال المناطق التى أشرنا إليها .

وفى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧ اتخذ مجلس الأمن قراراً بضرورة انسحاب إسرائيل إلى حدود الرابع من يونيو ، ولكن إسرائيل لم تنفذ هذا القرار حتى كتابة هذه السطور .

لقد كانت الدول العربية تتطلع إلى انتصار أكيد ، ولذلك كانت الهزيمة قاسية إلى أبلغ حدود القسوة وزاد من قسوتها هذا الانهيار السريع الذى أصابنا ، فنزلت علينا الضربات دون أن نقاوم بطريق أو بآخر ، حتى أخذ العالم فى الشرق والغرب يعلن — كما ذكر ذلك الرئيس أنور السادات بعد ذلك — أننا شعب غير مقاتل .

جماهير ٩ و ١٠ يونيو !!

وفى هذه الساعات الحالكة استقال المشير عبد الحكيم عامر المسئول عن القوات المسلحة ، ثم أعلن جمال عبد الناصر مساء الجمعة

التاسع من يونيو صورةً لنتائج المعركة ، وتلمّس عبدالناصر الوسائل للدفاع عن هزيمته ، فأعلن أنه كان ينتظر أعداءه من الشرق فجاءوه من الغرب، ويعلق الزعيم الحبيب بورقيبه على هذا التعليل بقوله : الزعيم الذى يقول إنه كان ينتظر أعداءه من الشرق ، فإذا بهم يجيئون من الغرب لايصح أن يكون زعيماً ، ولايصح أن يبقى فى مكانه لحظة واحدة [1] .

وختم عبد الناصر حديثه بأن أعلن قراره بأن يتخلى عن السلطة .

ولـكن سيارات نَقْلٍ كانت قد أُعِدَّتْ ليركبها بعض العمال من المصانع الحـكومية وبعض الفلاحين من أتباع الاتحاد الاشتراكى ، وأخذت هـذه اللوريات تطوف شوارع القاهرة فى التاسع والعاشر من يونيو لتزعق بتمسكها بالرئيس المنهزم ليُـكْمِلَ الشوط ! ! !

وتعبير « يكمل الشوط » تعبير خدّاع لأن عبدالناصر فى الحق لم يسر فى الشوط خطوة ، وإنما تراجع بالجيش والبلاد أشواطاً وأشواطاً كما سنرى، ولـكن أبواقه كانت دائماً تحاول أن تجعل الباطل حقاً ، وترغم الناس على السير فى الباطل .

---

(١) مجلة الفجر القطرية الصادرة فى ٢١/٦/١٩٧٥

ويقول الأستاذ الدكتور إبراهيم عبده[١] : « لقد حُشِرَ المأجورون في القطر والسيارات ليزحموا العاصمة مقبلين من كل فج عميق ليحيوا الهزيمة صائحين صارخين ... » .

وقد نقلت الأنباء أنه عند ما كانت جماهير التاسع والعاشر من يونيو تهتف ويدوِّي هتافها في العاصمة الجريحة كان جنود إسرائيل المنتصرة يقبِّلون تراب سيناء في جلال مهيب !!!

يالله لقد ظل هؤلاء مخدوعين حتى في هذه الأوقات العصيبة وبعد هذه الضربات الأليمة .

واستجاب عبد الناصر لهذه المتافات المصنوعة ، وقرر أن يبقى في منصبه ليعمل على القضاء على آثار العدوان وإعادة بناء الحياة العسكرية والسياسية !!!

وموضوع ٩ و ١٠ يونيو يحتاج إلى مزيد من الإيضاح ، وقد سألني بعض طلابي عنه وقالوا إنهم انضموا إلى هذه المسيرة من تلقاء أنفسهم . وأجبت هؤلاء : بأن المظهر الذى وصفتُه آنفاً رأيته بعيني ورآه معي الكثيرون ، فقد رأينا ـ ونحن نسكن في المعادى ـ سيارات نقل قادمة من حلوان تحمل حشودا من عمال المصانع ، متجهة

(١) وسائل من نفاقستان ص ١٧٥ .

إلى القاهرة لهذا الغرض ، وسمعنا العمال بهـا يصرخون .

وعندما كنت أجيب هؤلاء بتلك الإجابة طلب طلابٌ آخرون الـكلمة وأقسموا فى جمع حاشد من زملائهم أنهم كانوا ضمن من دُفِعَ بهم لسيارات النقل من قُراهم ليقوموا بهـذه المهمة .

والذى أعتقده أن هناك جماعات دُفِعوا لهذه المسيرة وأعدت لهم سيارات لهذا الغرض ، وجماعات أخرى اندفعت من تلقـاء نفسها بوحى من الرهبة التى كانت تشمل الجميع ، أو بحـكم أنهم من الجيل المضلَّل الذى سنتحدث عنه فيما بعد

مؤتمر القمة بالخرطوم :

وفى أغسطس سنة ١٩٦٧ اجتمع مجلس قمـة للملوك والرؤساء العرب فى الخرطوم ، وعمل على تصفية المشـكلات الداخلية بين الدول العربية[1] لتتحد فى مواجهة العدو المشترك ، وفى هذا الاجتماع أعلنت المملـكة العربية السعودية وليبيا والـكويت استعدادها لتعويض بعض الخسائر المادية لمصر والأردن ، فتقرّ ر أن تدفع هذه الدول دعماً ماليا لها حتى إزالة آثار العدوان[2] ، وكانت الدول العربيـة فى هذا الاجتماع

(١) سنتحدث فيما بعد عن هذه المشكلات .

(٢) توقفت ليبيـا عن دفع نصيبها من الدعم عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣

تَصْدُرُ عن فكر عربي رائع متناسية الخلافات بينها ، تلك الخلافات التي كانت عميقة التأثير كما سنراها فيما بعد ، ولكن الملوك والرؤساء كانوا أسمى من التشفي والانتقام ، فنسوا أو تناسوا كل شيء ، واتجهوا التعاون للصالح العربي العام بقدر الإمكان .

وقد كنتُ بالخرطوم قبل هذا الاجتماع وخلاله ، وأستطيع هنا أن أترجم بعض المشاعر حول هذا المؤتمر :

أولا — شاهدتُ الجهود الكبيرة التي بذلها الرئيس السوداني الراحل إسماعيل الأزهري ورئيس الوزراء محمد أحمد محجوب ليتم انعقاد هذا المؤتمر في ذلك الوقت ولينجح في اتخاذ قرارات مفيدة .

ثانياً — كان عبد الناصر قبل الهزيمة يهاجم بقسوة الحكومات الملكية وينعتها بالرجعية ، ولكن الدول التي حملت العبء المالي في هذا المؤتمر كانت من هذا النوع (المملكة العربية السعودية — المملكة الليبية — دولة الكويت) .

ثالثاً — بعد فترة قصيرة من هذا المؤتمر هبت ثورتان في الدول التي كان لها نصيب كبير من نجاح هذا المؤتمر هما السودان وليبيا ، ومن المؤسف أن جمال عبد الناصر نسي الدور الذي قام به رؤساء هذه وتلك

مصر فى أحرج الأوقات، وكان — كما يقول محمد حسنين هيكل —
داً بالثورة فى السودان ، فلما قامت ثورة ليبيا كان تقديره أن
نخم وأهم ، وقد فرح جداً عندما شرح له هيكل استنتاجه
اتجاه الثورة[1] .

ى كان من الوفاء أن ينسى عبد الناصر بهذه السرعة عون
نوا بجانبه وقت الضيق والشدة ؟
يس معنى هذا أننى أعارض الوضع الجديد هنا أو هناك ،
كنت أوثر أن يصمت عبد الناصر ، ويترك كل قطر عربى
ئولياته الداخلية على النحو الذى يراه .

مصر الفادحة فى هذه الحرب :

نوفمبر ١٩٦٧ أعلن جمال عبد الناصر أن الطريق إلى القاهرة
نتوحاً أمام إسرائيل ، ولم يكن هناك جندى مصرى واحد
ى تقدم لإسرائيل ، وأنه هو المسئول عن هذه النتيجة .

أعلن أرقاماً فادحة عن خسارة مصر فى هذه المعركة المشئومة،
، مصر خسرت فى هذه الحرب ٨٠٪ من سلاحها و ١٠٫٠٠٠

(١) صراحة عن عبد الناصر ص ١٧٢

جندى ؛ و ١٥٠٠ ضابط ، وأسر ٥٠٠٠ جندى و ٥٠٠ ضابط لم يعد أكثرهم .

وعند ماترى هذه الأرقام الهائلة مع أنها أقل من الواقع بكثير ، وربطها بقول الرئيس إنه المسئول ، يحق لنا أن نتساءل : ما معنى المسئولية ؟ وكيف وفى بها هذا المسئول ؟ .

ولنعد إلى هذه الهزيمة المشينة لنصور نتائجها وآلامها التى كانت شديدة الوقع على حياتنا :

نتائج هزيمة ١٩٦٧

كانت هزيمة ١٩٦٧ ضربة قاسية متعـددة النتائج ، وسنلم هنـا إلمـامة سريعة بالنتائج المريرة التي عانيناها خلال سنوات الهزيمة الحافلة بالـكآبة والعناء :

النتائج العسكرية :

أثارت هذه الهزيمةُ الشـكوكَ حول جيشنا وأحاطت مستقبلنا العسكري بضباب كثيف ، فقد كان قادة عصر الهزيمة يفخرون بالجيش ويهددون به ، فلما انهار في ساعات قصار ، قلّ الأمل في إعادة بنائه ، وبالتالي قلّ الأمل في النصر ، لأننا لم نعرف أسباب الهزيمة حتى نتحاشاها. وتحت ضغط الرأي العام المكبوت، وثورة طلاب الجامعات سنة ١٩٦٨، أجريت محاكمات ولـكنها كانت سرية ، وكانت الأحكام التي صدرت يُشاع عنها الـكثير مما يوحي بأنها ليست أحكاماً جادّة ، وليست إلاّ وسائل لتخدير الناس .

وأصبح الناس يخافون أن يرسلوا أولادهم إلى الجيش حتى لا يساقوا إلى الموت دون إعـداد أو رعاية أو نظام ، وذلك أقصى ما يمكن أن

يتعرض له بلد من هوان ، وقد رأيت بعض الطلاب بالفرق النهائية بالجامعة يتخلفون عن الامتحان فى بعض المواد أو يصطنعون الرسوب حتى لا يتخرجوا فيُدفع بهم إلى حياة عسكرية لا يعرفون مصيرها ، وأشهد أنى رأيت الطلاب سنة ١٩٥٦ ، ورأيتهم حينما جدّ الجد سنة ١٩٧٣ يتزاحمون على الالتحاق بالجيش والاستمتاع بشرف الجندية .

وأصبحت بلادنا مفتوحة أمام العدو يسرح فيها ويمرح ، يضرب فى العمق ، ويصيب منطقة حلوان ، ومصانع أبى زعبل ، ومدرسة بحر البقر ، وتلعب طائراته فى أجوائنا ، ولا نملك إلا الصراخ لمجلس الأمن الذى يزداد منا سخرية كلما شكونا إليه .

وحتى الكليات العسكرية لم نستطع حمايتها فبعثنا بطلابها إلى الأقطار العربية ، وفتحنا هذه الكليات هناك ، وتندّر بعض الناس بهذا التصرف فقالوا لماذا لا نرسل جيشنا للخارج لنحميه من غارات إسرائيل ؟

وكان جيشنا يدّعى أنه يحمل عبء الدفاع عن العرب أجمعين ، ويهدد من يعتدى عليهم ، فلما انهار هذا الجيش ، انطلق العدو إلى أرض العرب بغطرسة وعجرفة شديدين ، فهو يدخل أرض لبنان كأنما يذهب إلى نزهة ، ويقتحم الأردن بدون مبالاة ، ويضرب طائرة

ليبية مدنية على حافة سيناء فيقضى على عدد من المدنيين الأبرياء ، وقد اضطرت بعض الدول العربية أن تعمل على القضاء على المقاومة الفلسطينية حتى لاتتعرض لهجوم إسرائيل .

الأضرار الأدبية :

كانت الأضرار الأدبية التى ألمت بنا مريرة جداً ، فقد أصبح العالم كله يستهين بنا ، ويتجاهل تاريخنا ، وينسى ما أحرزناه من انتصارات عسكرية عبر التاريخ ، وما حققناه من أدوار حضارية بعيدة الشأن فى تقدم العالم ، ووصل الحال فى تدهور سمعة مصر أن حكومات الكثير من دول أوربا كانت تتجاهل مصر ، وتقول السيدة زوجة وزير الخارجية المصرى الأستاذ إسماعيل فهمى : إن اسم مصر قد هبط فى نظر المجتمعات الأوربية ، لدرجة أن بلغ من تجاهلهم لنا أنهم كانوا يغفلون اسم مصر فى كل الدعوات الرسمية ، وتجاهلوا دعوة السفير وحرمه ، وفقاً للبروتوكول والعرف الدبلوماسى المتبع[1] .

وليست أوربا فقط هى التى استهانت بمصر ، بل إن مصر عانت الكثير من العالم العربى نفسه ، وواجهت صوراً من الإهمال وعدم التقدير ، بل

---

(١) مجلة صباح الخير ١٤ مارس ١٩٧٤

وصل الأمر أحياناً إلى نوع من العدوان ، وكم روى الأساتذة المصريون الذين يعملون بالبلاد العربيـة من مواقف مريرة تعرضوا لها كأنهم هم الذين تسببوا فى هذه الهزيمـة النكراء .

الأضرار الاقتصادية :

ونزل بنا ضرر اقتصادى بالغ المدى ، فلقد توقفت قناة السويس ، وقات أو انقطعت وفود السياح ، وضاعت منابع البترول التى كانت تتدفق من سيناء ، ودمر العدو محطات تكرير البترول بالسويس ، كا دمر الحياة فى مدن القناة ، وهُرع اللايين مهجرين من هذه المدن هائمين على وجوههم .

وفى الداخل عانى الشعب أزمة اقتصادية طاحنـة ، فالأجور والمرتبات كانت ضئيلة بالنسبة لنفقات المعيشة التى ارتفعت ارتفاعاً باهظاً ، وانهارت أسعار عملتنا انهياراً شنيعاً ، واختفت أكثر السلع الضرورية من السوق ، وعاش شعبنا فى حرمان لم يشهده فى أقسى فترات التاريخ ، وشهدت مصر حقبة وصفتها فى كتابى « رحلة حياة » بحقبة المفارقات العجيبة ، فقد كانت مصر — كالعهد بهـا — حافلة بالمفكرين والمؤلفين فى مختلف فروع المعرفة ، ولكن ورق الطباعة

وما كينات الطباعة الحديثة قليلة بها أو قل غير موجودة ، وفى مصر أطباء من أرقى المستويات ولكن صيدليات القاهرة خلت من الأدوية الضرورية ، وفى مصر أعظم المهندسين للمعاريين ولكن أدوات البناء نادرة ، وفى مصر يوجد الخياطون المهرة للرجال والنساء ، ولكن القماش اللازم غير موجود .

وبينما كانت أسواق القاهرة وحياة القاهرة على هذا النحو كانت أسواق « دبى » و« أبو ظبى » و « الكويت » تزخر بأحدث ما أنتجه العقل البشرى من وسائل الترف والنعيم .

الأضرار النفسية والاجتماعية :

وانعكست هذه الهزيمة على المجتمع فظهر فيه الفساد والانحراف ، واضطرب الناس نفسياً واجتماعياً ، فأخلاق انهارت ، واللامبالاة ظهرت ، والسخط قد انتشر ، بل بدا المستقبل مُظلماً قاتماً ، وباسم الاستعداد للمعركة كُبِتت الحريات ، وأُخفتت الأصوات ، وكان هناك سيف مسلط ضد من نُعِتُوا بأنهم « قوى مضادة » أو « أصوات تعلو على صوت المعركة » مع أن المعركة كانت دائماً ولا تزال كل شيء بالنسبة للجميع ، وقد يوجد خلاف حول وسائل الاستعداد لها وإدارتها ، ولكن لم يوجد خلاف على

الإطلاق حول ضرورتهـا ، وأنهـا قمة ما نحرص عليـه .

واتخذ الآثمون فرصة كبت الحريات وعدم إباحة النقد فعاثوا في الظلام ، وانتشرت الاختلاسات والسرقات ، وكثرت الحرائق التي يصطنعها الآثمون لتغطية هذا المنـكر ، بل أذيعت أخبـار عن ملايين الجنيهـات الاسترلينية كان أعلى القمم من أصحاب النفوذ قد حولوها إلى بنوك سويسرا ، وأودعوها هنـاك تحت أرقام سرية (١) .

ونحن هنا ننتهز هذه الفرصة لنطالب بإيضاح شامل حول هذه النقطة ، ونسأل :

— من هم الذين أودعوا هذه النقود ؟

— ما مقدارها ؟

— ما موقف الحـكومة منها ؟

ونؤكد أن الجماهير يمزقها أن يشاع ذلك عن قادة كانوا موضع ثقتها يوما ما ، ونريد أن نعرف وجه الحقيقة فيه .

تلك لمحة سريعة ، وخطوط عريضة ،عن نتائج هذه الهزيمة النـكراء فما هي إسباب هذه الهزيمة التي حققت لإسرائيل أعظم الأماني ؟

هذا ما سنجيب عنه فيما يلي :

(١) أخبار اليوم في ١٦/٣/١٩٧٤

الأسباب الحقيقية للهزيمة

إن الأسباب الحقيقية لهذه الهزيمة ليست تلك التى تطفو على السطح وتخدع بعض الناس ، إن بعضها عميق الجذور شديد الغور ، وبعضها مباشر واضح ، ويمكن على العموم أن تقسم هذه الأسباب كالآتى :

١ — أسباب ترتبط بالجبهة الداخلية وتصدعها

٢ — وأسباب ترتبط بالجيش وسوء قيادته

٣ — وأسباب ترتبط بعلاقاتنا الخارجية

وستكون هذه الأقسام موضع دراساتنا فيما يلى :

١ ـ الجبهة الداخلية

كانت الجبهة الداخلية فى العقد الخامس والسادس من هذا القرن تعانى الكثير من الآلام التى طحنت الشعب طحناً ، وبعض هذه الآلام ارتبط بالفزع الذى كنا نعيش فيه ، وبعضها ارتبط بغياب العدالة ، ووضع القانون فى إجازة كما قال قادة ذلك العهد ، وبعضها ارتبط بالدمار الاقتصادى الذى فرضه علينا سوء التصرف فى أموالنا مما تركنا فى مرارة الحرمان والعوز . . . .

وسندرس فيما يلى ماعانته الجبهة الداخلية من جراح كانت من أهم أسباب ما حاق بنا من هزائم فى هذه المعركة المريرة .

الفزع والهلع

مئات البيوت أو آلاف البيوت المصرية عرفت الفزع والهلع فترات طويلة من حياتها خلال هذه الحقبة ، لأن عائلها قد قبض عليه ولا يُعرف مصيره ، وآلاف أخرى كان سكانها يبيتون فى اضطراب وقلق خوفاً من مستقبل يحفه الغموض ، وخوفاً من توجس الهجوم ، وإذا سمع هؤلاء دقات على الباب انتفضوا جميعاً خوفاً من زوار الليل

الذين كانوا كالقدر المحموم ينقضّون على البيوت فيسلبون الرجال ويلقون بهم فى المجهول .

ولقد سمعنا جميعاً خطاب عبدالناصر الذى افتخر فيه بأنه قبض على ثلاثين ألفاً فى نصف ساعة ، وكان هؤلاء يُلقَوْن فى السجون والمعتقلات ويهملون إهمالا تاماً إلا من التنكيل والتعذيب ، ولقد اختفى بعض هؤلاء ولم يظهر لهم أثر ، وعاد بعضهم بعد أن مسه الضر ، وبعد أن علموه قبل أن يطلقوه أن يذكر للناس أنه كان فى ضيافة كريمة ورعاية طيبة حتى أُطلِق سراحه ، وهددوا بالويلات كلّ من يروى أية صورة من الصور البعيدة عن الإنسانية التى كانت تزدحم بها هذه المعتقلات وتلك السجون ، ولم يَعْرِف الناس ماجرى خلف هذه الأسوار إلا بعد زوال هذا العصر المرير ، وحسبك أن تقرأ ما دونه الأستاذ نجيب محفوظ فى روايته « الكرنك » لترى إلى أى مدى هانت النفوس البشرية بدون أدنى سبب عند هؤلاء الزبانية والشياطين ، وسترى كذلك أن العقاب القاسى والتنكيل البشع كانا ينزلان بالإنسان قبل أن يثبت عليه أى جرم ، وقد يظهر بعد حين أنه برىء ، ولكن الزبانية لا يريدون أن يثبتوا على أنفسهم أنهم ظلموا بريئاً ، فيختلقون له الجرائم التى لا أساس لها حتى يبقى يرسف فى الأغلال .

ومن بين الذين ألقى القبض عليهم ، وعانوا التعذيب والتنكيل عدد من الوزراء الذين شغلوا مناصب الوزارة حتى فى عهد جمال عبد الناصر نفسه .

ومن الذين ألقى القبض عليهم يمكن أن نذكر الأستاذ عبد اللطيف المردنلى الذى كان عضواً بمجلس النواب واعتقل سنة ١٩٦٥ ، وكانت جريمتـه أنه اشترك فى تشييع جنازة الزعيم مصطفى النحاس ، واستمر المردنلى معتقلا أكثر من خمس سنوات ولم توجه إليه أية تهمة ، ولم يُدْعَ للتحقيق طوال مدة اعتقاله ، حتى مات فى سجن ليمان طره .

ملك التعذيب :

وكان هناك رجل تفنن فى أساليب التعذيب واستورد بعض صورها وبعض أجهزتها من الخارج حتى سُمّىَ « مَلِكُ التعذيب » ذلك هو حمزة بسيونى ، الذى كان يُذْكَر فتقشعر الأبدان لذكره ، وكانت له كلاب مدرّبة يأمرها فتمزق الملابس وتنهش الأجسام .

وقد كُتِبَ الكثير جداً عن قسوة حمزة البسيونى ورجاله ، وسمعنا الكثير من ذلك ممن لا يملكون وسائل الكتابة ، وكل ذلك تقشعر منه الأبدان ، ويكفى أن نقرر أن أسرى الصهاينة لم يحدث لهم

جزء من ألف مما حدث للمصريين الذين وُكِلَ تعذيبهم إلى حمزة بسيونى ورجاله ، وقد كان أيسر مايفعلونه بالناس أن يوقفوهم عرايا تماماً ، ثم يأمر الشيطانُ أعوانه فينتفون شعر الضحايا ويطفئون السجائر على أجسامهم ويداعبون هذه الأجسام بغز الدبابيس ، ويطلقون الكلاب على طعامهم فتلتهمه والبشر جياع ينظرون الكلاب ولا يستطيعون مشاركتها، أما الأمور الموغلة فى الفحش فلا يستطيع القلم أن يسطرها .

ونحن هنا نطالب بكشف الستار عمن اشتركوا فى هذا التعذيب ، وبمحاسبتهم عما ارتكبوا من آثار يدمى لها وجه الحق والعدالة والقانون.

ولى مع حمزة بسيونى تجربة قاسية ، فقد استدعانى يوماً إلى لقائه سنة ١٩٦٥ بالاتحاد الاشتراكى ، وكانت المرة الوحيدة التى رأيته فيها ، وأشهد أن منظره كان يبعث الخوف والرعدة ، وهناك ذَكَرَ لى أنه وقع علىّ الاختيار لألقى محاضرة على المثقفين المقبوض عليهم ، ولم يكن لى خيار خوف أن أصبح واحداً منهم ، فقلت له : إن هذه المحاضرة من أقسى ماتعرضت له من محاضرات ، فأنت لاتثق بى وستعدُّ علىّ الكلمات عدّا ، والسامعون سيعتبروننى مأجوراً أو عميلا لكم ، وعلى كلٍّ فإنى أسأل الله العون ، وفى الوقت المحدد حضرتْ لى سيارة ركبتها

واخترقتْ بنا شوارع القاهرة حتى أطراف المدينة ، ثم أسدلت ستائر على جوانبها وراحت تشق طريقها وسط الفراغ والسكون الشامل ، وبعد أكثر من ساعتين وقفت فى مكان لا أعرفه ، ونزلتُ منها لأجد عدداً من الميكروفونات تسجل كل كلمة أقولها ، وعدداً من المتخصصين فى الاختزال يكتبون كل كلمة أو كل حركة، وجلس أمامى عدد كبير جداً من المثقفين فى طوابير منتظمة ، وبدأتُ محاضرتى، واتخذتُ طريقاً لحمايتى من الشبهات، فتكلمت عن الحضارة الإسلامية وما قدمه الإسلام للجنس البشرى من أفضال ووسائل هداية .

وقد كانت هـذه المحاضرة وعَزْمُ حمزة بسيونى على أن أكرر هذا اللقاء من الأسباب التى دفعتنى لقبول الإعارة لجامعة أم درمان الإسلامية بالسودان حتى لا يتكرر لقائى مع هذا الرجل الذى كان يخيف بمنظره ويخيف بسلطانه .

وفى عهد الحرية الذى أطلَّ علينا مع انتصارات أكتوبر حكمت المحاكم المصرية بتعويضات هائلة على هذا الرجل لصالح بعض الضحايا الذين طالبوا بهذه التعويضات ، واستنكرت المحاكم هذه القسوة الوحشية التى أثبتتها التقارير ضد هذا الرجل وأعوانه ومشجعيه .

نصيب المفكرين والكتاب من العنت :

وقد كان نصيب المفكرين والكتّاب من العنت كبيراً ، فقد اتجه قادة هذا العهد إلى إذلال هذه الطبقة لأنها رفضت أن تسير فى ركب الباطل ، فاتجه لها جبروت الحاكم بالتنكيل والتعذيب ، فمنهم من فصل من وظيفته وأسلم للبطالة والجوع ، ومن أساتذة الجامعة عدد كبير شمله هذا الفصل الظالم مع أنهم قمم فكرية فى مختلف فروع المعرفة ، ومن المفكرين من ألقى القبض عليه وزج به فى غياهب السجون ، ومنهم من نزل به الضر مما عانى من تعذيب ، بل منهم من حكم عليه بالإعدام فى محكمة الدجوى وأعدم شنقا كالقتلة وقطاع الطرق ، ولا بد أن يقفز إلى الذهن فى هذا المجال المرحوم الأستاذ سيد قطب الذى أغنى المكتبة العربية والإسلامية بثروة هائلة من إنتاجه ومؤلفاته ، وفى قمتها « فى ظلال القرآن » الذى أخرجه فى ثلاثين جزءاً ، جمع فيه خير القديم وأروع الجديد فى تفسير الذكر الحكيم .

والعجيب أن الأوامر صدرت بمصادرة كل كتبه وإخراجها من كل المكتبات ، بل صدرت بأن تقطع ورقات من كتب المطالعة المقررة على التلاميذ فى المدارس الابتدائية أو الإعدادية ، لأن بها قصائد

من تأليف الأستاذ سيد قطب يتحدث فيها عن فكرة خلقية أو وطنية أو تحمل وصفاً للنيل أو الطبيعة ، وكأن هؤلاء أرادوا أن يزيلوا اسمه من الوجود ، ولكن ذلك كان جهلا بأقدار العلماء ، لأن العالم الإسلامي اعتبره شهيداً ، وتنافست دور النشر في عدة أقطار في طبع مؤلفاته ، وأصبحت كتبه مبعث نور وهداية في كل بيت بالعالم الإسلامي إلا بيوت مصر التي كان يمكن أن تتعرض للدمار لو وجدت بها هذه المؤلفات .

ولا يمكن أن يمر موضوع شنق مفكر مسلم ممتاز دون وقفة عادلة ، ولهذا فإننا نطالب بإعادة المحاكمة في ظل العدالة والنور لنرى إدانته أو براءته أو لنحمّل قاتليه مسئولية هذا الجرم إذا ثبتت براءته للناس .

إن سيد قطب قمة فكرية ، وإن الخسارة فيه كبيرة ، وقد ترك لنا الكثير من نتاج عقله وجهده ، ولكنه غاب قبل أن يُفْرِغ كلّ ما عنده ، فمن المسئول عن هذه الخسارة ؟

والعجيب أن شخصيات عالمية وهيئات كبيرة تقدمت بالرجاء أن يُحقَن دمه ، ولكن روح الغل عجّلت بتنفيذ الإعدام . ياللهِ ! ! !

محكمة الدجوى
ومزيد من المعلومات عنها

* شُكلت هذه المحكمة بقرار مزوّر .
* وحكمت بالإعدام على بعض الناس ، وبالسجن على آخرين .
* رفاق عبد الناصر يشهدون بتزويره ، وبأنه فرعون عصره .

تطالعنا الأيام من حين إلى آخر بالمزيد عن عبد الناصر ، وتُلقى عليه أضواء فاحصة تبينه على حقيقته وتزيل الأوهام التى أحاطت به بدون حق .

والشهادة التى نقدمها اليوم صادرة من أقرب الناس إليه وأعرفهم بحياته وحاشيته ؛ من عبد اللطيف البغدادى وكمال الدين حسين ، وهى شهادة تؤيد ما ذكرناه فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب من أن الرجل استأثر بالسلطة ، وأنه وحده المسئول عما ارتكب من أخطاء أو أريق من دماء .

والموضوع الذى نعرضه اليوم تمّ فى غرفة المشورة المنعقدة بمحكمة جنوب القاهرة يوم ٢٦ / ٦ / ٧٥ ونشرته صحافة القاهرة فى اليوم التالى ، وخلاصة هذا الموضوع تتضح من النقاط التالية :

١ — بعد الانفصال الذى تمّ بين مصر وسوريا صدر إعلان دستورى فى ٢٧ / ٩ / ٦٢ وبمقتضاه شكّل مجلس رياسة ليأخذ الحكم طابع الجماعية بعد فشل القيادة الفردية التى استنكرها كمال الدين حسين فى أقواله بالمحكمة ونسب لها ما وقعنا فيه من أخطاء ، وجاء فى قرار تشكيل مجلس الرياسة أن يتولى السلطةَ التشريعية ، ويراقب السلطة التنفيذية ، وأن يعهد له بالحكم بوجه عام .

وكان مجلس الرياسة برياسة جمال عبد الناصر وعضوية كل من : كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادى ، والمشير عبد الحكيم عامر وحسين الشافعى ، وأنور السادات ، وعلى صبرى ، وحسن إبراهيم ، ونور الدين طراف ، وأحمد عبده الشرباصى ، وكمال الدين رفعت ؛ ولا بدّ أن تعرض القوانين قبل صدورها على هذا المجلس ، ولا تصدر إلا بموافقته .

٢ — أصدر جمال عبد الناصر القرار بقانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ بشأن تدابير أمن الدولة العليا ، ويخوّل هذا القرار بقانون لرئيس الجمهورية — بدون إبداء الأسباب — أن يقبض على المواطنين وأن يحتجزهم ، وأن يفرض الحراسة على أموالهم وممتلكاتهم . . . ، كما يخوّل هذا

القرار بقانون لرئيس الجمهورية الحق فى أن يأمر بتشكيل محاكم استثنائية من العنصر العسكرى الخالص لمحاكمة المواطنين عما هو منسوب إليهم من إجراءات ، وجاء فى مقدمة هذا القرار بقانون أنه صدر بموافقة مجلس الرياسة ، وقد قرر الشاهدان أن هذا القرار بقانون لم يعرض على مجلس الرياسة ، وأن هذا القول تزوير للواقع والتاريخ ، وقرر ذلك أيضا نور الدين طراف .

٣ — أصدر جمال عبد الناصر قراراً رقم ١ سنة ١٩٦٥ بتشكيل محكمة عسكرية خاصة لمحاكمة الإخوان المسلمين ، وذكر فى قرار تشكيلها أنها شُكلت بناء على القرار بقانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ . ولما كان هذا القرار بقانون غير سليم من الناحية الدستورية لأنه لم يصدر عن مجلس الرياسة ،فإن القرار بتشكيل محكمة عسكرية يُصبح غير دستورى كذلك . وبالتالى تُصبح الأحكام الصادرة من هذه المحكمة غير دستورية ، وليت شعرى ماذا يُجدى هذا القول بعد أن حكمت هذه المحكمة بإعدام بعض الناس ونفذ حكم الإعدام فيهم ، وبعد أن سجن آخرون وصودرت أموالهم .

وهذه المعلومات التى أوردناها مستقاة من شهادة عبد اللطيف البغدادى وكمال الدين حسين ونور الدين طراف ، ولا بد أن نقتبس بعض

العبارات مما دار حول هـذا الموضوع لنرى كيف كان عبد الناصر يستهين بأرواح الناس وحقوقهم :

تقول صحيفة الجمهورية فى ٧٥/٦/٣٠ :

إن القرار بقانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ بشأن تدابير أمن الدولة الذى استند إليه جمال عبد الناصر فى تشكيل المحكمة العسكرية لم يسبق إصْدارُه موافقةُ عليه من مجلس الرياسة ، عملا بما كان يوجبه الإعلان الدستورى الصادر فى ٦٢/٩/٢٧ ، ومن ثمّ فهو قانون معدوم من الوجهة الدستورية ، فضلا عن أنه مزوّر ، إذ أثبت عبد الناصر فى ديباجته أنه قد صدر بناء على موافقة مجلس الرياسة ، خلافاً للحقيقة .

ويقول عبد اللطيف البغدادى :

— إنه كان عضواً بهذا المجلس منذ إنشائه حتى ٢٦ مارس ١٩٦٤ وهذا القرار بقانون صدر يوم ٢٤ مارس ١٩٦٤ وهو لم يُعرض على مجلس الرياسة خلال وجودى به .

— مجلس الرياسة باشر أعماله فى الشهور الثلاثة الأولى سنة ٦٢ ، ثم بدأ عبد الناصر يعمل على تجميد نشاط المجلس ، بعدم دعوته للانعقاد ، أو أن تعرض عليه مسائل فرعية وبالتمرير ، ولم يتم تنفيذ تـكوين الجهاز الفنى الخاص به ، وكان من أسباب ذلك أن اعتزلتُ الحياة السياسية ، وقد

صدرت عدة قرارات وأعلنت فى الصحف دون عرضها على المجلس .

— عندما كان المجلس يباشر اختصاصاته فى فترة الشهور الثلاثة الأولى أحسّ جمال عبد الناصر بفقده لقوته ، فألغى انعقاد المجلس ، ووصل الوضع به إلى أكثر مما وصل إليه فرعون فى زمانه أو اللورد كرومر فى عصره .

ويقول كمال الدين حسين :

— خلال الوحدة مع سوريا وبعد انفصام الوحدة انتشرت القرارات الفردية التى سببّت كثيرا من الكوارث ، فتمّ الاتفاق على تعيين مجلس رياسة ايكون وسيلة للقيادة الجماعية التى تحل محل القيادة الفردية ، ولم يُعرض القرار رقم ١١٩ سنة ١٩٦٤ على مجلس الرياسة طيلة وجودى به وكانت تُقطع يدى لو وقعت عليه ، لأنى أعلم الآثار التى تترتب عليه من إطلاق السلطة .

— إن فرعون نفسه وفى عصره لم يكن يتمتع بمثل السلطة التى ذكرها هذا القانون .

— أرسلت خطابا إلى عبد الناصر قلت له فيه « اتق الله » فكان جزائى أن اعتُقِلت مدة ثلاثة أشهر .

— فى الفترة الأولى عنـدما كان مجلس الرياسة يباشر مسئولياته حدثت مشادات كثيرة بشأن الحريات والأوضاع الاقتصادية ولـكن جمال عبد الناصر بصفته رئيس المجلس كان يفضّ الاجتماع ، وينصرف، ولا يعبأ بشىء .

— وعندما سئل كمال الدين حسين باحتمال عرض هذا القرار على مجلس الرياسة بعد استقالته ، روى أنه كان حديثاً فى زيارة حسين الشافعى الذى ظلّ فى عمله بمجلس الرياسة حتى انتهت مدته ، وسأله عن عرض هذا القرار بقانون على مجلس الرياسة ، فقال حسين الشافعى إنه لم يعلم بالقرار ، ولم يسبق عرضه عليه ، كما أنه لم يوافق على إصداره .

وسُئِل نور الدين طراف عما إذا كان هذا القرار بقانون قد عُرض على المجلس ، فأجاب بأنه يُرجح أنه لم يعرض لأن مثل هذا القانون كان سيثير نقاشاً لخطورة ما يتضمنه من قواعد كانت ستعلق قطعاً بذاكرتى ، وكونى لا أذكر شيئاً عن هـذا القانون يجعلنى أرجح أنه لم يعرض .

وسُئِل نور الدين طراف : ألم يصدر تفويض لجمال عبد الناصر ببعض اختصاصات المجلس ، فأجاب بالنفى .

وسئل عما إذا كان جمال عبد الناصر عرض على المجلس استقالتى كمال الدين حسين والبغدادى ، فأجاب بالنفى كذلك ، وذكر أن المجلس هو صاحب الاختصاص فى قبول الاستقالات أو عدم قبولها .

وبعد ، لقد اتضح أن هـذا القانون الذى أصدره عبد الناصر غير دستورى ، وأنه تزوير ، وقد ترتب عليه إزهاق الأرواح وتشريد المواطنين ومصادرة الأموال ، ولا شك أن هـذه الأرواح ستمسك بتلابيب الظالمين ، ومن حق كل مظلوم أن يطالب بالتعويض اللازم ، ولـكن يتحتم أن تؤخذ التعويضات من مال المسئول عن هذا التزوير وذلك الحيف حتى ينقذ ذلك المال . . . (١).

إن السكوت عن فرعون قد يبعث فراعين آخرين ، فيجب أن يحس كل واحد أنه مسئول إن لم يكن اليوم فغداً ، وبذلك فقط نحمى حاضرنا ومستقبلنا .

(١) كان من توافق الخواطر أن اتجه المظلومون هذا الاتجاه ، فقد نشرت أخبار اليوم الصادرة فى ١٩٧٥/٧/٥ الخبر التالى :

رفع محمد شمس الدين الشناوى المحامى دعوى تعويض ضد ورثة المسئولين السابقين عن حكم مصر . طلب تعويضاً قدره مليون جنيه مقابل الأضرار المادية والأدبية التى أصابته هو وأسرته نتيجة لاعتقاله وتعذيبه لمدة ٥ سنوات بدون سبب قانونى .

عود للحديث عن الاضطهاد والسجون :

والعجب فى قضية الاضطهاد والسجون أنها شملت جماعات مختلفة المشارب ، فالإخوان المسلمون عانوا منها ، كما عانى منها الشيوعيون ، كأن الفزع كان هدفاً لذاته ، ولذة يحرص عليها حكام عهد الهزائم .

والعجيب كذلك أن ولى الأمر كان يفصل الناس من وظائفهم ثم ينساهم فى البطالة والجوع ، ويلقى بهم فى الواحات والسجون ثم ينساهم فى الظلام والآلام ، فلم يكن ما ينزل بهم تأديبياً إن كان هناك ما يدعو للتأديب ، وإنما كان تشفياً ومتعة ونعيما .

والعجب أيضاً أن الكثيرين من الذين فصلوا من وظائفهم تمّ فصلهم بأوامر تليفونية دون أن توجد فى ملفاتهم قرارات بفصلهم ، ولا أسباب هذا الفصل ، ويقول الأستاذ جلال الدين الحامصى فى مقاله بجريدة الأخبار الصادرة فى ٣/١٢/٧٤ « إن هذه كانت الطريقة المبتكرة فى قطع أرزاق الناس ، كأن الدولة بمن فيها من بشر كانت ملكا لقلة ، أو بمعنى آخر كانت إقطاعاً لهم فى وقت قيل لنا فيه إن عهد الإقطاع قد انتهى ، وهكذا كانت عمليات الفصل خاضعة للمزاج الشخصى أو عدم الرضا السامى ، كأن مصر أصبحت « عزبة » لهؤلاء ، وأصحابُ العزبة يتصرفون فيها بما يشاءون » .

وليسمح لى القارىء بكلمة هنا ، فأنا واحد ممن فصلوا سنة ١٩٥٤ بدون سبب أو بسبب حبي لبلادى واهتمامى بحقوقها[1]، وعانيت البطالة والجوع ، وعشت ردحا من الزمن أرتعد كلما سمعت دقات ببابنا طيلة الليل والنهار ، ولم تعد لى حقوقى إلا سنة ١٩٧٥ أى أنى أمضيت عمرى الوظيفى كله أو أكثره وأنا أحس بالظلم والتخلف عن أقرانى . هل يكفى أن تسوّى حالتى وحالة زملائى بعد هذا المدى الطويل ؟

ربما تسألنى : ماذا تريد ؟ وأقول : أريد توجيه اللوم لمن ظلمنا ، ولكل حاكم خان الأمانة التى كان يجب أن يرعاها .

الأبرياء فى مستشفى الأمراض العقلية :

ووصلت القسوة والوحشية مداها حين اتجهت القلوب الجاحدة إلى اتخاذ مستشفى الأمراض العقلية مكانا يلقى فيه الأبرياء عندما يحتجون على شىء أو يعترضون على تصرُّف ، وعندما أثارت مجلة آخر ساعة هذا الموضوع فى مطلع عام ١٩٧٤ ، اتجهت العدالة إلى هذا المستشفى وأخرجت منه مجموعة من الأبرياء بعد أن مسّهم الضيم الشديد وبعد أن عُدُّوا مجانين عدة سنوات ، وقد تألفت لجنة من أعضاء مجلس الشعب لبحث هذه المأساة ، وتقول صحيفة الأخبار الصادرة فى ١٨ إبريل سنة ١٩٧٤ إن موسيقيا بهيئة السينما والمسرح تقدم عام ١٩٦٦ بشكوى

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى كتابى « رحلة حياة » .

يطالب تثبيت زملائه العاملين بعقود مؤقتة ففصلته الهيئة ، وعندما تظلم أدخلته مراكز القوى مستشفى الأمراض العقلية حيث أمضى ٥ سنوات.

قصة الشيخ عاشور :

والعجيب أن سياسة القمع والتعذيب عاشت بعد النكسة كما عاشت قبلها ، ومن أهم نماذجها بعد النكسة قصة الشيخ عاشور الذى بلغت شهرته الآفاق ، وكان هذا الشيخ عضواً فى المؤتمر القومى سنة ١٩٦٨ ، وأرادت مراكز القوى أن تجعل من هذا المؤتمر متنفساً ظاهرياً ، وأعلنت أن النقاش يدور على الهواء مباشرة ، فوقف الشيخ عاشور وكانت مراكز القوى قد لقّنته ما يقوله ، ولكنه تمرد على النص ، وصاح فى المجتمعين الذين كان يرأسهم جمال عبد الناصر حسين قائلا : إن جماعة يأتون إلينا ليتحدثوا عن الاشتراكية ، ويطلبون منا أن نربط الأحزمة على البطون لنبنى أمتنا ، ولكنهم يركبون سيارات فارهة ، طول كل منها ستة أمتار أو أكثر ، ويحلّون أصابعهم بخواتم السوليتير والأحجار الكريمة .

وكانت هذه الجملة مثار غضب عليه ، فسرعان ما التقطته مراكز القوى وأودعته وهو صائم زنزانة ضيقة قذرة رطبة عدة أيام ، ويقول الشيخ فى حديثه الذى نشرته له مجلة آخر ساعة فى أكتوبر ١٩٧٤ إنه

لم يقدّم له أى طعام ولا أى شراب طيلة بقائه فى الزنزانة التى استمرت عدة أيام ، ولكن الشيخ كان حسن الحظ لأن برقيات عدة وردت من داخل الجمهورية وخارجها تسأل عن مصيره بعد أن اختفى ، فاضطرت مراكز القوى إلى إطلاق سراحه ، ويقول الشيخ عاشور فى حديثه المشار إليه إنه استُدْعِيَ لمقابلةِ شخصيةٍ كبيرة قالت له : ستخرج الآن ، وحذار أن يعرف أحد ما حصل لك ، ولا زوجتك ، قل إنك كنت فى زيارةٍ لبعض أقاربك ، وأضافت هذه الشخصية قائلة للشيخ : سأكلك تبعاً لمعلوماتك ، أنت تقول إن الله يعلم الغيب ، فلتعرف أننى أيضاً أعلم الغيب ، وسأعرف كل همسة تهمس بها ، وتأكد أنك إن عدت إلى هنا فلن ترى النور بعد ذلك .

وينبغى — ونحن نتحدث عن الفزع — ألا ننسى أجهزة التسجيل التى قيل إنها كانت فى كل مكان حتى فى حجرات النوم ، تحصى على الناس همساتهم وخفقات قلوبهم ، ولتهتف لقوى الحق التى عثرت على هذه الأشرطة ودمّرتها قبل أن تدمر البلاد والعباد .

غيبة العـــدالة

عندما زُكمت الأنوف بالقسر والظلم والديكتاتورية كان هناك شخص يمكن أن يلقب « أبو القانون » فى العصر الحديث ، ذلك هو

الأستاذ الدكتور عبد الرازق السنهوري الذي شغل أعظم الوظائف في الدولة في عهود متعددة ، كان أستاذاً بكلية الحقوق وعميداً لها ، وكان وزيراً للتربية والتعليم ، وكان رئيساً لمجلس الدولة ، وهو قبل ذلك كله وبعد ذلك كله مؤلف الموسوعات القانونية التي تتلمذت عليها عدة أجيال في مصر وخارج مصر .

ومن الطبيعي أن رجلا كهذا تهزه المظالم وتؤذيه غيبة القانون وتؤرقه الديكتاتورية ، فيعلن فقط عن أمنيته أن يسود القانون ، ولكن هذه الأمنية البريئة تهدد الظالم ، فتصدر الأوامر بالنيل من هذا الرجل العظيم بدون اكتراث بسنّه ، أو مركزه ، أو جلالة قدره ، ويجري الاعتداء عليه في مكتبه بمجلس الدولة ، إذ هاجمه أنصار البطش وضربوه وصفعوه وركلوه حتى تركوه بين الحياة والموت ثم طُرِد من منصبه وحرّم عليه أي عمل بالبلاد .

هل يمرّ ذلك أيضا بدون حساب ؟

مأساة كمشيش كنموذج من الظلم :

في الحديث عن غيبة القانون تقفز إلى الذهن قضايا كثيرة مثل قضايا الإخوان المسلمين ، وقضايا قرية كرداسة التي عاشت كلها فترة حالكة عانى فيها الشيب والشبان والرجال والنساء أسوأ ما يعاني البشر

وسنقص تفاصيل بعض هذه القضايا فى كتابنا التالى « ثورة ٢٣ يوليو بين عهدين » ونقصر حديثنا هنا على قضية كمشيش .

فهذه القضية ترينا كيف كانت الأمور تسير فى بلادنا ، فهناك مشاجرة حدثت بالمنوفية قُتِلَ فيها رجل اسمه صلاح حسين ، وكان شقيقُ القتيل زميلا وصديقاً لحسين عبد الناصر (وحسين عبد الناصر هذا هو شقيق جمال عبد الناصر ، وزوج بنت المشير عبد الحكيم عامر) واستعمل حسين عبد الناصر نفوذه لدى أخيه الرئيس وصهره المشير للانتقام لصديقه ، وصوّر المشاجرة العادية فى صورة حركة من أسرة الفقى ضد القانون وضد الدولة ، ولُفِّقت الأحداث ضد أسرة كبيرة بالمنوفية هى أسرة « الفقى » وعانت الأسرة رجالا ونساء وأطفالا أشق ما يعانيه بشر ، ولما قالت العدالة رأيها وحكمت بالبراءة نزل الضر برجال القضاء ، وكانت ما يسمى بمذبحة القضاء ، فالعهد الأسود السابق لم يكن يعرف من القضاء إلا الحكم بما يشاء لا بما يشاء القانون ، فلما قال قضاتنا كلمة الحق لقوا أقصى العنت من ولى الأمر ، ولنرفع القلم لنورد سلسلة من الوثائق فى هذا الموضوع :

رأى محافظ المنوفية فى مأساة كمشيش :

نشر إبراهيم بغدادى الذى كان محافظاً للمنوفية إبان هذه المأساة فى صحيفة أخبار اليوم الصادرة فى ١٦ / ١١ / ٧٤ بياناً مهماً هذا نصه :

تعليقاً على ما نشر بجريدة أخبار اليوم عن قضية كمشيش ، أود أن أوضح للتاريخ بعض الوقائع المتعلقة بهذه القضية ، التي عاصرتُ أحداثها خلال عملي كمحافظ للمنوفية من نوفمبر ١٩٦٥ إلى أغسطس سنة ١٩٦٧ :

١ ـ قضية مقتل صلاح حسين في كمشيش كانت أصلا مشاجرة عادية يحدث مثلها كل يوم في مصر وانتهت بمقتله ، وليس لها أي خَلْفِيَّة سياسية ، وكل ما قيل غير ذلك مخالف للحقيقة ، وقد اتَّخذَتها السلطات ذريعة ومبرراً لما استتبعها من إجراءات بدعوى تصفية الإقطاع .

٢ ـ تدخُّل المباحث الجنائية العسكرية في التحقيق كان بناء على تعليمات من المرحوم المشير عبد الحكيم عامر ، الذى كان زوج ابنته الطيار حسين عبد الناصر شقيق الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، زميلا لشقيق القتيل في القوات الجوية وتربطه به صداقة قوية .

٣ ـ المباحث الجنائية العسكرية كانت تتولى توجيه التحقيق ، حتى أن الطبيب الشرعي أثبت في تقريره ـ على غير الحقيقة ـ أن الطلقات التي قُدِّمت له من ضباط المباحث الجنائية العسكرية هي نفس عيار المسدس الذى أطلق منه النار على القتيل .

وكان أفراد المباحث الجنائية العسكرية ومعاونوهم يتولون جمع الأدلة ، والقبض على بعض الناس ، والتنكيل بهم في شوارع القرية ، حتى قبل أن يوجه إليهم الاتهام .

٤ ـ أسهمت أجهزة الإعلام ومختلف وسائل الاتصال فى الحملة التى وُجِّهت ضد أعداد كثيرة من المواطنين الأبرياء الذين حكم القضاء العادى ببراءتهم بعد أن أهينت كرامتهم ، واغتصبت أموالهم وأعراضهم ، وشوهت سمعتهم على صفحات الجرائد .

٥ ـ تحت ستار تصفية الإقطاع نهبت منازل ، واختفت أموال ، وسلبت الحلى ، وكانت السلطة العليا هى المباحث الجنائية العسكرية التى كانت تتولى عمليات القبض والتفتيش .

٦ ـ قمتُ بإثارة هذه الموضوعات وغيرها فى اجتماع برئاسة المرحوم المشير عبد الحكيم عامر عام ١٩٦٦ حضره أعضاء اللجنة العليا لتصفية الإقطاع ، والمحافظون ، وأمناء الاتحاد الاشتراكى ، ورفض المشير أن تثار مثل هذه الموضوعات فى اجتماع عام ، وطلب منى أن أشرحها له فى مقابلة خاصة خارج الاجتماع ، ولم تتم هذه المقابلة .

٧ ـ كتبت تقريراً عن حقيقة ما حدث ورفعته للمرحوم الرئيس جمال عبد الناصر شخصياً ولم يقتنع بما جاء فيه ، مما أثبته بعد ذلك القضاء المصرى النزيه ، وكان تعليقه وقتها : يظهر إنك مش عارف اللى بيجرى فى محافظتك .

٨ ـ صنّفت الدولة المواطنين الذين يجوز اعتبارهم إقطاعيين إلى فئات منها الإقطاع الزراعى، والإقطاع الإجرامى ، وإقطاع النفوذ ، وتدخلت الحزازات الشخصية فى وضع مواطنين تحت الحراسة وهم لايملكون شيئاً وتركت مواطنين كانوا يستغلون آلاف الأفدنة لصلاتهم ببعض ذوى النفوذ .

٩ ـ استغلت جهات أجنبية حادث كمشيش وعرفت سيارات السلك السياسى طريقها إلى القرية ، ولم يقتنع المسئولون بتحذيرى لهم من عواقب ذلك .

١٠ ـ تطورت الأحداث كما كنت أتوقع حتى احتلت بعض العناصر نقطة البوليس فى القرية، وأخذوا أفرادها رهائن، وضاعت هيبة الحكومة ، وبعد اتصالات على أعلى المستويات ومع الرئيس عبد الناصر شخصياً ، حضر وزير الداخلية ومعه ثلاثة آلاف من قوات الأمن المركزى بسياراتهم المصفحة لتحرير نقطة الشرطة واعتقال مثيرى الشغب .

١١ ـ نتيجةً لتصرفات المباحث الجنائية العسكرية وإهانتهم للمواطنين ورجال الدين ، شكا المرحوم الإمام حسن مأمون

شيخ الجامع الأزهر ورئيس من إهدار كرامة الدين ممثلا فى أحد رجال الأزهر ـ الذى لا يربطه بالإقطاع صلة ـ مما أدى إلى تشكيل مجلس عسكرى عال برئاسة الفريق أول عبد المحسن مرتجى عقد فى مكتب محافظ المنوفية بعد منتصف الليل، وحكم بإدانة ثلاثة من أفراد المباحث الجنائية العسكرية فى عملية الإرهاب والبطش التى قاموا بها ضد مواطنين أبرياء .

١٢ ـ حضرتُ مع آخرين ـ فى مكتب السيد / محمد أبو نصير وكان وقتها وزيراً للعدل ـ مناقشة حول إبعاد أحد المحامين العامين عن التحقيق فى قضية معينة، وكان تفسير الوزير لإبعاده أن هذا المحامى قانونى (ودغرى) أكثر من اللازم، والمطلوب فى بعض القضايا السياسية شىء من المرونة ، وكان هذا المحامى العام من بين ضحايا مذبحة القضاة .

١٣ ـ أثبت القضاء العادل ـ بتبرئته للمتهمين فى قضية كمشيش رغم كل الضغوط ـ صحة هذه الوقائع وصدّق الرئيس محمد أنور السادات على رفع الحراسات بصورة عامة ـ بعد ثورة التصحيح ـ وأمر بإعادة الحقوق لأصحابها وإعادة رجال القضاء إلى مناصبهم .

ابراهيم بغدادى

حيثيات الحكم بالبراءة بعد الادانة :

وننشر فيما يلى وثيقة خطيرة. هى حيثيات الحكم بالبراءة فى قضية كشيش ، وقد نشرت هذه الحيثيات فى ٩/ ١١/ ١٩٧٤ وتوضح هذه الحيثيات أن الزبانية من رجال التنظيم السرى وللمباحث ارتكبوا أقسى الاجراءات ضد المتهمين لينتزعوا منهم اعترافات عن أحداث لم تقع منهم،ولعل ذلك كان تنفيذاً للتدخل الذى أشارله الأستاذ إبراهيم بغدادى فى الوثيقة السابقة من أن حسين عبد الناصر شقيق الرئيس وصهر المشير كان له هوى فى هذا الموضوع ، وفيما يلى هذه الوثيقة :

إن جميع المتهمين وجميع الشهود ، قد لحقهم من التعذيب مالا يطيقه أحد من البشر ، بعضه تعذيب مادى جسمانى ، وبعضه تعذيب نفسى أشد إيلاماً من التعذيب الجسمانى ، وقد أجمعوا على أن ضباط المباحث الجنائية العسكرية وجنودها هم الذين ألحقوا بهم تلك الوسائل من التعذيب ، وأن التعذيب وصل ببعضهم فعلا إلى الموت ، ولقد قرروا جميعاً أنهم اعترفوا بهذه الأقوال التى انتُزعت منهم خوفاً وإجباراً لا طوعاً واختياراً تحت تأثير هذا التعذيب . بل إنهم بعد نقلهم إلى السجن الحربى وفى أثناء تولّى نيابة أمن الدولة العليا التحقيق

معهم .. كان التعذيب مستمراً ومتوالياً .. لأنهم كانوا فى السجن الحربى بين أيدى ضباط المباحث الجنائية العسكرية وضباط السجن الحربى .

ومن صنوف التعذيب النفسى ماقرره محمود عيسى أنهم أحضروا زوجته وبناته وأمروا زوجته بخلع ملابسها وسروالها وهددوه بهتك عرضها . ثم أحرقوا شاربه وأوسعوه ضرباً بالكرابيج ، فاضطر إلى الاعتراف على نفسه وعلى عائلة الفقى بأنهم حرضوه على القتل .

ومن صنوف التعذيب ماقرره صلاح الفقى أنهم أوسعوه ضرباً بالكرابيج والأحذية وكانوا يسمحون للكلاب المتوحشة أن تنام معه فى الزنزانة رقم ٨ بالسجن الحربى ، وكان الكلب يسبقه إلى الأكل والشرب ، ووصل التعذيب به وبأهله إلى أنهم كانوا يشربون بولهم .

ولقد ثبت التعذيب من تقارير الطبيب الشرعى الذى كشف على كافة المتهمين والشهود .

فبالنسبة لمحمود عيسى قد خلعت بعض أسنانه كى يعترف ، وبه ٢٣ إصابة من ضرب الكرابيج ، وتخلفت لديه عاهة مستديمة بيديه وبأذنه .

وثبت من الكشف الطبى على عبد الوهاب الهادى من الطبيب الشرعى أنه عُلق بالفلقة ، ووجدت به ١٤ إصابة من الكرابيج .

وأن صلاح الفقى أضحى مريضاً هزيلا من التعذيب حيث كان ينام معه الكلب المتوحش فى زنزانته ، وكشف عليه الطبيب الشرعى فوجد خلعاً فى سنتين من فمه ، وكذلك به ٢٠ إصابة من ضرب الكرابيج ! !

والمتهم بسيونى الفقى أثبت الكشف عليه الضرب بالكرابيج ونزع بعض أظافره . . ومثله المتهم محمد عرفه عمارة .

وقد أثبت كشف الطبيب الشرعى على السيد عبد الله رمضان الفقى وجود كسر بالأسنان ، وخلع ضرسين ، وكسر بالناب العلوى والضرس العلوى ، وكذلك ٢٥ إصابة على الساقين والفخذين والركبتين والمعدة جميعها من الكرابيج والضرب . . وكذلك الحال بالنسبة للسيد فراج . . وهاشم مكاوى الذى فقد أسنانه وضروسه جميعها وضرب بالكرابيج .

وكذلك الحال بالنسبة لعبد القادر حافظ الوكيل ومحمد عبد الرازق العربى اللذين وجد بهما نزع بالأظافر . . وإصابات عديدة من الضرب بالكرابيج . وكذلك الحال بالنسبة لأحمد عبد الرحمن رزق . وأما السيد إبراهيم صالح فقد ثبت وجود ورم بخصيتيه وخمس إصابات من

الضرب بالكرابيج . . وأما محمود غازى فقد ثبت ضربه بالكرابيج ووجود كسر بيديه .

وقبل إن نثبت الفقرة التالية من فقرات هذه الوثيقة نهتف بضرورة معاقبة من ارتكبوا هذه الأعمال الوحشية ومن تسببوا فيها . أما الفقرة التالية من الوثيقة فتقول :

وحيث أن جميع المتهمين وجميع الشهود قد عدلوا ـ فى التحقيقات التى أجرتها المحكمة ـ عن أقوالهم الأولى التى أبدوها أمام المباحث الجنائية العسكرية ونيابة أمن الدولة والتى تتضمن اعترافاً بارتكاب تلك الحوادث بتحريض عائلة الفقى ، ونسبوا هذه الاعترافات إلى صنوف التعذيب سالفة الذكر ، فهى التى دفعتهم إلى أن يعترفوا طلباً للنجاة من الموت والتعذيب .. ذلك التعذيب الذى أودى بحياة آخرين غيرهم .

وليس أدل على كذب الاعترافات وعدم صدقها من أن المحكمة أمرت بضم ملف اعتقال المتهم عبد الجليل شحات العربى الذى نُسِبَ له مقابلة صلاح الفقى فى منزله ، وأن صلاح الفقى سلمه سلاحاً ليرتكب به حادث القتل، ثم اتضح أنه يوم الحادث كان معتقلا وفى صميم المعتقل، وكان من المستحيل أن يرتكب القتل .

وحيث أن الدفاع عن المتهمين جميعاً ممثلا فى السيد الأستاذ

عبد العزيز الشوربجى نقيب المحامين السابق وانضم معه كل من السادة : على منصور والطاهر حسن ومحمد مسعود وآخرون .. قد طلبوا من المحكمة عدة مطالب أساسية هى :

١ ـ الحكم ببطلان إجراءات المباحث الجنائية العسكرية وتحقيقاتها لأن كل تصرفاتها تصرفات باطلة .

٢ ـ طالب الحكم ببراءة المتهمين استناداً إلى ما ثبت من تحقق التعذيب الذى وقع عليهم .

٣ ـ محاكمة من أجروا هذا التعذيب من ضباط المباحث العسكرية وسؤال وكلاء نيابة أمن الدولة عن معلوماتهم عن هذا التعذيب .

وحيث أنه ثبت لدى هذه المحكمة أن ما لحق المتهمين والشهود من التعذيب مع استثناء المتهم الأول كفيل بأن يؤكد عدم الأخذ بأى أقوال صدرت منهم . ولقد أكد ذلك واقعة ضم ملف اعتقال المتهم عبد الجليل شحات العربى والذى شمله الاعتراف بارتكاب حادث قتل وقع فى ٤ / ١٢ / ٦٢ بينما ظهر أن هذا المتهم كان فى المعتقل من تاريخ ٢٨ / ١١ / ١٩٦١ حتى ٢٢ / ٣ / ١٩٦٣ .

ومن ثم فإن كافة الأقوال التي أبديت قد جاءت نتيجة إكراه أعدم إرادتهم تماماً ، فسطرت أقوالهم لتروى قصة ملفقة إرضاء للقائمين على التعذيب . . الذين ظنوا خاطئين أن الأدلة يمكن أن تأتى عن هذا الطريق فضلوا وضل معهم محققو نيابة أمن الدولة العليا ، فتاهوا فى متاهات اعترافات خيالية ، وظهرت محاولة اصطناع الدليل الذى كشفته تحقيقات المحكمة والأوراق الرسمية التى أصرت بضمها .

ـ يضاف لما تقـدم ما ثبت فى القضايا المضمومة أن السلاح المستعمل والموصوف على لسان المتهمين والشهود لا ينطبق على الطلقات المستخرجة من الجثث ، ومن أن تقارير الأطباء الشرعيين فى القضايا المضمومة تؤكد أن اتجاه الأعيرة يخالف ماقرره المتهمون والشهود » .

وليست قضية كمشيش قضية وحيدة فى مجال الضغط والحصول على اعترافات غير صحيحة تحت وابل من التعذيب ، فقد نشر النائب العام الأستاذ محمد عبد السلام فى الثانى من نوفمبر سنة ١٩٧٤ بياناً أورد فيه أرقاماً لعشرات القضايا التى أثبت التحقيق أن صوراً شنيعة من التعذيب استعملت مع المتهمين المظلومين ليعترفوا بما لم يحصل منهم ، وكان من هذه الصور الضرب بالأيدى والسياط والتجويع والتعلوق فى الفلقـة

وإطلاق الـكلاب عليهم ونزع أظافر أيديهم ورميهم فى زنزانات مغمورة بالمياه .

ومئات من الناس ماتوا تحت هذا العذاب واختفى أمرهم ، بل قيل عنهم إنهم هربوا من السجون ، وهناك قلة ممن ماتوا تحت العذاب دلت الأحـداث على حقيقة أمرهم ومنهم زوج السيـدة التى يحكى الأستاذ جلال الدين الحمامصى قصتها فى ٨ / ١٢ / ١٩٧٤ وهاك جزءاً من كلامه :

« حكمت محكمة جنوب القاهرة الابتدائية بإلزام وزير الداخلية بصفته بأن يدفع لأرملة مصرية ١٢ ألف جنيه تعويضاً عن قتل زوجها نتيجة لضربه فى سجن أبو زعبل وذلك خلال اعتقاله على ذمة إحدى القضايا السياسية . وكان ذلك فى ١٥ يونيو سنة ١٩٦٠ .

« ولم تذكر الصحف ـ على مدى أكثر من ١٤ عاماً ـ شيئاً عن تفاصيل هذا الحادث ، لأن أحداً لم يكن يستطيع أن يتكلم ، ولم تـكن أرملة القتيل بقادرة على أن تذهب إلى المحكمة وتطلب من القاضى إنصافها ، ومعاقبة الذين ارتكبوا الحادث أو الذين أباحوا للزبانية ارتـكاب أبشع أنواع التعذيب ، وذلك لأن القانون كان فى إجازة إجبارية ،

وكان صعباً أو محالا الوصول إلى ساحة القضاء طلباً للقصاص والإنصاف».

مذبحة القضاء :

ولم يقبل عهد المظالم هذا الموقف من القضاة ، لقد كان هذا العهد يريد أن يتبع القضاء المصرى هوى المنحرفين من ذوى النفوذ ، ولـكن القضاء المصرى كان دائماً درعاً أمام الباطل ، وسلاحاً فى يد الحق ، فلما أصدر القضاء أحكاماً تتنافى مع هوى الحاكم ، تعرض القضاة إلى محنة عاتية ، فقد صدرت القرارات بفصل جميع رجال القضاء وإعادة من لم يشترك فى إغضاب السادة منهم ، وكانت هذه مأساة تعد الأولى من نوعها ، فهى من مبتكرات هذا العهد ، وظل رجال القضاء بعيدين عن وظائفهم حتى أعادتهم ثورة التصحيح المباركة ، وأزالت الظلم عن المظلومين .

ومرة أخرى نذكر أن هناك من يلوم توفيق الحكيم أو يلومنا حين نكتب الآن عن عبد الناصر ، ويقولون : لماذا لم تـكتبوا عنه وهو حى ؟ ولعل ما أوردناه آنفا يحمل الإجابة عن هذا التساؤل ، فعبد الناصر لم يكن يحتمل أية صورة من صور النقد ، وكان موقفه من أى ناقد موقفاً بعيداً عن الإنصاف وبعيداً عن العدالة ، ووصل به الأمر إلى أن قبض على نائب رئيس الجمهورية السيد كمال الدين حسين كما ذكرنا آنفا .

الثقة لا الكفاءة

لا يستطيع ملك أو رئيس أن يحكم وحده، ولا بدّ له من أعوان يشيرون عليه ويحكمون باسمه ، وعلى ولى الأمر أن يحسن اختيار أعوانه فهم امتداد له ، ويقول صلى الله عليه وسلم : من قلّد رجلا عملا على جماعة وهو يجد فى تلك الجماعة من هو أرضى منه ، فقد خان الله ، وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين .

فماذا نرى فى أعوان جمال عبد الناصر ؟

وما المقياس الذى اتُّخِذ لاختيار هؤلاء ؟

لقد وضع هذا العهد أساساً عجيباً لاختيار الأعوان ، ذلك هو الثقة ، لا الكفاءة، فاستبعد أهل الخبرة لأنهم لم يكونوا موضع ثقة[1] وأسندت المناصب الحساسة لمن يوثق بهم ولولم يكونوا ذوى كفاءة لحمل هذا النوع من المسئوليات ، وغاب الرجل الكفء عن المكان الذى يناسبه ، وحُشِد الأتباع فى أدق الأمكنة ، حتى وجد فى المؤسسات الإسلامية من لا يجيد قراءة الفاتحة ، ووجد فى المناصب الإدارية الكبرى بالجامعات من لم يسبق له أن التحق بالجامعات ، وأسندت

---

(١) انظر هيكل : بصراحة عن عبد الناصر ص ١٨٧

أكبر الأعمال فى أعظم مشروع للإصلاح الزراعى لمن لم يدرس الهندسة ولا الزراعة ، وعندما كنت مديراً للمركز الثقافى المصرى بإندونيسيا وهى قطار غير عربى أرسل لى عدد من الموظفين الذين لا يعرفون كلمة واحدة من اللغات الأجنبية ، فكان وجودهم عبئاً على المركز لا عوناً لتيسير شئونه .

وكان السلك الديبلوماسى من أهم الوظائف التى اهتم بها ولاة الأمور ، فاختاروا لهذا السلك أنصارهم حتى لا يذيع هؤلاء بالخارج مخازى العهد ، فازدحمت وزارة الخارجية بهم ، وكانوا فى نفس الوقت وسائل لمن اختاروهم ممن يشغلون وظائف كبرى من ذوى النفوذ ؛ يتاجرون باسمهم ، ويستوردون لهم مطالبهم .

وقد نشرت صحيفة أخبار اليوم فى ٢٣ / ٣ / ٧٤ صفحة كاملة عن هذه المخازى فقد اشتغل هؤلاء تجاراً، وعاشوا لأنفسهم ولم يتذكروا بلادهم ، بل عرضوها للمآسى ، وتقول الصحيفة إنه عندما ألغيت أوراق النقد المصرى ذات الخمسين جنيها وذات المائة جنيه ، اتجه هؤلاء الديبلوماسيون اشتراء هذه الأوراق بأرخص الأسعار ، وتوافدوا على مصر ليستبدلوا بها عملات لم يشملها الإلغاء من البنوك المصرية فى المدة المقررة ،

وقد وصل إلى القاهرة منهم خلال هذه المدة القصيرة ٧٥ ٪ من تعدادهم، وضُبطت حقائب بعضهم وبها عشرات الآلاف من الجنيهات، ولكن سرعان ما صدرت الأوامر بتسليمهم الحقائب بما فيها، وكأن شيئاً لم يكن.

وحكاية أخرى : كان هناك إصرار من مراكز القوى على الاحتفاظ لأعوانهم بمناصب معينة فى سفارتنا فى عاصمة إحدى الدول، وكانت حركة التنقلات والتعيينات الخاصة بهذه السفارة تصدر من مكاتب مراكز القوى وتُرسل إلى وزارة الخارجية للاعتماد والتنفيذ.

وفى سنة ١٩٧٠ اكتشفت سلطات الأمن المصرية السِّرّ وراء إصرار مراكز القوى على إرسال رجالها إلى هذه السفارة بالذات، إذ اتضح أن الذهب يباع فى البلد الذى به هذه السفارة بأسعار خيالية، وأن رجال سفارتنا يهرّبون الذهب من مصر ويبيعونه فى تلك الدولة، ويحققون بذلك أرباحاً طائلة، وفى سجلات إدارة مكافحة التهريب بمديرية أمن القاهرة، وفى ملفات البوليس الحربى ما يثبت إلقاء القبض على موظف صغير قبل دقائق معدودة من إقلاع طائرته إلى عاصمة هذه الدولة، إذ كان يحمل معه حقيبة بها ٥٠ كيلو جراماً من سبائك الذهب عيار ٢٤.

واعترف الموظف بكل شىء : إنه مجرد شيال، مجرد وسيط بين

مراكز القوى فى القاهرة التى تموّل وبين أعوانها فى السفارة الذين يتولون «التسويق» وهو ـ أى الموظف ـ لا يعرف محتويات الحقائب التى يرافقها من القاهرة إلى الجهة التى يعمل بها . فهذا هو عمله الوحيد ، وسيط أبكم أصم أعمى .

ونتيجة لهذه الفئات الفاشلة التى أُلحقت بالخارجية وبالوظائف الدبلوماسية دون كفاءات ، وُجد بالخارج ممثلون لمصر كانوا لايعرفون لغةأجنبية ، واضطروا أن يعيشوا متقوقعين لا يتصلون بأحد ، وقد وصل بعضهم إلى درجة السفراء ، ولكنهم كانوا لا يعرفون عن هذا المنصب إلا مزاياه المادية ، بل العجيب أن بعض السفراء وضع فى أخطر السفارات ، لا لشىء إلاّ لإبعاده عن مصر ، حتى وُجد خليط لا يربطه رابط إلا الجهل والمرارة ، وكانت بلادنا ضحية هذا العبث المشين ، ضحية مبدأ الاعتماد على الثقة وإهمال الكفاءة .

صورة لنائب الرئيس فى ذلك العهد :

وفى الحديث عن الثقة والكفاءة نقفز إلى قمة من قمم الحكم فى العهد الماضى ، إلى واحد من أكبر أعوان رئيس الجمهورية هو نائبه «على صبرى » وقد شاهدنا هذا النائب يسافر إلى الخارج ويعود بطائرة خاصة تحمل ماعظم قدره وغلا ثمنه ، وكانت هناك سيارات ضخمة تنتظره

فى المطار لتحمل هذه الثروة الهائلة وأدوات الذبح إلى قصره المنيف ، ولكن الستار كُشِفَ عن هذا التصرف ، فنشرت جريدة الأهرام بأن الدولة وضعت يدها على كل هذه الأشياء ، ووصفت الصحيفة هذه المصادرة بأنها « ظاهرة صحيّة » ولكن نائب رئيس الجمهورية ظل فى جبروته وسلطانه ، حتى لقد استمر بعد وفاة الرئيس ، ليجمع فى يده كل القوى والنفوذ . ويقف الإنسان حائراً ، هل كان هذا الرجل موضع ثقة وجديراً بها ؟ أو أنه قد انحرف وينبغى أن يعاقب ؟ ولكننا لا نجد جواباً شافياً ، فالمصادرة تتم ، والصحف تهاجم وتغمز ، ولكن الرجل يبقى فى نفوذه ، بل يحاول أن يزحف ليضم نفوذاً جديداً .

المشير والذهب

بل نقفز إلى الشخص الثانى فى الدولة ، إلى المشير عبد الحكيم عامر الذى كان نائباً أول لرئيس الجمهورية ، ونائباً للقائد الأعلى للقوات المسلحة ، وكان يحرص إذا ذكر اسمه فى الإذاعة أو الصحافة أن يُتبع بهذه الألقاب، ولن نتحدث عنه فى ظرف من الظروف العادية، بل سنقصر كلامنا على فجيعة مُرّة حدثت فى أحلك الأوقات ، فى اليوم السابع من يونيو الحزين ، وقد نشرت جريدة الأخبار مقالا طويلا للأستاذ موسى صبرى تعليقاً على المحاكمات التى أجريت فى مطلع عام ١٩٦٨ بسبب تجمع

أعوان المشير حوله فى مؤامرة تستهدف استعادة السلطان له ولهم ؛ وكان دستورهم « لا ناصر بدون عامر » وفى هذه المحاكمات كُشِفَ القناع عن شناعة كبرى لايغفرها التاريخ بحال من الأحوال؛ ففى خلال الانسحاب المشئوم الذى تم بشكل غير منظم، والذى قضى على كثير من رجال الجيش بأن يتساقطوا دون مقاومة ، وأن تزهق أرواح الآلاف منهم ويقع فى الأسر عدد كبير من الجنود والضباط، وبهيم المئات ضالين فى سيناء ، فى نفس هذا الوقت كان كبار قادة الجيش يحفرون أرض الحدائق ليُخْفُوا حقائب مليئة بالذهب والعملات الأجنبية ، يا لله ! ! لقد باعوا بلادهم رخيصة ، وبلغت الأنانية مداها عندهم ، ولكن الله أنقذ البلاد ، وأوقع بهم .

ولا يمكن أن تمر هذه الحادثة المريرة دون أن نقتبس بعض كلمات الأستاذ موسى صبرى مما نشره بجريدة الأخبار يوم١٩٦٨/٢/٧ مع تعليق بسيط ، هو أن هذه المحاكمة لم تكن لتتم ، وهذه الأسرار لم تكن لتذاع ، لولا أن هذا النفر بقيادة المشير كانوا قد وضعوا خطة للاستيلاء على الحكم ، ومن هنا قدّموا للمحاكمة .

وعن هذه المحاكمة يقول الأستاذ موسى صبرى :

إنها تكتب فصلا حزيناً من أيام تاريخنا ، تاريخنا الذى كنا

نجهل الكثير من أسراره حتى جاءت هذه القضية لتعلننا بأعلى صوت :
أفيقوا أيها الجماهير ، وتنبهوا ، واسمعوا بكل الآذان، كيف كان نفر من
قادتكم يحكمون مصيركم .

ويستمر موسى صبرى فيسأل : ماذا قال عباس رضوان ؟

قال عباس رضوان إن صلاح نصر سلمنى حقيبتين بهما ٦٠
ألف جنيه لأحفظهما فى مكان أمين ، ثم علمت أن هذا المبلغ يخص
المشير ، لأن المشير قال لى بعد ذلك : « أنا كنت طلبت من صلاح
تدبير حاجة » . . ويقول عباس رضوان إنى سألت صلاح نصر عن
هذه الحاجة ، فقال لى : إنها المبلغ الذى أعطيته لك . .

ومتى حدث هذا ؟ . .

يوم ٧ يونيو ١٩٦٧ .

يوم النكسة ، أسود الأيام ، ساعات استشهاد آلاف الأبطال
من رجالنا ، يوم النفوس المحطمة فى كل بيت وكوخ وشارع وزقاق ،
يوم وصول الأعداء إلى ضفة القنال .

هل كنتُ أستطيع أن أغالب الدمع وأنا أفكر فى قائد الجيش
الذى تنبه وسط الحطام والأنقاض ليطلب من صلاح نصر تدبير مبلغ ؟.

فيمدّ له على الفور ستين ألفاً من الجنيهات ويعدّها مخبأ أميناً وينتقل عباس رضوان فى سيارته ومعه (الأمانة) ، ليسترها تحت التراب فى حديقة منزل القرية .

* * *

وماذا قال أيضاً عباس رضوان ؟ . .

قال: المشير عامر قال لى .. فيه حاجة عاوز أشيلها عندك ياعباس .

— حاضر يا أفندم . .

— هاتها يا طنطاوى . .

ويحضرها طنطاوى على الفور . . وطنطاوى هذا هو السكرتير العسكرى للمشير الذى صحبه إلى منزله ، وكان يقيم به مستمراً فى أداء وظيفته حتى بعد رفع كل السلطات من المشير . ويتسلمها عباس رضوان ، ويحتفظ بها فى منزله .

وما هى ؟ . .

حقيبة بها خمسة أكياس . . وكل كيس به ألف من الجنيهات الذهبية ، خمسة آلاف جنيه من الذهب ، أى خمسون ألف جنيه من العملة المصرية .

وأين كانت ؟ . .

كانت فى مكتب المشير ، ثم انتقلت من مكتبه إلى منزله .

ومتى ؟ . .

وقت أن كان المشير غاضباً من أجل الديمقراطية ! . . ديمقراطية أكياس الذهب !

وقت أن كان المشير يتصل بعدد من الضباط ، ويعقد الاجتماعات السرية فى حجرة نومه ، وفيلا الدقى ، وشقة الشربتلى ، ويدرس الخرائط ويحدد العمليات .. من أجل ماذا ؟ . . ليعود إلى الجيش ويستولى على الحكم . . ويهدى أحكام البراءة لكل المسئولين عن الكارثة . .

* * *

وماذا قال أيضاً عباس رضوان ؟ . .

قال : فى يوم القبض على الضباط المقيمين فى منزل المشير . . « سلمنى جلال هريدى مبلغ ٩٠٠ جنيه وقال لى : دول بتوع المشير و ٦٠٠ جنيه بتوعه هوه . . وشمس بدران سلم لى مظروفاً فيه عملة أجنبية . . وصندوق به عملة أجنبية أيضاً » .

ويقول رئيس المحكمة إن شمس بدران قرر أن العملات الأجنبية كانت ألفى جنيه إسترلينى و ٨ آلاف دولار . .

نعم آلاف العملات الأجنبية يحتفظ بها أشخاص كانوا فى موضع المسئولية . . ومصانع الكادحين العارقين تحتاج إلى قطع الغيار . . ، ونداءات الكتاب تطالب بربط الأحزمة على البطون لأن البلاد فى حاجة إلى كل مليم من العملة الصعبة لزيادة الإنتاج .

ومتى كان المتهمون يحتفظون بهذه الآلاف ؟ . . وهم يجتمعون ساخطين غاضبين . . من أجل الديمقراطية ؟ . . الديمقراطية فى توزيع أسلاب العملات الصعبة على من كان بيدهم كثير من سلطات الحكم . .

مَنْ منا يستطيع أن يقوى على عينه فلا تذرف الدمع الحزين على هذا البلاء . . ؟ !

هذا ما ظهر . . وما خفى لا بد أنه أعظم ! . .

والعجيب أن الأستاذ موسى صبرى مسه الضر بسبب هذا المقال لأنه كشف بعض أسرار الماضى ، فأبعد عن الكتابة ردحاً من الزمن ، لأنه كشف القناع عن جماعات كان يجب أن تظل مسدولة القناع ، ولأن كشف القناع عن هذه القمم يضع مؤشرات تهز كيان الحاكمين جميعاً .

الحراســـة

لعبت الحراسة دوراً مهما فى تمزيق المواطن المصرى ، وتهديده ، وإضعاف الجبهة الداخلية ، وزوال الثقة بين الحاكم والمحكوم .

والحراسة كلمة أبرزها قاموس السياسة المصرية فى الستينات ، ومدلولها الواقعى يختلف تماماً عن مدلولها اللغوى ، فإذا كانت فى اللغة تفيد أن نحرس شيئاً ونراقبه ، فإن مدلولها الواقعى كان مختلفا ، فقد كانت تقريبا تفيد المصادرة ، وحرمان الملاك من أملاكهم بدون قانون وبدون أسباب عادلة ، وكانت تفرض بقرارات من رئيس الجمهورية .

وقد وافق مجلس الشعب فى أوائل يوليو سنة ١٩٧٤ على قانون بتصفية الحراسات وإعادة الأموال إلى أصحابها ، وحدّد تعويضات عادلة للذين بيعت ممتلكاتهم ، وأتاح الفرصة لمن كانوا تحت الحراسة ولم يقتنعوا بالتعويضات أن يتظلموا أمام المحاكم .

وبهذه المناسبة نشرت « أخبار اليوم » الصادرة فى ١٩٧٤/٧/٦ تحقيقا تحدث فيه بعض المسئولين عن صور من المآسى والعنت التى

كانت طابع ذلك النظام الجائر ، ونحن نقتبس بتصرف من هذا التحقيق بعض الفقرات :

أنواع الحراسة :

الحراسة التي فرضت على بعض المواطنين المصريين والتي كان موضوعها مثار مناقشات طويلة ، وصدرت بشأنها قوانين في المدة الأخيرة كانت ثلاثة أنواع :

١ — الحراسة التي فرضت في أعقاب القوانين الاشتراكية في أكتوبر سنة ١٩٦١ وانتهت بعد دستور مارس ١٩٦٤ وصدور القانون ١٥٠ الذي قرر أيلولة الأموال التي خضعت للحراسة إلى الدولة وتعويض أصحابها بما لا يجاوز ٣٠ ألف جنيه من قيمة المال وأن يكون التعويض على شكل سندات .

٢ — هناك الحراسات التي وُضعت طبقاً لقانون أمن الدولة وهو القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ ، وكان يجيز فرض الحراسة في حالة وجود دلائل على قيام الشخص بأي نشاط ضار وكانت بذلك أشبه بالعقوبة. ولولىّ الأمر وحده أن يصف أي إنسان بأن نشاطه ضار بدون أي مقياس آخر ، ويصادر أملاكه بناء على تقديره هو .

والقانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ هو القانون المزوّر الذي أشرنا إليه عند الكلام عن محكمة الدجوى .

٣ — الحراسة التي عرفت بحراسة تصفية الإقطاع بعد حوادث كشيش في مايو ١٩٦٦ . . وصدرت على بعض الأشخاص باعتبارهم من أصحاب النفوذ والسيطرة ، وأنهم يتهربون من قوانين الإصلاح الزراعي .

لا ضابط للحراسة في الماضي :

ويعلق الدكتور جمال العطيفي وكيل مجلس الشعب ورئيس اللجنة التشريعية التي أقرت قانون الحراسات على القانون الجديد بقوله :

نلاحظ أنه بمراجعة حالات الحراسة التي فرضها النظام الماضي لا نجد ضابطاً أو معياراً لفرضها أو رفعها أو الاستثناء منها ، فالحراسات التي فرضت عام ١٩٦١ بحجة أنها وسيلة للحد من الثروات الكبيرة لم تشمل أفراداً كثيرين كانوا يمتلكون ثروات طائلة ، وشملت أناساً لا يملك الواحد منهم سوى بضع مئات من الجنيهات وأحياناً لا يملك شيئاً على الإطلاق .

وفي بعض الحالات كان يُستثنى شخص وترد إليه أمواله بالكامل ،

وأحياناً تفسخ عقود البيع التى عقدتها الدولة مع المشترين . . وفى أحوال أخرى ترفع الحراسة دون رد الأملاك . وقد استسهلت السلطة فى الماضى إجراء الحراسة فكانت تفرضها فى حالات اعتقال أحد المواطنين حتى أنها فرضت الحراسة مرة على خفير إحدى الشركات لاتهامه فى إحدى القضايا الجنائية .

كل هذا فتح الباب للتحكم والانحراف ، وأخلّ بما كان يقال آنذاك عن هدف هذه الإجراءات وهو إحداث تغييرات اجتماعية وخصوصاً أن ثروات جديدة نشأت لفئات جديدة ولم تمتد إليها الرقابة أو المحاسبة .

ويضيف د . المطيفى : لذلك تمّ وضع القانون لتصفية الحراسات باعتبارها إجراءً انحرف عن الطريق السليم فى التطبيق . . ورغبة فى حل مشاكل الخاضعين للحراسة حلا جذرياً وتسوية أوضاعهم . . وبالتالى تضمّن القانون تعويضات عادلة أكثر مما كان يتوقع أصحابها .

وبعد الآن لن تفرض حراسات إلا عن طريق المدعى العام الاشتراكى ومحكمة الحراسات وبضمانات حددها القانون كما ورد فى دستور ١٩٧١ — وأهمها أن يواجه الخاضع للحراسة بما هو منسوب إليه ويُستمع دفاعه ثم يحقق فيه ، وهذه الضمانات الأساسية لم تكن

موجودة من قبل ، وعلى هذا فإن رئيس الجمهورية ليس له الحق بعد الآن فى فرض الحراسة ، وإنما يفرضها المدعى العام الاشتراكى عند الضرورة . . والمدعى العام يمكن مساءلته أمام مجلس الشعب وأمام الرأى العام . . أما رئيس الجمهورية فإنه بحكم الدستور لا يُسأل سياسياً أمام مجلس الشعب ، وقد احتمت مراكز القوى السابقة خلف هذا الوضع الدستورى ... كما أن الحراسة لا يفرضها قرار المدعى العام الاشتراكى بل يقتصر قراره على التحفظ على الأموال تحفظاً مؤقتا ، ويحيل الموضوع إلى محكمة الحراسة وهى التى تفرض الحراسة بحكمها الذى تصدره . . وقد توافق على قرار فرض الحراسة أو توقفه .

ومن هنا فإن الحراسة أصبحت تُفرض بحكم قضائى بعد ضمانات أكيدة فى حالات محددة .

من فضائح الحراسة :

وقد حدثت فضائح ومهازل فى أعقاب فرض الحراسة بأنواعها . ويعلق على هذا الدكتور يوسف أمين والى المستشار السابق للإصلاح الزراعى ورئيس قسم البساتين بزراعة عين شمس حالياً . فيقول : إن فرض الحراسة كان إجراء قصدت به السلطات أحياناً التنكيل

بيعض العناصر التى افترض فيها عدم الولاء للسلطة ، وكانت الحراسة خسارة على الدولة أكثر منها مكسباً . . فقد أدت إلى ضعف الإنتاج بصورة مخجلة فى أثناء إدارة الحراسة مقارناً بالإنتاج قبلها كما شاب تصرفات الحراسة عيوب من حيث الإدارة ، أو من حيث الاستغلال.. والأمثلة على ذلك كثيرة :

مثلا . .

عائلة فرضت عليها الحراسة فى الفترة من سبتمبر ١٩٦٦ إلى يوليو ١٩٦٧ على مائة فدان كانت تعطى إيراداً سنوياً قدره ١٥ ألف جنيه بالإضافة إلى أربع ماكينات الطحن تعطى إيراداً قدره ثلاثة آلاف جنيه سنويا .. وماشية تقدر قيمتها بحوالى خمسة آلاف جنيه . . وبعد رفع الحراسة قدمت الحراسة لأصحاب الأرض كشوفا بديون ومصروفات على الأرض قدرها ١٥ ألف جنيه . . أما الماشية فقد باعوها . . وأصبح على أصحاب الأرض أن يدفعوا ديونا بدلا من أن يحصلوا على إيراد . .

وبعد ، هذه لمحة عن الحراسة التى عانى الجوع بسببها كثير من الأسر بدون ذنب ارتكبته هذه الأسر ، وكان الدافع الوحيد لفرض

الحراسة هو التشفى ، وبسبب هذا التشفى جاع أطفال ونساء أبرياء ، ومسهم الضر ، وقد نشرت أخبار اليوم صورة زنكوغرافية لشيك بمبلغ ١٩٥ قرشاً ، كان المرتب الشهرى لسيدة من سيدات هذه الأسر هى سعدية مصطفى الشلقانى ، وكانت الحراسة تدفع هذا الشيك لسيدة مصرية فى نفس الوقت الذى تقدّر لنفقات حمار — تمتلكه إحدى هذه الأسر — مبلغاً يزيد عن عشرين جنيهاً شهرياً .

وكان المبلغ الذى يصرف إلى أحمد عبد الغفار (باشا) وزير الزراعة سابقاً هو ١٤٥ قرشاً شهرياً .

إنها فى الحق فترة مريرة بالنسبة لبلادنا ، فترة الستينات نذكرها لاجئين إلى الله أن ينتقم ممن أنزلوا بأهلينا الضر ، وممن كانوا حرباً شرسة على المواطنين ، وقوى تجيد التخطيط للنيل منهم ، وفى نفس الوقت كانوا ينهارون أمام خطط أعداء الله اليهود ، فهم بذلك يمثلون قول الشاعر :

أسدٌ علىَّ وفى الحروب نعامة

النفــاق

لعب النفاق دوراً خطيراً فى تدمير حياتنا خلال الخمسينات والستينات فقد كان جمال عبد الناصر يستطيب المدح، وربما جاز القول بأنه كان يصدّقه ويُثيب عليه ، وتبعا لذلك وُجدت حوله جماعات تخطط النفاق ، وتنظم لاصطناع الإكبار له والإجلال ، ولى تجربة فى هذا المجال ؛ ففى سنة ١٩٦١ كنت مديراً مساعدا للإدارة العامة للوافدين والمبعوثين ، وتُشرف هذه الإدارة على الوافدين ، وكانوا فى ذلك العهد عدداً كبيراً قبل أن تنتشر المدارس والجامعات بالأقطار التى استقلت حوالى ذلك التاريخ ، وكان معى موظف دهشت عندما عرفت الوظيفة المخصصة له ، كانت وظيفته قيادة فيلق المنافقين ، فـكان إذا استضاف عبد الناصر ضيفاً كبيراً أو إذا كان عبد الناصر مسافرا أو عائدا تحرك فيلق المنافقين من هنا وهناك ليردد الهتافات الرجل الملهم ، قائد العروبة ، وزعيم إفريقية . . . . ، وكان موظف إدارتنا يأخذ عدداً من السيارات ليشحنها بالطلاب الوافدين الذين تُقدَّم لهم المنح على أن تكون حناجرهم قوية ، وإخلاصهم للذات الناصرية إخلاصاً مطلقاً وعميقاً .

وراح النفاق يتسع نطاقه ويتطور ، فشمل الرسم والتصوير

والنحت ، وأصبحت رسوم جمال عبد الناصر توضع مع صور أحمس وتحتمس وصلاح الدين الأيوبى ، ووصل النفاق أحياناً إلى الكفر ولكنه كان مقبولا ومحموداً ما دام يتجه فى التيار السائد آنذاك . وقد رأيت ورأى الناس جميعاً معى تعبيراً شاع عقب زيارة جمال عبدالناصر المملكة العربية السعودية لمحاولة تصفية ما كان بين مصر وبين هذه المملكة من خلافات بسبب حرب اليمن ، هذا التعبير هو وصف رئيس الجمهورية بأنه « رسول السلام » وقد اقترح البعض استعمال كلمة رائد السلام ، أو رجل السلام بدل كلمة « رسول » ولكن هذا الاقتراح ذهب أدراج الرياح ، ويئس أصحاب الاقتراحات من المنافقين ، فقالوا لهم : قولوها صراحة ، قولوا رسول الله فتلقوا إجابة جريئة هى : انهموها أنتم ، فإن الله هو السلام .

وحادثة أخرى أكثر صراحة حدثت عندما زار عبد الناصر بعض مدن الصعيد ، فوقف المحافظ المضيف يعلن أن الرئيس نبى أتى بما لم تأت به الرسل والأنبياء من قبل ، وقد همهم بعض المستمعين مستغفرين من هذا الإلحاد فى بلد يقال إنه منارة الدين ، بل يقال إن الرئيس امتعض لهذا الوصف حتى توقع الناس مصيراً سيئاً للمحافظ الملحد ، وبعد أيام قليلة كوفىء الرجل بأن عين محافظاً للعاصمة ، ويبدو

أنه منح سلطات واسعة لدرجة أنه أعلن بعد تسلمه منصبه الجديد أنه مَنَحَ القانون إجازة .

والعجيب أن هذه الاتجاه الكافر استمر حتى عندما كان رفات جمال عبد الناصر يُحمل إلى مقره الأخير ، فقد كان المنافقون يحملون رسم الحرم النبوى الشريف ، ومن وراء قبة الحرم تظهر صورة الفقيد ، وتحتها الآية الكريمة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[١] .

بل يمكن القول بأن النفاق لا يزال موجوداً حتى كتابة هذه السطور بعد عدة سنوات من موت عبد الناصر ، فهؤلاء الذين تعودوا مدحه خوفاً أو نفاقا لا يستطيعون أن يعودوا للحق ، كأن الباطل أصبح طبيعة الحياة ، فلا تزال صورته فى كثير من الإدارات والمكاتب ، ولا يقوى أحد على إنزالها واكتفى هؤلاء الناس بأن وضعوا صورة الرئيس المؤمن محمد أنور السادات بجوار صورة جمال عبد الناصر ، مع أن صورة الرئيس رمز البلاد ، ولا يمكن أن يكون هناك إلا رمز واحد ، وعلى هذا فليس بقاء صورة جمال عبد الناصر إلا استمراراً لنفاق تعوده الناس وألفوه ، بل ظل الناس يقولون عنه بعد وفاته « الرئيس » كأنه رئيس بعد أن رحل وحل محله سواه ، واضطرت

(١) رسائل من ثقافستان للدكتور إبراهيم عبده ص ٤٤ و ١٢٥ .

وزارة التربية أن تسلك طريقاً وسطا ، فأذاعت منشوراً يصفه بأنه « الزعيم الراحل » وذلك مزيج من الخوف والنفاق .

ومن صور النفاق أن ملأ أعوان عبد الناصر البلاد بتماثيله ، فأنى تسير تجد تمثالا له ، في الوزارات والإدارات والمحافظات ومراكز البوليس والمدارس والطرق ، ودخلت تماثيل عبد الناصر القرى الصغيرة ، وقد وجد أعوان عبد الناصر وسيلة لتدخل تماثيله القرى والكفور عن طريق الجمعيات الزراعية والمدارس الإبتدائية ، وحوالى سنة ١٩٦٥ أصدرت إدارة الجمعيات التعاونية الزراعية أوامر لهذه الجمعيات أن تشترى كل منها من الأرباح تمثالاً للزعيم ، وقد رأيته في قريتنا الصغيرة موضوعاً في نافذة الحجرة الضيقة التى تباشر فيها الجمعية نشاطها ، ولو صدرت أوامر بجمع هـذه التماثيل لامتلأ بها ميدان فسيح ، ولو قُدِّرت تكاليفها لأدركنا أننا فقدنا مئات الآلاف من الجنيهات أثماناً لهذه التماثيل التى ظُنَّ أنهـا تخلِّد صاحبها ، مع أن الإنسان لا يخلده إلاَّ عمله ، وفى كثير من الحالات تذكِّر التماثيل بأخطاء كان يمكن أن تُنسى ، لو لم تذكِّر بها هذه التماثيل .

وقد ظهرت فكرة إقامة تمثال كبير لعبد الناصر ، ويقول توفيق الحكيم إنه تلقى خطاباً فى هـذا الشأن يقول فيه صاحبه إنه

موافق على إقامة التمثال ، ولكنه يرى أن يكون مكانه ليس فى القاهرة بل فى تل أبيب ، لأن إسرائيل لم تكن تحلم يوماً بأن تبلغ بهذه السرعة هذه القوة العسكرية ، ولا أن تظهر أمام العالم بهذا التفوق الحضارى إلاّ بفضل سياسة عبد الناصر(١) .

وبسبب عمق النفاق فى بلادنا ورواج سوقه جعل الأستاذ الدكتور إبراهيم عبده عنوان كتابه عن هذه الفترة « رسائل من نفاقستان » ويقصد طبعاً بكلمة نفاقستان مصر كأن النفاق أصبح علماً عليها .

وهكذا كانت الجبهة الداخلية تعيش فى حرمان وتفكك وخوف ، وكانت الهجرة من مصر أسمى ما يتطلع له الناس ، وكان القلق يهز النفوس ، ولم يكن أحد آمناً على نفسه أو آله أو ماله ، وكان الجيش يمثّل قطاعاً بعيداً عن الشعب لأن كثيراً من قادته بعدوا عن الشعب وأصبحوا ملوكا وأباطرة ، انتقلت إلى قصورهم تحف القصور الملكية ورياشها ، وإلى خزائنهم جواهر الأغنياء والأمراء ، فلم يعودوا من الشعب ولا عاد الشعب يراهم على صلة به ، وكان هذا الوضع من الأسباب التى قادت للهزائم النكراء .

---

(١) توفيق الحكيم : عودة الوعى ٦٧ .

الإنسان بضاعة فى طرد

وقبل أن نتخطى ما عانته الجبهة الداخلية من مرارة وألم ، نذكر أن ذلك العهد البغيض ابتكر فى مجال تعذيب الإنسان لونا عجيبا ، إن دل على شىء ، فإنه يدل على أن المواهب والعبقريات اتجهت بحماسة لا لخدمة الإنسان بل لتدميره نهائيا أو بجعله جسداً بدون روح ، والذى يخطر ببالى فى هذا المجال هو أن حكام ذلك العهد لم يكونوا يقبلون النقد فكمّت الأفواه ، ولكن بعض الناس أفلتوا من قبضتهم وهاجروا للخارج ، وهناك تكلموا بما يريدون ، ولم يحتمل ولاة الأمر هذا النقد ، فأعدّوا عدّتهم للقبض على هذا الذى خدعته نفسه فظن أنه بمنجى من قبضة الأشرار أعداء الإنسانية .

وللقبض على مصرى بإيطاليا مثلا بهذه التهمة يتحتم إنفاق أموال الشعب المصرى بسخاء وبذخ، فالزبانية يرسلون إلى إيطاليا ، ويتنكرون أو يتصلون بوسيلة ما بأصدقاء هذا المصرى ، ويرتكبون حماقات متعددة وحيلا كثيرة يستطيعون بها أن يلتقوا بهذا الإنسان بمنأى من الناس ، وهناك يسقونه دواء مخدرا أو يعطونه بعض الحقن المخدرة طويلة المفعول ، فإذا تم لهم ذلك وضعوه فى صندوق على أنه بضاعة دبلوماسية تابعة للسفارة يراد إرسالها إلى مصر بطريق السرعة ،

ويدفعون أغلى الأجور لأسرع طائرة تقوم من هناك أو يسخّرون لذلك طائرة مصرية ، وتقول الأنباء إنه حدث مرة أنْ زال تأثير المخدر قبل الوصول إلى الهدف ، فتحركت البضاعة وكانت فضيحة .

إننا باسم الإنسانية نطالب بالتحقيق فى هذه الأمور ، ولا يمكن أن يكون كل الذين ارتكبوا هذه الجرائم قد ماتوا جميعا ، فلا بد من مساءلة الأحياء ، ولا بد أن ينسب للأموات ما ارتكبوه من خير أو شر فذلك هو دستور السماء « كل نفس بما كسبت رهينة » صدق الله العظيم .

وبعد ، إن مؤلفى الأفلام والمسرحيات التى تصف ماعانته الشعوب من ظلم المستعمرين والمستبدين ستجد فى هذه الفترة مادة خصبة قلّ أن وُجدت فى عهد من العهود .

٢ — وسائل أضعفت الجيش

هناك وسائل أضعفت جيش مصر فى عهد عبد الناصر ، وسلبته ما عرف عنه من قوة وإصرار ، وما حققه مدى التاريخ من انتصارات وأمجاد ، ولذلك ينبغى أن نقف وقفة نتعرف فيها على أسباب هذا التحول الكبير فى جيشنا العظيم .

والجيش أهم الهيئات التى ينبغى أن نقف معها فى هذه الدراسة ، فهو الذى ضحّى أكثر مما ضحى الآخرون ، فقدّم آلاف القتلى ، وبالتالى خلّف هؤلاء عشرات الآلاف من اليتامى والأرامل والثكالى . وقدم كذلك آلاف الجرحى والمشوّهين .

وأكثر من ذلك هناك شىء مسّ الأموات والأحياء جميعاً من الجنود والضباط ، ذلك هو سمعة الجيش ومكانته التى هبطت إلى أقل مستوى .

ومن أجل هذا يتحتم علينا أن نحاول أن نتعرف على الأسباب التى أضعفت الجيش والتى فرضت عليه الهزيمة بدون معركة حقيقية :

العلاقة بين عبد الناصر ومشيره :

سببت حرب ١٩٥٦ اضطراباً فى العلاقة بين عبد الناصر

وعبد الحكيم عامر ، وكانت الأيام تمر والعلاقات بينهما تزداد سوءاً ويقرر محمد حسنين هيكل أن حبّ عبد الناصر لعبد الحكيم عامر استمر لفترة ما بعد الوحدة مع سوريا (١٩٥٨) ، ثم بدأت علاقتهما تتزعزع[1] ، ومع هذا فإن عبد الناصر لم يستطع أن يتخلص من المشير فأبقاه كارهاً ، وتمّ اتفاق بين الاثنين على أن يكون الأول زعيما شعبياً ، والثانى زعيم الجيش ، وعانت مصر وعانى جيشها أسوأ النتائج بسبب سوء العلاقة بين الشخصين الكبيرين فى الدولة .

وكانت هناك هيئتان للمخابرات ، إحداها تابعة لرئاسة الجمهورية ، والأخرى تابعة لمكتب المشير ، وكانت هناك منافسة تخفيها المصالح المشتركة ، وتطفو أحياناً على السطح ، وكان للجيش ميزانية مصر ، وقد نشرت الصحف يوماً أن بعض الهيئات شكت من نقص فى الاعتمادات فقال الرئيس للمشير : أعطهم بعض النقود ، ويقولون إنه كان فى مكتب عبد الحكيم عامر خزانة بها الملايين من العملات المحلية والصعبة ، وكان يتصرف فيها دون رقيب أو حساب .

ورغبة فى المصالح المشتركة للزعيمين اختفى التنافس خلف وفاق مصطنع ، فلما كانت هزيمة ١٩٦٧ اتضح الخلاف وأسفر عن أنيابه ،

---

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٠١

وتمّ الاتفاق بأن يستقيل الاثنان وتبعاً لذلك استقال المشير ، ثم وقف عبد الناصر يعلن على الجماهير تنحيه ، ولكن سرعان ما استجاب لجماهير ٩ و ١٠ يونيو الذين سيقوا بنظام ليهتفوا بضرورة بقاء زعيم الشعب بعد أن تخلص من زعيم الجيش ، ولكن المشير وأعوانه ثاروا لهذا ، وتجمعوا وقاموا بمسيرة تهدّد وترغى وتزبد وهتفوا « لا ناصر بدون عامر . . . . » على نحو ما أشرنا من قبل .

والمهم أن هذا الخلاف الكبير الذى عُرف بعضه وخَفِى بعضه كان من أبرز الأسباب لإضعاف جيشنا الذى خلّد فى التاريخ القديم والوسيط والحديث صفحات مجدٍ لا تُنسى .

مواهب المشير :

واستمراراً مع المشير عبد الحكيم عامر ، ومدى مواهبه كنائب للقائد الأعلى للقوات المسلحة ينبغى أن نعود مرة أخرى إلى محمد حسنين هيكل الذى يصوّره لنا تصوير العالم الخبير فيقول :

إن حب عبد الناصر لعبد الحكيم عامر حال دون أن يقتنع عبد الناصر بأن عبد الحكيم عامر لا يصلح للقيادة : إن عبد الحكيم عامر كان نصف فنان ونصف بوهيمى ولطيفاً جداً ، ولكنه من الناحية

العسكرية توقف عند رتبة الصاغ ، أى أنه كان يستطيع أن يقود كتيبة لكنه لا يستطيع أن يقود جيشاً[١] .

من المسئول عن تسليم جيشنا إلى مثل هذا القائد ؟ ؟

وتبقى كلمة حق نقولها هى أنه ليس الحب هو الذى دفع عبدالناصر الإبقاء على عامر ، بل المصالح المشتركة للاثنين على حساب الشعب .

واستمراراً لوصف قيادات الجيش فى العهد الماضى يقول الأستاذ صالح جودت[٢] : كان جيشنا فى الخمسينات والستينات جيشاً مسكيناً ، أسلم إلى قيادات هزيلة عابثة متسيبة ، وكانت النتيجة أنه مُنى بشر هزيمة بغير معركة ، واستشهد من فلذات قلوبنا عشرون ألفاً فى سنة ٦٧ ومثل هذا القدر تقريباً فيما سُمى بحرب الاستنزاف .

كبار ضباط الجيش فى الوظائف المدنية :

ومما أضعف جيشنا كذلك أن كثيرين من كبار ضباط الجيش اختيروا ليشغلوا مناصب مدنية بعيدة كل البعد عن تخصصاتهم ، فأصبح بعضهم يدير مؤسسات اجتماعية أو إسلامية أو صناعية أو يشغل وظائف دبلوماسية ، وأصبح عادياً أن ترأس رؤساء الإدارة فى مؤسسة الأحذية

---

(١) بصراحة عن عبد الناصر : ص : ١ و ١١

(٢) المصور فى ٧ / ٣ / ٧٤

والمطاحن والنقل والأغذية : وغيرها من المؤسسات ، مما سبب حرمان الجيش من كفاءات ممتازة ، ووضع قادته فى وظائف لم يدرسوا تخصصاتها ، ومما دفع كثيرين من زملائهم ليحاولوا أن ينالوا مثل هذه الوظائف التى تضمن لهم رفاهية العيش والمكاتب الوثيرة بدل خنادق الصحراء وصراع الموت .

إبعاد الأكفاء من الضباط عن الجيش :

كانت القيادات العابثة التى أسلم لها الجيش لاتطيق العمل مع القادة الأحرار ، فأبعدت الكثيرين منهم ، ولو استطاعت لأبعدت الجميع ، بل ألقى هؤلاء فى السجون ، وكان ذلك من أهم الأسباب التى أضعفت جيشنا ، وعندما أطلق القادة الأحرار من السجون فى عهد النور قادوا جيشنا إلى النصر المؤزر .

أتعرف من هم هؤلاء الرجال الأحرار ؟ . . إنهم كثيرون ، فيما يلى أسماء بعضهم مما ذكرته الصحف :

اللواء أحمد بدوى قائد الجيش الثالث

اللواء يوسف عفيفى قائد الفرقة ١٩

اللواء أحمد الزمر أحد شهداء حرب أكتوبر

اللواء عادل عباس نائب رئيس هيئة العمليات

اللواء عبد الحميد حمدى رئيس أركان المدرعات

اللواء جابر عبد الله مساعد رئيس هيئة التدريب

اللواء أحمد الحديدى قائد مدرسة المشاة

اللواء جمال فؤاد رئيس أركان حرب المنطقة الجنوبية

العميد إبراهيم رشيد رئيس أركان حرب منطقة البحر الأحمر العسكرية

. وكان اللواء طه المجذوب مفصولا من الجيش ونجا من السجن بأعجوبة وأعاده عبد النور ، فقام بدور مهم فى العمليات الحربية ومثّل مصر فى مؤتمر جنيف .

الاستيلاء على أكياس الذهب باليمن :

وضعف جيشنا كذلك بسبب العناصر الفاسدة التى احتجزت بعض أكياس الذهب باليمن ، تلك الأكياس التى كانت توزّع على القبائل لتؤيد مصر ، ونحن هنا نعانى الحاجة والحرمان ، ويقول محمد حسنين هيكل وهو شاهد عيان عن هذه القيادات المنحرفة : لقد تسيبت بعض القيادات العسكرية باليمن ، وبدأت تستفيد من الحرب هناك[1] .

---

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٠٢

الاستيلاء على جواهر القصور :

ومما أضعف جيشنا كذلك أن الضباط المقرّبين هم الذين وُكِل لهم جرْد القصور الملكية التي صودرت وبيْع محتوياتها . . . وامتدت الأيدى فسلبت ما استطاعت الحصول عليه من تحف هذه القصور وجواهرها ، ويقول الأستاذ سعيد سنبل فى ذلك ما يلى :

« عندما قامت الثورة الفرنسية احتفظت بقصور الملوك والأمراء والنبلاء ، احتفظت بكل ما تحويه هذه القصور من كنوز ، ومن تراث تاريخى لايقدر بثمن . وتمكن الشعب الفرنسى من حماية القصور ، فلم يهدمها انتقاما من الملوك الذين ظلموه ، ولم ينهبها ، ولم يبددها ، وإنما حولها إلى متاحف تحكى تاريخ فرنسا ...

« وتحولت هذه المتاحف بدورها إلى مصدر دخل للشعب الفرنسى ، لا ينضب ولا ينقطع . . فنى كل يوم يتوجه الألوف من زوار باريس إلى هذه القصور لزيارتها ومشاهدة ما فى داخلها . . ويدفع الزوار فى كل يوم ألوف الجنيهات ثمناً لهذه الزيارات . . تدخل جيب الشعب الفرنسى . .

« وعندما قامت الثورة فى ٢٣ يوليو . . وأطاحت بالملكية ،

وصادرت أموالها . . كان المفروض أن تحتفظ بالقصور الملكية ، وأن تحتفظ بقصور الأمراء والنبلاء ، وأن تحولها إلى متاحف تحكى تاريخ مصر ، وأن تجعل منها مصدر دخل للشعب لاينضب ، ولا ينقطع كما فعل غيرنا من الدول . . ولكننا الأسف لم نفعل ذلك ، بددنا هذه الثروة ، وألقينا بها فى التراب .

« بيعت محتويات القصور بأبخس الأثمان والأسعار ، واختفت من هذه القصور أندر التحف والقطع الفنية التى صنعها أكبر المثالين والرسامين والفنانين تلك التى لا تقدر بثمن . . فنهبت ، وهربت إلى الخارج فى ظل قوانين الحراسة والمصادرة »[1] .

ونرجو أن يجىء اليوم الذى نعرف فيه أين اختفت جواهر الأسرة المالكة ومحتويات القصور المصادرة ، والقصور التى فرضت عليها الحراسة

ولا شك أن مثل هذا الانحراف كان له أسوأ العواقب على جيشنا وعلى المعارك التى خاضها ، فالتطلع إلى مباهج الحياة والرغبة فى الانغماس فيها ، كل ذلك يتنافى مع التضحية التى هى الأساس الأول لانتصار الجيش ونحن نتذكر الحكمة التى تقول « اطلب الموت توهب لك الحياة » ، ولكن هؤلاء طلبوا متع الحياة ، فقضوا بالموت على كثير من الشباب الأبرياء .

---

(١) أخبار اليوم فى ٢١/٦/٩٧٥ بتصرف

قادة النصر يذكرون أسباب الهزيمة

ونجيء الآن إلى أخطر الأسباب التى كتبت على جيشنا هذه الهزيمة المريرة ، وأراقت الدماء البريئة ، ونستمد ذلك من أعلى الخبرات ، من كلمات قادة النصر ، من الرئيس أنور السادات ، ومن المشير أحمد إسماعيل ، ومن الفريق أول محمد عبد الغنى الجمسى .

أنور السادات يحكى أسباب الهزيمة :

يقول الرئيس أنور السادات فيما سنرويه عنه فيما بعد :

لقد سيقت الأمة العربية إلى الحرب مع إسرائيل عدة مرات خلال ربع قرن من الزمان دون أن يكون هناك إلمام بعشرات من العناصر العسكرية والاقتصادية والسياسية والنفسية المحلى منها والدولى على السواء ، ودون تحديد سابق لهدف الحرب وغايتها وكل الاحتمالات التى تصاحبها[1] .

ونحن نصرخ : كيف يستبد بأمر هذه الأمة من يجهل أساليب السياسة والقيادة ؟

المشير أحمد إسماعيل يروى أسباب النكبة :

— كنت قائدا لجبهة سيناء فى أثناء حرب اليمن ، وكانت فرقتى (الثانية مشاة) هى المسئولة عن تأمين سيناء ، ولكن سحبت منها

(١) ورقة أكتوبر

لليمن بعض القوات التى كانت مدرّبة تدريبا عاليا ، فضعفت بذلك الجبهة التى كنت أتولى قيادتها فى سيناء .

— ولم يكن التنسيق بين مصر وسوريا فى حرب ١٩٦٧ صادقاً من الطرفين ! فقد كانت سوريا تخفى عن مصر خططها الحقيقية ، وكانت مصر تُخفى عن سوريا خططها الحقيقية كذلك ، وكان الشك متبادلا ، ولا يمكن أن يتعاون جانبان فى معركة واحدة بغير مكاشفة كاملة بكل الأسرار والخطط ، والتنسيق الكامل لكل تحرك من الجانبين .

ونستمر مع المشير أحمد إسماعيل الذى يروى النتائج المريرة للانسحاب الذى صدرت به أوامر القيادة العليا وهو فى ذلك يقول :

ـ كان الانسحاب قاسياً . . فالقوات كثيرة العدد والعتاد ، وخاصة أعداد الدبابات ، وكان عليها أن تنسحب غرب القناة على ٣ محاور رئيسية فى منطقة المضايق ، تحت السيطرة الجوية الكاملة للعدو . . لقد كان الانسحاب مخاطرة ومجازفة غير محسوبة النتائج ضاعفت من حجم الخسائر .

وبعد الهزيمة يصف المشير أحمد إسماعيل الموقف على الجبهة بأنه كان رهيباً ومثيراً للذعر ، وهو فى ذلك يقول :

كانت الجبهة عبارة عن جنود متفرقين على الشاطىء الغربى بلا وحدات تجمعهم ، وكان هناك عدد من الدبابات من مختلف الأنواع ، بدون قيادات، كانت مبعثرة هنا وهناك ، المعنويات هابطة بعد الانسحاب، وبعد تفوق العدو الرابض على الضفة الشرقية بزهو الانتصار ، ولا يفصلنا عنه أكثر من مائتى متر[1] .

الجمسى يبرز أسباب الهزيمة :

وإذا ذهبنا إلى الفريق أول محمد عبد الغنى الجمسى فإنه يعطينا معلومات مهمة عن أسباب هزيمة ٦٧ النكراء ، وبالتالى يعطينا مؤشراً عن المسئول عن هذه الهزيمة ، يقول سيادته[2] :

— إن القيادة السياسية حين تضع استراتيجيتها يجب أن تربط وتوازن بين القوة العسكرية والقوة الاقتصادية والعمل السياسى . وهذا لم يحدث فى سنة ١٩٦٧ ، ووجود هذه الاستراتيجية هو سبب انتصار أكتوبر .

---

(١) الأهرام فى ٢٧ / ١٢ / ١٩٧٤

(٢) لقطات من حديث له مع الأستاذ موسى صبرى لمصر فى ٢٩ / ٥ / ٧٥

— يوم الخامس من يونيو كان يُسمى فى القوات المسلحة « اليوم الحزين » وكانت تصدر الأوامر فيه القوات المسلحة بعدم الحركة أو النزول إلى شوارع المدن .

— وفى رأيى أن اليوم الحزين بدأ يوم ١٤ مايو سنة ١٩٦٧ ففى ذلك اليوم فوجئت القوات المسلحة بالأمر برفع استعدادها إلى الحالة الكاملة للقتال ، وتنفيذ التعبئة ، وبَدْء حشد القوات فى سيناء فجأة دون سابق إخطار ، ولهذا وقعت الكارثة فى ٥ يونيو .

— كنا نُمثل القيادة العامة فى سيناء ، ولكنا فى الحق لم تكن قيادة لأن العملية كانت تُدار مباشرة من القاهرة .

— وفى يوم ١٥ مايو ١٩٦٧ فوجئت القوات المسلحة بقرار سياسى آخر وهو سحب القوات الدولية . . . . ، ثم صدر قرار سياسى آخر مفاجىء بقفل مضيق تيران ، وكان على القوات المسلحة إرسال قوات لتأمين شرم الشيخ لمنع العدو من السيطرة عليها بدون قتال .

— لقد كانت القوات المسلحة المصرية ضحية الخامس من يونيو ولم تكن أحد أسبابها ، وهذه شهادة الرئيس أنور السادات فى خطابه بمجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

من المسئول ؟

تلك كلمات قادة النصر ، وهى تبين بوضوح أن الهزيمة لم تكن مصادفة وإنما كانت لسوء التخطيط وإضعاف الجبهة بوسائل متعددة وسوء العلاقة بين الرئيس والمشير، واتخاذ قرارات عن الجبهة العسكرية بدون إشراك قادة الجبهة ، ودون التنسيق بين الأهداف السياسية والقوى العسكرية . . وراح ضحية ذلك عشرات الآلاف من الجنود والضباط ، وحلت بنا هزيمة قاسية ، وفقدنا جزءا عزيزا من أرضنا لا نزال نصارع لاستعادته ، وهوى اقتصادنا إلى القاع .

ولم يستطع جمال عبد الناصر أن يخفى مسئوليته عن هذه النكبات فأعلن فى نوفمبر سنة ١٩٦٧ أنه المسئول عن هذه النتائج .

فهل يمر كل ذلك بدون حساب ؟؟

٣ — أسباب خارجية

إن سياسة عبد الناصر الخارجية فرضت علينا العزلة ، وقطعتنا عن كل شعوب الأرض ، عن العرب أشقاء الدم ، وعن المسلمين رفاق العقيدة ، وعن أوروبا وأمريكا بل وروسيا ، وكأن عبد الناصر كان يجد اللذة فى الشتائم والسباب ، ولكن النتائج المريرة التى أعقبت هذه الشتائم نزلت على الشعب بأسره ، ذلك الشعب الطيب الذى يميل إلى الود والمجاملة وينفر من السباب والقذف .

وسنرى فى الصفحات التالية صوراً من انحراف السياسة الخارجية ، ذلك الانحراف الذى كان من أهم أسباب هزيمتنا سنة ١٩٦٧ .

مكانة مصر فى العالم العربى والاسلامى :

لمصر بالنسبة للعالم العربى والعالم الإسلامى مكانة توشك أن تكون موضع اتفاق ، ولا يكابر فيها إلا قلة قليلة تقطن شارع الحمراء بلبنان أو تتأثر بالصحافة المأجورة التى يحررها كتّاب هذا الشارع .

وإذا كانت مصر بعدد سكانها وتاريخها وموقعها وحضارتها وجهودها قد احتلت بين الدول العربية مكانتها ، فإن مصر قد دفعت

ثمن هذه المكانة جهداً وكفاحاً فى الميادين الفكرية والعسكرية والاقتصادية على مر التاريخ ، ووقفت موقف الحارس الأمين على التراث العربى ولخدمة الإنسان العربى ، وضحت ولا تزال تضحى بأغلى ما تملك لتحقق للعرب مكانهم بين دول العالم .

وهذه منفعة متبادلة نعتزُّ بها ونتمسك بدوامها ، أن نظل من العرب وبالعرب وللعرب .

ولمصر نفس المكانة بالنسبة للعالم الاسلامى ففيها ارتفع صرح الأزهر ، وتلقّى عَبْرَ القرون والأجيال وفود الراغبين فى الدراسات الإسلامية من مختلف بلاد العالم الإسلامى يوم لم يكن هناك سواه يحمى الفكر الإسلامى ويشرحه ويذود عنه ، ومن الأزهر خرج العلماء الذين ساحوا فى إفريقية وآسيا وغيرها يحملون دعوة الحق ويشرحونها ، ولا تزال مصر تقوم بنفس الدور حتى العهد الحاضر ، تستقبل الطلاب وتوفد المدرسين والدعاة ، ويمكن القول بصدق إنه لا توجد دولة تنافس مصر فى هذا المضمار أو يكتب مؤلفوها عن الإسلام ، فكره وتاريخه وحضارته مثلما يفعل المصريون .

ومن أجل هذا تنعم مصر بمكانة مرموقة بين العرب وبين المسلمين عبر التاريخ .

ماذا قال عبد الناصر عن ملوك العرب ورؤسائهم ؟

فى ضوء هـذا التقديم نسأل كيف كانت صلة مصر بالعرب وبالمسلمين فى خلال عهد عبد الناصر ؟ .

الإجابة على هذا السؤال نأخذها من حقائق الواقع ، فقد أطلق عبد الناصر لسانه على ملوك العرب ورؤسائهم بالسب والطعن ، ينتف لحية هذا ، ويسب أمّ ذاك ، ويتهم فلاناً بالخيانة ، وآخر بالجنون[1] .

وعندما نسترجع ما قاله جمال عبد الناصر فى المؤتمر الصحفى الذى عقده فى ٢٨ مايو سنة ١٩٦٨ نرى فيه النص التالى :

ولقد رحبتُ باقتراح وزير خارجية الكويت الذى أكد فيه أن الكويت سوف توقف تدفق البترول إذا حدث شىء ، ونحن فى انتظار موقف السعودية ، وعلى أية حال فإن أى بلد عربى تتأخر حكومته عن أداء دورها، فإن المسئولية تُنقل إلى الشعب ، فتتصرف جماهيره بوحى من ضميرها القومى .

وهذا النص واضح الدلالة على أن عبد الناصر يُثير الشعوب ضد الحكومات ، وكان ذلك ما يؤخذ على مصر دائماً فى هـذه الآونة .

(١) الأستاذ صالح جودت : مجلة المصور ٨|٣|٧٤

وإذا أردنا أن نذكِّر القارىء ببعض التفاصيل عن العلاقات بين مصر من جانب ، والدول العربية والإسلامية من جانب آخر ، فإن سوريا تقفز إلى قمة الدول التي نتحدث عنها ، فقد تمت وحدة مع سوريا وسرعان ما تم الانفصال ، وفي فترة الوحدة خسرت مصر الكثير ، ثم كان الانفصال الذي تسبب عن تصرفات سيئة ، والذي كان سبباً في خلق علاقات مريرة عاشت فترة طويلة بيننا وبين سوريا .

أما خلافاتنا مع العراق فإن القارىء يذكر الصراع المرير أيام عبد الكريم قاسم ، وبعده ، واستمرت صلاتنا في فترات كثيرة غير طبيعية مع العراق ، وتُبذل الآن جهود كبيرة لتأخذ هذه الصلات مكانها المرموق .

ومع لبنان نزلنا صراعاً طويلا ضد كميل شمعون ، أنفقنا عليه عشرات الملايين من الجنيهات ، ويروى الرواة أن عبد الناصر دفع ملايين الجنيهات لزعيم معين إبان هذا الصراع ليوزعها على من يساعدونه في الصراع ضد كميل شمعون ، ولكن هذا الزعيم خص نفسه بنسبة كبيرة من هذا المبالغ ، فشكاه شركاؤه إلى عبد الناصر ، وكان ذلك من أهم أسباب إلغاء ورق النقد ذي الخمسين جنيها والمائة جنيه انتقاماً من هذا الوسيط المنحرف .

وكان لمصر دور كبير جداً فى الدفاع عن الشمال الأفريقى ، ولا ينسى جيلنا ما قامت به صحيفة « المصرى » من جهود فى هذا الميدان ، واستقلت تونس والمغرب ، واتجهت المغرب إلى التعريب للقضاء على الفرنسة التى كان المستعمر قد أشاعها ، وطلبت عون مصر ، فأرسلت مصر لها عدداً كبيراً من المعلمين والخبراء ، ولكن سرعان ماهب النزاع بين عبدالناصر وملك المغرب ، فسحبت مصر من المغرب كل خبرائها ومدرسيها ، وتركت المدارس التى كان جل اعتمادها على مصر فى فراغ وفوضى شاملين ، وأذكر أن أستاذاً فى الفلسفة والتصوف تأخر فى العودة لمصر عدة أيام لأن أولاده كانوا يؤدون امتحاناً بالمغرب فوُضِع فى القائمة السوداء ، ومنع بعد ذلك ردحاً من الزمن من مغادرة مصر على الرغم من أنه كان قد عرض مشكلة أولاده على سفيرنا بالمغرب ، ووافق السفير على تأجل عودته حتى يكمل أولاده الامتحان .

وتوقفت صلاتنا بتونس توقفاً يكاد يكون تاماً بعد الهجوم على رئيسها والنيل منه .

أما السعودية وهى من أكثر الأقطار العربية صلة بمصر وارتباطاً

بها ، فقد ساءت علاقاتنا بها إلى أبعد حد ، حتى توقف ركن مهم من أركان الإسلام وهو الحج ، مع أن المصريين كانوا يكوّنون على مر التاريخ أكبر نسبة لحجاج بيت الله الحرام .

وقد عرفنا فى مصر مسألة نتف الذقون التى سمعناها وأشار إليها الأستاذ صالح جودت فيما سبق أن اقتبسناه منه ، ولكن مالم نعرفه فى مصر كان أعظم ، ويمكن أن نقتبس سطوراً من كتاب ألفه الدكتور صلاح الدين المنجد عن الملك فيصل ، وفيه يقول :

— فى أول يناير سنة ١٩٦٣ صدر بيان رسمى سعودى يعلن أن قاذفات قنابل من طراز « اليوشن » تابعة لمصر تعمل فى اليمن قامت بغارتين على مدينة نجران السعودية فى ٦٢/١٢/٣١ [١] .

— فى ١٨ يناير سنة ١٩٦٧ ذكرت وكالات الأنباء العالمية أن مخرّبين دربهم المصريون ، تلقوا من القاهرة أوامر بعمليات نسف بالسعودية ، وأن عدة يمنيين تم اعتقالهم فى المملكة العربية السعودية واعترفوا بذلك [٢] .

ومن حق السعودية أن نذكر أنها واصلت تقديم الدعم بسماحة ،

---

(١) دكتور صلاح الدين المنجد ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦١ .

وعندما انخفض سعر الجنيه الإسترليني دفعت الفرق بين السعرين ، وأنها اشتركت بسخاء مع مصر لتنفيذ سياسة الانفتاح الاقتصادى ، وقد سمعت من بعض القادة السعوديين تعليقهم على الدعم بقولهم : طالما أخذنا وأخذ العرب من مصر ، وما ندفعه ليس إلا جزءاً يسيراً مما أخذنا .

ويقول الملك فيصل فى ذلك : إن تأييد مصر باليد والصلات لتبقى قوية وعزيزة هو حماية للعرب جميعاً ، وليس فضلا يُمَنُّ به عليها .

حرب اليمن ونتائجها السياسية والاقتصادية :

أما اليمن فحديثنا عنها يتحتم أن يطول لشدة ما عانينا من موقفنا منها ، من الناحية العسكرية ، والناحية الاقتصادية ، والناحية السياسية ، وقد حدث الانقلاب العسكرى باليمن برياسة عبد الله السلال فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٦٢ وبسرعة زحفت الجيوش المصرية إلى اليمن بدون سبب نعرفه إلا أننا كنا مستعدين لتأييد أية ثورة على حكام البلاد العربية ، وكان هذا الاتجاه يقضى على الثقة بيننا وبين هؤلاء الملوك والرؤساء .

وبمناسبة الحديث عن حرب اليمن وما جرته علينا من أهوال ، نذكر أن شيئاً لم يُذَعْ حتى الآن عن الدوافع التى دفعت لهذه الحرب ،

التى كان العرب طرفيها ، والتى كلفت مصر آلاف الملايين من الجنيهات ، وآلاف الشهداء الذين سقطوا هناك ، بالإضافة إلى آلاف اليمنيين الذين قضت عليهم غارات جيشنا وقواتنا .

وقد ظلت هذه المعارك تدور حوالى ست سنوات (١٩٦٢ — ١٩٦٧) فاستنفدت الكثير من جهدنا وكمية هائلة من أسلحتنا ، وأغضبت علينا كثيراً من الأصدقاء ، وكانت من أهم أسباب الهزيمة التى منينا بها سنة ١٩٦٧ ضد إسرائيل ، فقد كانت قواتنا المسلحة مرهقة ، وأسلحتنا مبعثرة ، وكنا نحارب فى ميدانين . ومن العجيب أننا كنا نحارب لتثبيت الثورة التى أعلنها المشير السلال ، وكانت قواتنا تخوض هـذه المعارك ، والسلال قابع فى قصر منيف بمصر الجديدة .

وحرب اليمن كانت فاتحة فساد بمصر ، استمر مدى طويلا ؛ فيروى أن مصر كانت تقدّم أكياس الذهب لبعض القبائل لتتحول عن الإمام البدر الذى يقال إنه كان يقوم بعمل مماثل ، وطمع بعض الذين كانوا يقدمون أكياس الذهب فى بعض هذه الأكياس ، وكان ذلك مطلع الاتجاه إلى ثراء غير مشروع كان من أسوأ ما عانينا فى الستينات .

ويضيف الأستاذ توفيق الحكيم فى حديثه عن أكياس الذهب قائلا : إن غطاء الذهب الذى نملكه ضاع بأكمله فى هذه الحرب الضائعة ، وإن كثيراً من القبائل كانت تأخذ ذهبنا بالنهار ، وتترصد لضباطنا وجنودنا بالليل ، فتصطادهم ، وتقطع رءوسهم أو تسلمهم للطرف الآخر ، وانتهى الأمر باليمن أن سارت مخالفة لمصر فى اتجاهها السياسى [١] .

ومن الأشياء المضحكة المرتبطة باليمن أن خلافاً شديداً برز بين مجلس الوزراء اليمنى من جانب والرئيس السلال من جانب آخر ، فدُعى مجلس الوزراء إلى القاهرة لتصفية الخلاف ، وفى القاهرة اعتُقل الوزراء جميعاً وأودعوا سجن القلعة .

والعجيب أن الصحافة المأجورة بلبنان كتبت عن هذا الحادث منوهة بأريحية مصر وكرم حكامها الذين استضافوا مجلس الوزراء ووضعوهم فى ضيافة كريمة بالعاصمة المصرية .

علاقاتنا مع الدول الإسلامية بين الضعف والقطيعة :

وإذا جئنا إلى العالم الإسلامى وجدنا أن الدول الإسلامية بعدت عنا كلها تقريبا ، فقد طردنا سفير تركيا ، وسفير إيران ، وصادقنا

---

(١) عودة الوعى : ص ٥٨

الهند على حساب باكستان ، وصادقنا قبرص على حساب تركيا، وكان من الممكن أن نصادق الهند وباكستان معاً ، وتركيا وقبرص جميعاً ، ولكن الفكر الإسلامى لم يكن يوضع فى الميزان .

وهناك دول إسلامية غير تلك التى ذكرناها ، وهى توجد فى إفريقية وفى آسيا ، ولكن العلاقة كانت بيننا وبينها فاترة ، ولعل موقف مصر من الإخوان المسلمين كان من أسباب فتور هذه العلاقة ، وبخاصة أن بعض رؤساء الدول الإسلامية ، وبعض برلمانات هذه الدول تقدمت بصور من الاستعطاف لإنقاذ رأس الأستاذ سيد قطب من المشنقة ، ولكن جمال عبد الناصر أسرع فدفع بالرجل العالم إلى المقصلة . فكان لذلك أثر سيىء فى كل البلاد الإسلامية .

والذى حدث بالنسبة للدول الإسلامية فى آسيا حدث مثله بالنسبة للدول الإسلامية غير العربية بإفريقية ، فقد توثقت علاقات جمال عبد الناصر بالامبراطور هيلاسلاسى الامبراطور السابق للحبشة الذى كان يقيم أعياد ميلاد سخية لكلابه ، وشعبه يسقط من الجوع والحرمان ، ومن المعروف أن علاقات الحبشة بكثير من المناطق والدول الإسلامية المجاورة لها كانت سيئة للغاية مما أساء إلى علاقاتنا بالصومال والسودان وأريتيريا .

والذى لا شك فيه أن سوء علاقاتنا بالبلاد العربية والإسلامية ، أضعف من كياننا أمام العالم ، فقد كان من الممكن أن نقوى بهذه الدول ، ولكن انصرافها عنا لهذه الأسباب ولغيرها حرمنا قوة كبيرة كانت درعاً يساعدنا لدى الأحداث .

وحتى يتبين القارىء مدى التأييد الذى يمكن أن نلقاه من الدول الإسلامية ، نذكر أنه لما أصبح أنور السادات رئيساً للجمهورية ، ووضع أسساً جديدة لعلاقاتنا مع الدول الإسلامية ، حصلنا على تيسيرات اقتصادية ضخمة من إيران ، وارتفعت أصوات الدول الإسلامية تؤيدنا وتشد من أزرنا .

علاقتنا مع روسيا وأمريكا وأوربا :

ولم تكن علاقاتنا طيبة بباقى دول العالم ، فالتاريخ يشهد أننا بعد الاعتداء الثلاثى هاجمنا روسيا وسخرنا من تهديد بولجانين المعتدين ، ولم يسلم خروشوف من هجومنا ، مع وقوفه بجانبنا فى كثير من الأزمات .

وقد قلنا من قبل أن أمريكا وقفت وقفة صلبة ضد المعتدين سنة ١٩٥٦ ، واستهجنت الاعتداء وأصرت على سرعة جلاء الجيوش المعتدية ، وكان لها ما أرادت ، فلأمريكا وزنها العالمى ، ولكننا لم نشكر هذه اليد ، وانطلقنا نتغنى بنصر مزعوم ، وحددنا يوماً أسميناه

« عيد النصر » وانطلق المغنون يترنمون بأننا انتصرنا . . . وقد سمعت آنذاك — وكنت بالخارج — من بعض الأمريكان من يقول : إن عدم الاعتراف بالجميل سيدفعنا يوماً أن نتخلى عنكم إذا حدث عدوان جديد . وكان هذا هو موقف أمريكا منا فى عدوان ١٩٦٧ .

وقطعنا علاقاتنا مع ألمانيا الغربية ، فتوقفت مصانع عديدة ببلادنا كان موظفوها يذهبون فى أول الشهر ليتسلموا مرتباتهم ، ثم يعودون إلى الضياع والفراغ باقى أيام الشهر .

ويقول الأستاذ صالح جودت رئيس تحرير مجلة « المصور » فى مقاله الذى أشرنا له من قبل :

« أما العلاقات الدولية . . فحدث عنها ولا حرج ؛ لقد ساءت علاقاتنا بكل الدول ، وبلغ الكثير منها حد القطيعة وإغلاق الأبواب بالضبة والمفتاح . حتى الاتحاد السوفيتى . . الصديق الوحيد الذى احتفظ هذا « الماضى » بصداقته ، نازله فى أكثر من جولة ، وأتى بالمتعاطفين معه واللائذين به فى مصر سبع سنوات فى غياهب المعتقلات وأذكر ذات يوم ، أنه حدث فى إحدى الحفلات الدبلوماسية فى الخارج ، أن التفت أحد الدبلوماسيين الأجانب إلى السفير المصرى ،

وقال له : لماذا لاتصفع سفير دولة كذا . . لأنه سفير الدولة الوحيدة التى لم تصفعوها حتى الآن » .

وهكذا أصبحنا وحدنا فى عصر يُعدُّ التجمع فيه أساس النصر ، وا كتفينا بالأصوات التى تنبعث من شارع الحمراء بلبنان مشجعة لنا على هذا الموقف المرير ، لأنها فى الحق لم تكن تقصد مصالحنا ، وإنما كانت تخدعنا لتضعفنا وتضعف بنا العروبة والإسلام ، فهذه الأصوات مأجورة ، متهمة فى عروبتها ، بعيدة عن الإسلام ، تعمل وراء المنفعة الذاتية السريعة ، وللأسف وجدت استجابة منا ، فتمادت فى اتجاهاتها الشريرة .

المصرى بالخارج بين عهدين :

وامتداداً لما ذكرناه عن موقف مصر من الدول العربية ، وموقف الدول العربية من مصر ، كان المصرى بهذه الدول خلال العشرين سنة الماضية إنساناً كريهاً إلى الناس مع حاجة الناس إليه .

ولنفسح المجال للأستاذ أنيس منصور لنقتبس بعض عباراته فى هذا المجال [1] :

هذه حقيقة نعرفها ويجب أن نقولها بصراحة : لقد كان المصرى

(١) الأخبار : ١٣ / ٣ / ١٩٧٤ .

هو الإنسان «القبيح الوجه» فى كل العالم العربى، كان إنساناً يخاف منه العرب ولا يحبونه ، وقد يحزنون على ما أصابه ، فمصر أمّ العالم العربى ومعقد أمله ، والدولة الكبرى ذات الحضارة العريقة ، وهى التى احتضنت أكثر العرب ، وهى رمز ذكرياتهم ... ففيها عاشوا ، وفيها شربوا العلم والأدب والفن ... ومنها أكثر أمهاتهم وزوجاتهم ، وفيها أولادهم يدرسون أو يتنزهون .

وفجأة ولمدة عشرين عاماً ، تحول كل مصرى يعمل بالخارج — فى نظر الذين يعمل لهم — إلى جاسوس ومخرب ! كل مدرس مصرى اتهم بأنه جاء يقلب نظام الحكم ويوزع المنشورات ، كل طبيب جاء ينقل الأخبار ، ويبعث بها إلى المخابرات المصرية ، وهكذا أصبح كل مصرى شخصاً غير مرغوب فيه ، واحتاج المصرى البرىء إلى أن ينطوى على نفسه وأن ينعزل ليؤكد لأهل البلاد التى يعيش بها أنه لا شأن له بما يحدث فى مصر ، وفى نفس الوقت ، كان هذا المصرى الانطوائى خائفاً من زملائه المصريين الذين يعملون لحساب المباحث والمخابرات . . . أو يدّعون ذلك ... فأصبح المصرى كريهاً أمام كل مصرى ... وأمام غير المصريين، وفجأة تغير كل شىء ، وسوف يتغير أكثر وأكثر ، فقد أصبحت مصر دولة يرأسها حاكم لا أطماع له خارجها ، يرأسها رجل

يرى أن همومه المصرية عبء ثقيل جداً ، وأنه ليس فى حاجة إلى مزيد من الهموم العربية .

وأحس كل مصرى أنه مصرى ، وأن هـذا مصدر إعزازه ، وأنه يستطيع أن يعيش فى أمان ، وأن يقدم خبرته لمن يريدها . وأنه لاشأن له بغيره ولا بحياة الآخرين . . إنه ضيف عليهم ، وضرورى لحياتهم كما أنهم ضروريون له . . يعطى ويأخذ . . وأنه سلاح لـكل بلد يعمل فيه ، وليس سلاحاً على هذا البلد ، وأنه استطاع أن يحمل وجهه كريماً . .

إن هذا المـكسب الهائل يجب ألا نضيعه ... وهذه الثقة الغالية يجب ألا نبددها . . . ويجب أن يبقى كل مصرى فى مكانه الـكريم حيث يعمل مدرساً ، ومهندساً ، ومحاسباً ، وطبيباً ، وعاملا ، إنهم « جيش عمل » من أجل مصر ، ومن أجل العروبة . .. إن كل يوم من أيامهم هو ٦ أكتوبر جديد . . . لأنه يقضى على المصرى القبيح الوجه بغير ذنب جناه ! !

جيلٌ مضلل

كأستاذ في جامعة القاهرة وفى غيرها من الجامعات والمعاهد ، أقابل أحياناً بعض الشبان المصريين الذين يتعصبون لعبد الناصر ، ويؤمنون به ، ويدافعون عنه ، صحيح أن هناك جمهرة واسعة منهم ، استطاعت أن تعرف الحق وتنتصر له ، ولكن أتباع عبد الناصر على كل حال لايزالون موجودين .

وكأستاذ تستلزم أعماله وتبعاته أن يزور كثيراً من البلاد العربية ، وأن يستقبل الكثيرين من الوافدين على مصر من هذه الأقطار ، أقرر أن بعض هذه الأقطار الشقيقة يوجد بها أنصار لعبد الناصر ، يسبحون بحمده ، ويدافعون عنه .

وهكذا بينما نجد إجماعاً من الأساتذة ومن جيلهم على انتقاد عهد عبدالناصر ، والشعور بمرارته ، وبأنه سبب ماتعانى من احتلال يهودى ، وحرمان اقتصادى ، واضطراب فى المرافق والنفوس ، نجد جيل الطلاب ، ونجد الإخوة العرب لا يُجمعون على هذا الرأى ، وإنما يقفون صفين بين الولاء وبين الجفاء .

ما الذى ضلّل بعض الجيل الناشىء بمصر ؟

ـما الذى ضلّل بعض الإخوة العرب ؟

ـذا ما نحاول هنا أن ندرسه بصبر وأناة املنا نساعد هؤلاء وأولئك

العودة للطريق المستقيم .

الأسباب التى ضللت الجيل الناشىء بمصر

ـيما يتعلق بمصر كان من الطبيعى أن يوجد هذا الجيل المضلّل ، فإن

ـه الشبان الذين ولدوا أو شبوا فى العشرين سنة الماضية كانوا فى

ـر فكرى محكم تنطق كل جوانبه بتمجيد عبد الناصر وتعظيمه ،

ـ هؤلاء فريسة هـذا الحصار ؛ ففى خطواتهم الأولى إلى المدارس

ـدائية فى سن الخامسة أو السادسة تلقاهم المدرسون فى هذه المدارس

ـيد وتوجيهات حفظوها وآمنوا بها وهم فى سن الزهور ، وقد كان لنا

ـ بجوار مدرسة بالمعادى ، وكان النشيد الآتى يكرر كل يوم عدة مرات :

ناصر كلنا بنحبك ناصر

وحنفضل جنبك ناصر

ونعيش ونقولك ناصر

يا حبيب الكل يا ناصر

. . . . . .

فإذا وصل هؤلاء إلى المدارس الإعدادية وجـدوا تاريخاً مزيفاً

عليهم حياتهم و يقرر لهم مجد عبد الناصر فى كل علم يطرقونه ؛

ففى مواد اللغة العربية أصبح عبد الناصر موضوع المحادثة والمطالعة والإنشاء ، وفى التاريخ ظهر عبد الناصر الخالق الأوحد لتاريخ مصر ، وفى العلوم ظهر عبد الناصر مصنِّع البلاد ، وازدانت المدارس بتماثيله وصُوَرِه فى كل مكان وكل اتجاه . . . فإذا وصل هؤلاء إلى المدارس الثانوية وإلى الجامعة وجدوا مواد تنتظرهم لتوثّق فى نفوسهم حب عبد الناصر ، ومن هذه المواد :

— المجتمع العربى الذى كان يُدْرس بالجامعة بالفرقة الأولى ويُبْنَى كله على أن عبد الناصر هو بانى هذا المجتمع .

— ثورة ٢٣ يوليـو وأمجادها وهو رائدها وعمادها وتدرس بالفرقة الثانية .

— الاشتراكية كطريق وحيد للخير منحه عبد الناصر لمصر وتدرس بالفرقة الثالثة .

— المادة القومية وتدرس بالفرقة الرابعة .

وفى خارج المدرسـة أو الجامعة يصرخ المذيعون بالإذاعـة والتليفزيون ، ويكتب الصحفيون فى صحفهم فى نفس هذا الطريق ، والويل كل الويل للمدرس والصحفى الذى يحيد عن هذا الخط ، ومن أجل ذلك فُصِل مدرسون ، وأقفلت دور صحفية عظيمة ، وأبعد صحفيون

إلى مؤسسة الأحذية والمضارب ، ليبقى صوت واحد ونغمة واحدة تسبح باسم عبد الناصر .

ربما تسألنى عن دور البيت فى إرشاد التلاميذ والطلاب ، وأقول لك والألم يملأ نفسى إن الآباء كانوا يخافون إن تكلّموا لأولادهم ضد عبد الناصر أن ينقل الأولاد لزملائهم فى سذاجة هذا الاتجاه ، فيكون فى ذلك تدمير الأسرة وتعذيب عائلها ، وقد حدثت نماذج من ذلك جعلت الآباء يكفون عن الحديث عن عبدالناصر أمام أولادهم مسلّمين أمرهم وأمر أولادهم لله .

وهكذا لم يعرف الكثيرون من الشباب طريق الهداية ،حتى زال هذا العصر ، وبدأ عصر النور ؛ وأخذ جيل الثورة يسمع غير ماعرف ، فتمزق واضطرب حيناً ، وقاوم حيناً ، وعرف أكثرهم الحق فارتضوه ولايزال آخرون يمرون بمرحلة دراسة واختبار .

صحيح أن جمهرة الطلاب ثارت على عبد الناصر سنة ١٩٦٨ وكانت ثورة الجامعات عاتية ، ونتيجة لها توقف التدريب العسكرى الذى كان مقرراً على الجامعات لفقدان الثقة بين القائد والطلاب ، ولكن ولىّ الأمر سرعان ما هدّأ هذه الثورة بمحاكمات صورية ، وبتعبير ابتدعه هو أن ماحلّ بنا كان بسبب « مراكز النفوذ »

واستطاع عبد الناصر بذلك أن يحتوى أكثر عناصر هـذه الثورة وأن يقلل فاعليتها ردحاً من الزمن ، حتى كُشِفَ النقاب وأسفر الفجر ، وبدأت الحقائق تتضح ، فتحدث الأساتذة بصراحة إلى طلابهم ، والأساتذة أكبر سناً وأوسع معرفة من أولئك الذين علَّموا فى المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية ، أو كتبوا وتحدثوا تحت ضغط قاس فى الصحافة أو الإذاعة أو التليفزيون ، فبدأ الباطل بذلك ينقشع ، والخديعة تزول .

ومن حق الدراسة التى نقوم بها هنا أن تكون دراسة علمية لا عاطفية ، ومن أجل هذا نريد أن نعرض الأساطير التى شيَّدوا عليها مجد عبد الناصر لنرى مدى الصدق فيها ، فهذه الأساطير كانت السرابَ الذى تخيلوه صرحاً هائلاً ، ووضعوا فى قمته عبد الناصر ، فلنسر معاً مسيرة علمية لنرى حقيقة ما اعتبره المزيِّفون مكاسب لذلك العهد .

ونكرر ما سبق أن أوردناه من أن الإنسان المصرى فى عهد عبد الناصر كان قلقاً مهدداً ، أو معذباً ، ولا قيمة لأى تقدم مادى لا يخدم الإنسان ، فما بالك لو اتضح أن ما اعتُبِرَ تقدماً مادياً كان فى الحقيقة سراباً لا وجود له ؟

مكاسب عهد عبد الناصر فى الميزان

يشرفنى أن أقف فى صفوف الكادحين الذين يعملون لتصحيح اتجاهات الشباب ، ليس فقط حباً فى تسفيه ضلال الماضى ، ولكن أملا ألا يعيش ضلال جديد فى بلادى ، يعرقل سيرها ، ويضعف أهلها ، ويوهن خطواتها الحضارية . فأنا مصرى أغدقت عليه بلاده الخير ، وأتاحت لى هذه البلاد التحاقاً بأعظم جامعات أوربا ، ونلت من عرق الفلاح والكادح الشىء الكثير ، ولذلك ترانى مديناًلمصر ملتزماً بالوفاء لترابها ولبنيها ، ومن الحق أن أقرر أنه كانت أمامى طرق وأقطار تحاول أن تجذبنى بذهبها وأموالها ، ولكنى رفضت كل هذه الصنوف من الإغراءات ، وقررت أن أبقى فى بلادى ، أعلِّم أبناءها وأكتب فى جوها لكل العرب وكل المسلمين ، وأنا هنا أقدم دراسة علمية لكل ما قيل عنه إنه مكاسب الثورة ، وكم كنت أتمنى أن تكون لها مكاسب حقيقية ، تتلاءم مع العشرين سنة الماضية التى خطا العالم خلالها أوسع خطواته فى مختلف الميادين وحقق أعظم المعجزات ، وسنرى من الدراسة التالية مدى الصدق أو مدى الزيف فيما سمى « مكاسب ذلك العهد » وستكون معنا فى البحث آراء المتخصصين والخبراء :

الاشتراكية

ما معنى الاشتراكية ؟

وماذا حقق عهد عبد الناصر منها ؟

فى الإجابة عن السؤال الأول نقرر أن الاشتراكية عند Sweezy هى نظام اجتماعى متكامل لا يسمح بوجود ملكية خاصة لوسائل الإنتاج ، ولا يسمح بوجود طبقات ، ويخضع العمل فى ظل الاشتراكية إلى تخطيط يكفل مصلحة المجتمع (١) .

والاشتراكية عند Bonar هى السياسية أو النظرية التى تستهدف تحقيق توزيع أفضل للثروة ، ويؤدى ذلك بالضرورة إلى إنتاج أفضل ، وذلك عن طريق تدخل السلطة الديمقراطية المركزية (٢) .

وعند G. Sumner هى أية خطة أو مذهب يستهدف إنقاذ الفرد من أية مصاعب أو متاعب يلقاها فى نضالهمن أجل البقاء ، وفى تنافسه فى معترك الحياة (٣) .

وخلاصةهذه الآراء أن الاشتراكية ينبغى أن تتحقق بها الأهداف التالية :

---

(١) The Theory of Capitalist Development p. 7.

(٢) Socialism : Encyclopaedia Britannica.

(٣) See : Closs and American Sociology from Ward to Rass p. 103

— الديمقراطية .

— نظام اجتماعى متكامل .

— لا طبقات .

— تخطيط يكفل مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع .

— حسن توزيع الثروة .

ونجىء للسؤال الثانى لنسأل : ماذا حقق عهد عبد الناصر من هذه الأهداف ؟

يقول الأستاذ توفيق الحكيم إن اشتراكية ذلك العهد كانت مجرد التأميم والاستيلاء على أموال وقصور ، لتحلّ فيها طبقة أخرى باسم آخر ، تماثلها فى الثراء ، وتتشبه بها فى الترف (١) .

ويقول الأستاذ إحسان عبد القدوس : إنه لم يحدث شىء فى المجتمع المصرى بعد الثورة ، وكل ماحدث أن أشخاص وأسماء وعائلات الطبقة الراقية وأولاد الذوات قد تغيرت (٢) .

ويتحدث الأستاذ صالح جودت عن اشتراكية عبدالناصر فيقول إنه نظام ظاهره العدالة الاجتماعية ، ولكنه انتهى إلى إفقار الأغنياء وتجويع الفقراء .

وما بالك باشتراكية يتزعمها على صبرى بعد جمال عبد الناصر ،

---

(١) عودة الوعى : ص ٧٢ .

(٢) جريدة الأهرام فى ١٩٧٤/٨/٢ .

وألف فيها على صبرى كتاباً عرض فيه نظريات شيوعية تفرض حياة التقشف ، وتوجب القضاء على التطلعات الرأسمالية التى تبيح القصور ومتاع القصور ، ولكن هذا الزعيم الاشتراكى كان له قصران أحدهما بالقاهرة والثانى بالإسكندرية وقد ازدحما بالرياش الفاخر وبأحدث الأجهزة مما لا يوجد إلا فى قصور أصحاب الملايين من الأمريكان ، وأن ملابسه وملابس آله كانت تجلب من لندن وباريس ، كما تجلب له الفاكهة النادرة والعطور الفاخرة [١] .

ويذكر الدكتور إبراهيم عبده [٢] عن رئيس جهاز الاشتراكية أنه كان عندما يصل إلى مقر جهازه ، يسرع موظف خاص إلى المصعد فيطلق فيه نوعاً ممتازاً من العطور الزكية ، وينطلق سعاة آخرون يطلقون العطور فى حجرة مكتبه ، وهو بذلك يفعل ما فعله الأباطرة والملوك فى العصور الوسطى .

وإذا كانت الثورة قد حددت الملكية الزراعية ، فإن ملكيات كبرى قد امتلكها أناس لم يكن لهم عهد بالثراء من قبل ، كالعمائر الشاهقة ، والحدائق الغناء ، وملايين الجنيهات بالداخل والخارج ،

---

(١) رسائل من نفاقستان ص ٥٦ .

(٢) الوسواس الخناس ص ٦٧ .

وشئون الاستيراد والتصدير التى تغلّ بيسر أرقاماً خيالية من الثراء .

وهل يُعَدُّ من الاشتراكية أن يوجد فى القصر الجمهورى مئات من الأفراد فى درجة وزير أو يتقاضون مرتب الوزراء ومخصصاتهم دون أن تكون لهم وزارات أو أعباء الوزارات ؟

ويقال إن عدد وزراء هذا النوع فاق كل مبالغة وطالما قابلتُ بعض الناس ورأيت من يناديهم « معالى الوزير » فإذا سألتُ عن وزارته قيل لى أنه وزير بالقصر .

ويقول الدكتور محمود القاضى فى مناقشات مجلس الشعب فى ١١ / ١٢ / ٧٤ أن عدد هؤلاء فى القصر وخارجه بلغ سبعمائة وزير ونائب وزير ، وتلك مخالفة دستورية ، وعبء ثقيل على الميزانية .

وهل يُعَدُّ من الاشتراكية أن تزدحم وزارة الخارجية بسفراء مقعدين ينالون حظ السفراء ولا يعرفون معارفهم ؟

وهل يُعَدُّ من الاشتراكية أن تُخْلَق للأقارب والأصهار حديثى التخرج وظائف رفيعة فى صحيفة الأهرام وأمثالها من المؤسسات بمرتبات تعد بمئات الجنيهات بينما يعانى زملاؤهم البطالة حيناً ، حتى تلقى بهم القوى العاملة بمكان ما ، بمرتب لا يفى بأجر السكن أو القوت الضرورى ؟

وهل يُعَدُّ من الاشتراكية أن تقدم المنح بالآلاف المرتزقة من

المؤلفين الأجانب ليكتبوا كتباً يمجدون فيها عبد الناصر ؟ أو للصحفيين في لبنان وغيره ليكتبوا عن زعيم الشرق بعض المقالات ؟

وهل يعد من الاشتراكية ما ورد في صفحة ٢٠٧ من التحقيق الذي أجرى بعد تصحيح مايو مع أحد وزراء القصر في عهد عبد الناصر من أنه اشترى لزوجته وبنتيه ملابس من الخارج بعملة أجنبية بلغت قيمتها ١٢ ألف جنيه في عام واحد ، دُفعت من المصروفات السرية ، في نفس الوقت الذي تقف فيه طوابير طويلة من المصريين أمام المحال التجارية في انتظار القليل من الكستور والدمور .

إن اشتراكية عبد الناصر كانت نمطاً وحدها ، ولذلك قُدِّر لها أن تكون قصيرة العمر ، وأن تعود الدولة إلى سياسة الانفتاح ، وإلى الديمقراطية الحقة ، وتعيد التخطيط لمصلحة المجتمع ، وتقضي بذلك على استعمال الكلمات بدون مدلول .

الإصلاح الزراعى

ما معنى الإصلاح الزراعى ؟

هل هو فقط تحديد الملكية وتمليك الفلاح عدة أفدنة من أرض مالك كبير ؟ أو أن للإصلاح الزراعى مفهوماً أدق وأسمى ؟

إن المفهوم العلمى للإصلاح الزراعى يسعى لتحقيق الأهداف التالية:

— العمل الكادح الثابر لاستصلاح مزيد من الأراضى لضم مساحات جديدة من الأرض البور إلى الأراضى المنزرعة .

— رعاية التربة فى الأراضى المنزرعة بتحسين الصرف وإنتاج المخصبات بأرخص الأسعار .

— تنظيم الدورات الزراعية ومحاولة الإكثار منها بدون إرهاق التربة .

— حسن اختيار البذور ذات المحصول الجيد والوفير .

— الرق بوسائل الفلاحة ، وذلك بالقضاء على المحراث والطمبور والشادوف والساقية التى انحدرت من عهد خوفو إلى الوسائل الزراعية الحديثة التى أنتجها العقل البشرى ، فوفرت جهد الإنسان والحيوان ، وضاعفت دخل الأرض .

— ويدخل فى مفهوم الإصلاح الزراعى الحديث الاهتمامُ بالإنتاج المتصل بالأرض ، كإنشاء مصانع لتعليب الخضر والفاكهة حيث تكثر أنواع معينة من الخضر والفاكهة .

— ويدخل فى الإصلاح الزراعى كذلك الاهتمام بتربية العجول والأبقار للانتفاع بلحومها وجلودها وألبانها مما يستتبع إنتاج الأعلاف والإكثار من معامل الألبان ومستخرجاتها ، ومصانع دبغ الجلود .

— ويدخل فى الإصلاح الزراعى كذلك تربية الدواجن للانتفاع بلحمها وبيضها .

ذلك هو الإصلاح الزراعى كما عرفه الفكر الحديث ، ولكن عهد عبد الناصر اكتفى بأن جعل الإصلاح الزراعى لا يزيد عن أخذ الأرض من كبار الملاك لتوزيعها على صغار الملاك ، ومع هذا لم تثبت ملكية هؤلاء الفلاحين لقطع الأرض التى حصلوا عليها إلا فى عهد أنور السادات ، وربما كان فى هذا التوزيع فائدة لبعض الأسر ، ولكنه كان شديد الضرر بالمجموع ، لأن المساحات الصغيرة لا تقوى على تنفيذ الإصلاح الزراعى كما عرفه الفكر الحديث ، وكما أوجزناه فيما سبق ، ولأن الانتفاع به على النحو الذى اتُّبع كان مجرد

مقامرة ، فالفلاح الذى يعيش فى « العزب » نال شيئاً من أطيان المالك الكبير ، أما ملايين الفلاحين فى القرى التى ليس بها ملاك كبار فقد بقوا على حالهم ، والإصلاح الزراعى بمعناه الحقيقى يخدم الجميع على السواء ، ما بين عامل فى الأرض ، أو عامل فى مصانع التعليب ، أو مصانع الألبان ، أو راع لشئون المواشى ، أو بين موظفى التسويق والإدارة .

السد العالى

تغنى عهد عبد الناصر بالسد العالى وجعله أسطورة الزمان ، حتى توقع الناس أن النيل سيسيل ذهباً وفضة ، وتوقف العمران فى البلاد لأن كل الحديد والأسمنت والعمال والمهندسين اتجهوا للسد العالى الذى بلغت نفقاته ٣٢٠ مليوناً من الجنيهات .

وقد قيل لنا يوميا إن السد العالى سيحقق الأهداف التالية :

١ — إضافة مليون فدان من الأرض ، إلى الأرض الزراعية .

٢ — تعميم الرى المستديم لأرض الحياض ، وقدرها ٧٠٠ ألف فدان .

٣ — ضمان زراعة الأرز سنوياً فى مساحة لا تقل عن ٧٠٠ ألف فدان .

٤ — توليد طاقة كهربائية مقدارها ١٠ مليارات كيلووات ساعة سنوياً ، تستخدم فى الأغراض الصناعية .

٥ — خفض منسوب المياه ، الجوفية ، وخاصة فى الوجه البحرى، مما يحسن وسائل الصرف فى الأراضى الزراعية ، ويضاعف نتاجها .

٦ — زيادة الثروة السمكية نتيجة تكوين بحيرة ناصر .

ويحق لنا الآن أن نتساءل : ماذا تحقق من هذه الأهداف ؟

وما الأضرار الجانبية التى أصابت بلادنا بسبب السد العالى ؟

فى الحق أن الدولة لا تزال تبخل علينا بوثائق رسمية تظهر الحق حول مايذاع عن « السد العالى » ، وإحقاقاً للحق الذى نسعى للوصول إليه سأنقل وجهتى النظر حول هـذا الموضوع تاركا القول الفصل المستقبل :

ينسب الذين يدافعون عن السد العالى إليه أنه الذى حمى بلادنا من الفيضان العالى سنة ١٩٦٨ ، وأنه الذى ادخر المياه خلفه فحمانا من القحط سنة ١٩٧٢[١] ، وأنه هيأ أو يهيىء لإضافة أرض جديدة للأرض المزروعة، وزراعة بعض الأرض بالوجه القبلى أكثر من مرة فى العام بعد أن

(١) فى حديث الرئيس أنور السادات للمصريين فى ندوة مصر حتى سنة ٢٠٠٠ لم يذكر سيادته من فوائد السد العالى غير هذه الحسنة .

كانت تزرع مرة واحدة ، ولا يسلم هؤلاء تسليماً مطلقاً بالعيوب التى تنسب لهذه المؤسسة ، وإن كانوا يعترفون ببعض الأضرار الجانبية ويدعون لعلاجها كإنتاج البدائل التى تعوض الأرض الزراعية عما فقدته من الطمى، وكتنشيط تكاثر السمك فى بحيرة ناصر ،وتوفير سبل صيده ونقله ، ومواجهة مشاكل النحر ، وإقامة المزارع حول بحيرة ناصر وتعمير المنطقة بمشروعات للسياحة والتشجير[١] .

وإذا كنا قد ذكرنا رأى من يدافعون عن السد العالى ، فإن باحثين آخرين يُبدون منه تخوفا واسعا ، وهم يتساءلون :

لماذا لم تقم عمليات إصلاح الأرض يوماً بيوم مع العمل فى السد العالى ؟

وأين أسماك بحيرة ناصر ؟

وماذا عن الأرض التى « طبّلت » بسبب كثرة المياه الجوفية ورداءة الصرف ؟

أما عن كهرباء السد العالى فإن أدق تعليق نورده هو قول وزير مسئول نشرته صحيفة أخبار اليوم الصادرة فى ١٩٧٤/٧/٢٧ ونصه :

---

(١) هذا موجز واف لبحث نشرته الأهرام فى ٢٠ / ١٢ /١٩٧٤ للدفاع من السد العالى .

إن البيانات والأرقام التى كانت تُعطى للناس وتقدم لأجهزة الإعلام عن نتائج السد العالى فيما يتعلق بالكهرباء غير سليمة ، بل وخيالية .

وقد كثرت التصريحات الرسمية خلال شهر يوليو ١٩٧٤ بأن رصيد الكهرباء بمصر ينتهى فى سنة ١٩٧٥ ، وعلينا أن نسرع فى تدبير مصادر جديدة للكهرباء ، وإلا توقفت مصانعنا وتراجعت خطا بلادنا .

وحُرِمت بسبب السد العالى أرض مصر من الغرين الذى كان سماداً لا ثمن له ، وحرمت مبانى مصر من الطوب الأحمر الذى كان يصنع من الغرين ، وزحف الماء على الشواطىء فتآكلت ، وانبثقت المستنقعات بسبب ارتفاع منسوب المياه ، ويقرر بعض الأطباء أن السد العالى من الأسباب التى أدت إلى تلوث مياه الشرب ، لأن تجمُّع المياه فى البحيرة خلف السد وركودها مدة طويلة يؤثر فيها تأثيراً ضاراً .

ويسخر العقلاء من الدعاية الواسعة للسد العالى كأن النيل لم يعرف السدود والقناطر على مرّ التاريخ ، مع أن القناطر الخيرية وخزان أسوان ، وجبل الأولياء ، نماذج للجهود الهادئة التى نفعت ولم تضر ، والتى تنوسيت كأنها لم ترتفع شاهقة .

وقد نشرت أخبار اليوم صباح ٢٣ / ١١ / ١٩٧٤ أنباء عن ندوة علمية عقدتها هيئة التدريس بجامعة الاسكندرية عن الآثار الجانبية للسد العالى ، وقد تحدث فى هذه الندوة ١٩ متخصصاً فى أعمال الرى، والاستثمارات ، والصرف ، والكهرباء ، والصحة العامة ، والهندسة الصحية ، وأصدر المجتمعون قرارات هامة بالنسبة لهذا الموضوع ، وقررت الندوة تشكيل لجنة من المختصين لمقابلة رئيس الوزراء ، وشرح وجهة نظر المجتمعين وتوصياتهم ، دون النظر إلا للنتائج القومية المترتبة على السد العالى .

ولم تنشر بعدُ هذه البحوث ، وإن كان هذا الذى نُشِر عنها يشير إلى خطورة هذه الأسطورة التى سموها السد العالى .

وقد قام المجلس القومى للإنتاج بدراسة عن السد العالى ولم ينشرها مما دفع رئيس مجلس الشعب (الأخبار فى ١٨ / ٣ / ٧٥) إلى طلب هذه الوثيقة ليستفيد بها المجلس فى الرقابة على متابعة الآثار الجانبية للسد .

ومن الطبيعى أنه لو كانت الشكوك ضد السد باطلة لأسرع المجلس القومى للإنتاج بنشر هذه الوثيقة على الجماهير المتشككة .

وفى ختام هذه الكلمات عن السد العالى أرجو الله أن يكون

من الممكن أن يتدارك ولاة الأمر فى بلادنا أمره ، وأن يعملوا على تحقيق أهدافه وعلاج ما ظهر من عيوب ارتبطت به ، فمن أجل بنائه قاسينا ألواناً من الشدائد ، ومن حقنا أن نجنى بعض الثمار .

سياسة عبد الناصر
وهل جلبت الجلاء أو الاحتلال ؟

أترى يُعَدُّ من مكاسب مصر على يد عبد الناصر أن الاحتلال البريطانى انتهى فى عهده ؟

لقد كان يطيب لنا أن نصفق لهذا المكسب ، ولكن حقائق مرة تمسك الأيدى عن التصفيق ، فإن سياسة عبد الناصر جلبت لمصر لونا من الاحتلال أقسى من الاحتلال الأوربى ، ذلك هو الاحتلال الصهيونى بمخازيه وجبروته ، الاحتلال الذى قضى على عشرات الآلاف من شبابنا ، ودمّر عددا كبيراً من مدننا ، وحطم اقتصادنا ، ثم إن هذا الاحتلال يعتبر سيناء أرضه ، ولا يعد نفسه دخيلًا عليها ، وعلى هذا فإخراجه منها أشق بكثير من إخراج المحتل الأوربى .

وقد شمل الاحتلال الصهيونى شبه جزيرة سيناء كلها ، ومدّ نفوذه

وجبروته إلى مدن القناة فأخلاها السكان ، وجعلها العدو الأثيم ركاماً وخرائب ينعق فيها البوم وتعيش فى فراغ مرير حتى أنقذها السادات من هذا الدمار .

وسياسة عبد الناصر لم تجلب فقط الاحتلال اليهودى إلى سيناء والنفوذ اليهودى إلى مدن القناة ، بل إن هذه السياسة العرجاء تعدّت ذلك بالنسبة للقطر كله ، وفى ذلك يقول الأستاذ أحمد أبو الفتح: « إن سياسة العهد الماضى حطمت استقلال مصر عندما أعطت تفويضاً تاماً للاتحاد السوفيتى ليتصرف بمقتضاه كيفما شاء فى القضية العربية » .

وكان الرئيس أنور السادات قد كشف القناع عن ذلك فى حديثه لمجلة الحوادث اللبنانية الذى نشرته الأخبار فى ١٩٧٥/٣/٢٠ وفيه يقول : « عام ١٩٦٧ بعد الهزيمة الأليمة المريرة التى نعرف كلنا أبعادها فوضت مصر السوفييت فى الاتصال بالأمريكان والتحدث باسمنا ، وكان هذا التفويض بلا تحفظ ، فقد قالت السلطة لهم اتفقوا مع الأمريكان ، وما تتفقون عليه فنحن سلفاً نرتضيه ، بل خطت مصر أكثر من ذلك فطلبت قائداً سوفيتياً للطيران ليتولى قيادة سلاح الطيران المصرى ، وقائداً ليتسلم الدفاع الجوى المصرى » .

ويستمر أنور السادات فيقول: «لقد أحسستُ أن الاتحاد السوفييتى أصبح ولىّ أمرنا وهذا هو ما أدّى إلى أن أتخذ قرارى بإخراج الخبراء السوفييت فى يوليو ١٩٧٢ وكنت بذلك أقول للسوفييت إننا أولياء أمر أنفسنا ، ولسنا فى حاجة إلى تفويض أحد بعد اليوم ، وأنهيت بذلك الوكالة لنعود بعلاقاتنا إلى ما قبلها ، ولنثبت أنه لا ولاية لأحد علينا ، وأننا أحرار فى إرادتنا وفى قرارنا».

وهكذا يتضح أن سياسة جمال عبد الناصر جلبت الاحتلال اليهودى إلى سيناء ، وجلبت النفوذ اليهودى إلى منطقة القناة ، كما جلبت النفوذ السوفييتى إلى باقى البلاد ، والعجيب أن عبد الناصر كان يتحدث من حين إلى آخر عن « الاستعمار الروسى » فلم تكن رغبة السوفييت فى النفوذ والتوغل غائبة عن فكره [1] ، ومع هذا فقد فتح لهم الطريق ولم يقفله إلا أنور السادات فى عهد النور والعبور .

فإذا جئنا للحديث عن جلاء البريطانيين عن مصر ، فإننا ينبغى أن نقرر أن حدوثه كان غاية عظمى بذلت الأجيالُ من أجله أعظم الجهد وأغلى الدماء ، ولا يمكن أن نقلل من أهمية وقوع هذا الحدث على يد

(١) هيكل : عبد الناصر ص ٦٩ و ٧٠

عبد الناصر مهما كان خلافنا مع سياسته ، ولكن لابد أن نذكر خطوات الأجيال السابقة من أجل هذا الهدف ، ولابدّ أن نذكر كذلك أن جمال عبد الناصر قَبِلَ الشرطين اللّذين كانا دائماً عقبة تتحطم عليها المفاوضات بين مصر وبريطانيا ، والشرط الأول هو قبول عودة بريطانيا لاحتلال القناة إذا تعرضت مصر لخطر ، والشرط الثانى عزل مشكلة السودان عن مشكلة مصر ، وقد علّق الزعيم مصطفى النحاس على المعاهدة التى وافق عليها جمال عبد الناصر بقوله : « إن الصخرة التى كانت تتحطم عليها المفاوضات المصرية دائماً من أجل إجلاء الإنجليز هى السودان ، ولو طرحنا مسألة السودان جانباً لتم الجلاء منذ عشرينات هذا القرن »[1] .

ومع هذا فأنا أميل إلى القول بأن موقف جمال عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو من هذا الموضوع كان أحكم وأدق ، لقد كانت الثورة قوية فلم تخضع لعواطف الجماهير التى كانت تتجه لضرورة ربط السودان بمصر ، وأعلنت الثورة حق السودان فى اختيار مصيره ، وهو اتجاه نؤيده ، فإن حبنا للسودان لا يعنى أبداً أن نمنع هذا القطر الشقيق من اختيار وضعه اختيارا مطلقاً .

---

(١) نقلا عن عودة الوعى ص ٥٠

أما الموافقة على عودة الاحتلال إذا هوجمت مصر ، فهو شرط نرتضيه أيضاً ، فإذا كان الاحتلال قائماً ، فإن قيامه أشق من احتمال عودته ، هذا بالإضافة إلى أن هذا الشرط كان موقوتاً بسبع سنوات وهى فترة قصيرة فى عمر الدول ، ومن أجل هذا نرى أن موقف الثورة فى قبول هذين الشرطين كان أرشد وأنفع .

ولكن هذا الإنصاف لا ينسينا ما ذكرناه من قبل من أن سياسة عبد الناصر جلبت لنا الاحتلال الإسرائيلى الامين ، والنفوذ الروسى المرير وأن عبد الناصر حاول جهده أن يؤثر فى السودانيين فأرسل عضوا بمجلس قيادة الثورة ليرقص فى حالة عُرْىٍ بالسودان ، ودفع ملايين الجنيهات ليؤثر على سير الانتخابات ، ولكن ذلك كله كان بدون جدوى ، بل ربما كان هذا التدخل هو السبب فى الانفصال ، وقد كانت ملايين الجنيهات المصرية التى أُنفقت فى الحملة الانتخابية بالسودان من الأسباب المبكرة لتدهور اقتصاد بلادنا الحبيبة .

عصر الاحتلال وعصر الجلاء :

بقى أن نذكر نقطة مهمة ترتبط بجلاء انجلترا عن مصر ، تلك النقطة هى أن العصر عصر جلاء ، وأن الدول الأوروبية جلت عن كل الأقطار

التى كانت محتلة تقريباً ، سواء كانت بعيدة فى أقصى آسيا ، أو كانت تعيش معنا فى إفريقية .

ولعل من الخير أن نمنح هذه النقطة مزيداً من الشرح بأن نتدارس العصرين جميعاً : عصر الاحتلال وعصر الجلاء لنرى كيف كانت الدول الكبرى تختلق الوسائل وتصطنع السبل لاحتلال الدول الصغرى فى العصر الماضى ، وكيف جلت فى العصر الحاضر شاءت أو لم تشأ عن كل الدول المستعمرة :

١ ـ فى يونيو سنة ١٨٣٠ احتلت فرنسا بلاد الجزائر العربية ، لأن الداى سأل قنصل فرنسا عن السبب فى عدم رد ملك فرنسا على رسالته ، فأساء القنصل الجواب فصرخ الداى فى وجهه ملوّحا بمروحته ليخرج من حضرته ، وعدّت فرنسا ذلك إهانة لها وللشعب الفرنسى وجرت الأحداث المتلاحقة التى انتهت باحتلال الجزائر .

٢ ـ فى إبريل سنة ١٨٨١ كانت جيوش فرنسا تقف على الحدود الجزائرية التونسية ، وأشيع أن بعض القبائل التونسية اعتدت على دورية فرنسية فأمرت فرنسا جيشها بالزحف على تونس .

٣ ـ فى يوليو سنة ١٨٨٢ حدث بالإسكندرية شجار بين رجل

مالطى ورجل مصرى وكان عرابى يقوم بتحصين قلاع المدينة فاتخذ ذلك وسيلة لاحتلال بريطانيا لمصر .

تلك هى نماذج سريعة من مظاهر عصر الاحتلال ، اختلاق للأسباب ليعتدى القوى على الضعيف .

فماذا نرى لو ذهبنا إلى عصر الجلاء ؟

فى خلال الحرب العالمية الثانية تغيرت الأوضاع فى العالم ، فالدول الأوربية سقطت تحت أقدام النازى ، ودمرت قنابل هتلر مدن بريطانيا ، ونجت أوربا من النهاية الأليمة على يد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وانتهت هذه الحرب تاركة جراحا غائرة فى أوربا وواضعة فى القمة الدولتين العظميين ، وإذا كانت دول أوربا لعبت فى الماضى دور الأسد فقد أصبحت الآن تمثل الذئاب فحسب ، واحتلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى عرش الأسود ، ومن الطبيعى أن الأسود لا تسمح للذئاب بأن تمرح فى الغابة وتستبد بها ، فإذا أضيف إلى ذلك ما ظهر من أسلحة جديدة فتاكة ، وإذا اتضح أن الاتحاد السوفيتى لا يقبل أن تستولى الدول الأوربية على الدول المجاورة له فتهدد حدوده ، وإذا وضعنا فى الميزان ماقدمه الاتحاد السوفيتى من وسائل مادية وأدبية لمساعدة الدول على الثورات والتحرر . كل ذلك جعل العصر الحاضر عصر جلاء ، فقد

جلت بريطانيا حتى عن دول كانت هذه الدول ترى ـ لظروف خاصة ـ أن من صالحها استمرار الاحتلال ، وعندما حاولت بريطانيا وفرنسا واسرائيل أن تحتل منطقة القناة سنة ١٩٥٦ زمجرت القوتان الكبيرتان وأرغمت المعتدين على الانسحاب السريع مع أن السبب أعظم جدا من الأسباب المزيلة التى سببت الاستعمار لكثير من الدول فى عصر الاستعمار.

مرة أخرى إن هذا العصر عصر جلاء ، وهو بذلك قد ساعد الثورات الوطنية التى لم تهدأ يوما ولكنها كانت تُهْزَم أيام القوة الجائرة ، فلما جاء عصر الجلاء أيَّدت القوى الجديدة حركات الثوار الوطنيين حتى تحققت الحرية ، وأصبح الطابع العام هو الاستقلال وحرية تقرير المصير للجميع .

تأميم القنـــاة

فى موجة عاطفية قوية هلّل الشعب لتأميم القناة ، ولم يكن يدور فى خلد أحد أن ذلك سيجلب علينا الدمار ، فقد تسبب هذا التصرف فى حرب ١٩٥٦ ، ولما جلا المعتدون عن سيناء بإصرار أمريكا ، تركت إسرائيل ذيولا لها فى شرم الشيخ ، ووُضعت قوات أمن دولية لضمان ملاحة إسرائيل ، وكان ذلك من أسباب حرب ١٩٦٧ كما قال جمال عبد الناصر ، ولا نزال نعانى من هذه الحرب ، ثم إن حركة الملاحة فى القناة أوقفت مرتين مرة عقب حرب ١٩٥٦ حوالى العام ، والأخرى ثمانى سنوات ؛ من يونيو ١٩٦٧ إلى يونيو ١٩٧٥ .

ومعنى هذا أننا لو وضعنا فى الميزان الفوائد والأضرار لتأميم القناة لكان عدم تأميمها أفضل ، ولَحَقَنَّا دماء عشرات الآلاف ممن سقطوا فى الحربين ، وحمينا بلادنا من الدمار الاقتصادى الذى جرّته الحرب والاستعداد للحرب.

وقد ذكر الرئيس أنور السادات (الأخبار ١٣ / ٣ / ٧٥) أننا صرفنا حتى عام ١٩٧٣ مبلغ عشرة آلاف مليون جنيه، وأننا سنصرف ألف مليون هذا العام .

وتلك أرقام تفوق بمراحل أى تقدير لإيراد القناة .

ومن العجيب أن جمال عبد الناصر كان يتوقع الحرب بعملية التأميم ، ويقول محمد حسنين هيكل : إن عبد الناصر كان يفترض أن التدخل سيحدث عاجلا أم آجلا[١] .

ولهذا يحار الإنسان من تصرف كهذا كان ضرره واضحاً جداً وعظيما جداً فى الأرواح والأموال .

ويجب الا ننسى أن قرار تأميم القناة ألزم مصر بدفع تعويضات لحملة الأسهم مع أن القناة كانت ستنتهى مدة امتيازها بعد سنوات قليلة وتُسلم لمصر بدون تعويضات ، وقد رفضت مصر مدّ امتيازها بإصرار حتى فى عهد الاحتلال ، ودفع رئيس الوزراء « بطرس غالى » حياته ثمناً لميوله لمدّ امتيازها .

وربما جاز لنا أن نقول إن سياسة عبد الناصر كانت ستقضى نهائيا على القناة ، فإن إغلاق القناة هذه المدة الطويلة جعل العالم يتجه لبناء عابرات المحيطات العملاقة ، وقد أخذت هذه فعلا تملأ الفراغ أو أكثره ومن أجل هذا اتجهت قوى العهد الجديد بمصر إلى مزيد من التعميق

---

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ٨٧ .

والتحسين للقناة لتجلب لها هذه العابرات أو أكثرها حتى تستعيد القناة حياتها الطبيعية .

وعند الحديث عن عودة الملاحة فى القناة يتحتم علينا أن نثنى أعمق الثناء على الجهود التى أعادت الحياة إلى هذا المرفق العظيم ، ولكن ثناء خاصاً يتحتم أن نوجهه للرئيس أنور السادات الذى اختار يوم الخامس من يونيو لإعادة فتح القناة ، فوضع ابتسامة على كل فم فى هذا اليوم الذى كان يمر ثقيلا مريراً لحوله أنور السادات إلى يوم بهيج .

التصنيع

كل مصرى يتمنى أن تصبح بلاده بلاداً صناعية ، ولكننا نتمنى كذلك أن يكون التصنيع مبنياً على أسس علمية دقيقة ، كصناعة النسيج التى قام بها طلعت حرب فحقق بها معجزة ومفخرة ، أما أن نصنع من الإبرة إلى الصاروخ فهذا هو الخطأ الفادح ، فلا الإبرة المصرية نجحت ، ولا يستطيع أحد أن يخيط بها شبراً واحداً ، وهى والدبابيس ترتد لليد التى تستعملها بدل أن تخترق القماش أو الورق ، أما الصاروخ المصرى فقد ظل فى حرب ١٩٦٧ صامتاً هادئاً بدون حركة أو نشاط .

وعنـدنا مصانع للسيارات اسمها « مصانع النصر » تيمناً باسم عبد الناصر ، وأنا وسواى من الناس نرى سيارات « فيات » تحملها اللوريات وتخترق بها شوارع القاهرة ، قادمة من إيطاليا لتصل إلى شركة النصر لصناعة السيارات ، وبعد قليل تخرج هذه السيارات كأنها صناعة مصرية ؟ ! ! وتلك خديعة لا تليق .

بل إنى أرى ويرى معى الناس سيارات كبيرة كتب عليها « مصانع الطائرات » ولا بد أن فى هذه المصانع مهندسين ومجلس إدارة ورئيساً لهذا المجلس ، ولـكنا لم نر بعد طائرات مصرية ، وربمـا لن نراها فى المستقبل القريب ، وعلى هذا فأغلب ما يقال عن الصناعة زيف فى زيف .

ولنعد للإنتاج الفعلى الذى تنتجه مصانع ذلك العهد ، ومن المؤكد أن للمهندس المصرى ، والعامل المصرى مشهود بكفاءتهما إلى أبعد الحدود ، ومع هذا فإنى أنا وأنت نترك السلعة المنتجة محلياً لنشترى سلعة مستوردة ابتداء من الأقفال والحنفيات إلى قطع الغيار والأدوية ، وغير ذلك ممـا تنتجه هذه المصانع .

ما السبب فى هذا مع ما عُرِف عنا من عمق فى الوطنية وحب فى السير ببلادنا إلى مستوى أرفع ؟

الإجابة هي سوء الإدارة وسوء التنظيم ، ومن هذا وذاك يشكو المهندس والعامل والمستهلك .

وقد أشرنا من قبل إلى مصنع التليفزيون والراديو الذى كان بالإسماعيلية ، وقد قطع جمال عبد الناصر علاقاتنا بألمانيا ، فتوقف بسبب ذلك ورود أجزاء الأجهزة التى كانت تَرِدُ لنا لنقوم بتركيبها وإخراجها على أنها صناعة مصرية ، وكان مهندسو هذه المصانع وعمالها يذهبون لقبض مرتباتهم فى أول الشهر ثم يعودون إلى الفراغ والضياع باقى أيام الشهر .

ومع هذه الخسارة الفادحة فى هذا المصنع وأمثاله تُخْرِجُ للناس ميزانيات تتحدث عن أرباح طائلة ، ويقول المطلعون إن كل مصنع كانت له ميزانيتان إحداها حقيقية خاسرة ، وهذه تظل سراً ، والثانية مصطنعة تعلن على الناس .

الاتحاد الاشتراكى

أصدر الرئيس محمد أنور السادات ورقة لتطوير الاتحاد الاشتراكى، وحسبت آنذاك أن الدنيا كلها ستتجمع على إلغاء هذا النظام ليحل محله نظام الأحزاب ، وأخذت أتتبع النقاش فى هذا الموضوع وأحيانا أشارك فيه ، ولقد راعنى أن كثيراً من الناس رددوا نفس العبارات التى كان يرددها جمال عبد الناصر ، والتى تقول إن الاتحاد الاشتراكى تحالف لقوى الشعب العاملة ، وأنه خير لمصر من الأحزاب .

وأنا فى كثير من الأحوال ألتمس العذر لشعبنا العزيز عندما يتبع فكراً أثاره عبد الناصر أو يردد كلمات وتعابير قالها وابتكرها ، وذلك لأن وسائل الإعلام كانت تلتقط عبارات عبد الناصر وترددها عشرات المرات ومئات المرات حتى تصبح هذه العبارات من محفوظات الجماهير ومعتقداتهم ، وهكذا سمع الشبان كلام عبد الناصر وحفظوه ولم يسمعوا غيره فآمنوا به ، وهذا ينطبق على الاتحاد الاشتراكى وعلى غيره من قيم ذلك العهد واتجاهاته .

ماذا رأينا من الاتحاد الاشتراكى حتى نتمسك به ؟

وهل حقيقة هو تحالف لقوى الشعب العاملة ؟

من الواضح أن هذا التحالف تعبير يقال وليس له أى ظل من الواقع ، فلا المثقف يعرف الطريق إليه ، ولا العامل ، ولا الفلاح ، ولا سواهم ، وإنما هناك ممثلون يُختارون ليصبحوا فى البناء الشاهق أمراء أو كالأمراء وفيما عدا هؤلاء فإن البناء الفاخر على كورنيش النيل لا يستطيع أحد من طبقات الشعب أن يقرب منه .

ولم نر قط أية فائدة من أى نوع من الاتحاد الاشتراكى ، لقد ظل صامتاً طيلة السنين الماضية ، يعيش فى قلاعه الحصينة المنعزلة تماماً عن الخارج ، وحتى عندما هبّ نسيم الحرية وانطلق أعضاء مجلس الشعب يسألون ويستجوبون ويقترحون القوانين ، وعندما هبت الصحافة حاملة علم الحرية ، ومعلنة كلمة الحق ، وعندما انطلق المفكرون يكتبون ويتكلمون ، ظل الاتحاد الاشتراكى يغط فى نومه ، بعيداً كل البعد عن مشكلات الحياة المصرية وعن المساهمة فى حلها .

لقد عابوا الأحزاب ، ولا شك أنه كانت هناك فى الأحزاب عيوب ، ولكن الذى لاشك فيه أن الأحزاب حققت الكثير من الخير لبلادنا فيما يتعلق بالمشاكل الداخلية والمشاكل الخارجية ، وطالما صرخ رجال الأحزاب فى وجه الباطل ، وينبغى لمن يريد أن يتكلم عن الأحزاب خيرها وشرها ألا ينسى الظروف القاسية التى كانت تسيطر على البلاد

فى ذلك العهد ، فقد كان الاحتلال جاثماً على صدر البلاد ، وكان الملك آثماً ، ومع هذا فقد حققت الأحزاب نجاحاً لا يمكن أن نضع معه فى الميزان ماحققه هذا النظام الذى يسمى بالاتحاد الاشتراكى .

وينبغى أن نقرر أن الأصوات القوية التى تدافع عن الاتحاد الاشتراكى هى فى الحق أصوات المنتفعين به الذين نالوا وينالون فيه الوظائف العالية أو يحصلون على الثراء الرفيع بواسطته ، والعجيب أن بعض الشبان دافعوا عنه وهاجموا الأحزاب مع أنهم لم يروا الأحزاب ، ولم يعيشوا عصرها ، وأنما سمعوا ولى الأمر يهاجمها فقلدوه ورددوا عباراته .

إن أساس الحياة الناجحة الذى لا أساس سواه هو أن توجد حكومة تباشر الأمور ، ويوجد حزب أو أحزاب فى صفوف المعارضة تغربل وتنقد هذه الحكومة ، وقد كانت حكومة عبد الناصر لا تقبل النقد ولا المعارضة ، ومن هنا حاربت مبدأ الأحزاب حتى لو كانت نقية دقيقة .

ولقد آن الأوان لتنفيذ الاتجاه العالمى السليم فى الأحزاب وفى الصحافة ليدرك كل مسئول أن هناك عيوناً تراقب وتنقد ، وقوى تتكلم ، وحينئذ فقط نتحاشى السقطات الضخمة التى عانيناها فى غيبة المعارضة والنقد .

لقد كان مجلس الشعب فى الماضى يعينه الرئيس ، وكان أيضاً يعين أعضاء الاتحاد الاشتراكى ، ويعين رؤساء التحرير فى الصحف ، وهو

فى الوقت نفسه يخيف كل هؤلاء ، ولا يسمح لهم إلا بترديد ما يراه .
فلنُزِل الغشاوة عن العيون ، ولنطالب بأحزاب محدودة العدد من جانب ومحدّدة البرامج والأهداف من جانب آخر ، فذلك هو السبيل الذى رسمته كل الحضارات والمدنيّات .

ويقول الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد[1] : إن تجربتنا أثبتت أنه لولا غيبة المعارضة فى مصر لما وقع الكثير من الأخطاء والمتاعب التى نشكو منها حالياً ، ولما قُضِى على سيادة القانون ، واعتُدِىَ على القضاء ، واستُبِيحت الحرمات ، ووقعت حوادث التعذيب ، وكُمِّمت الأفواه ، وقُصِفَت الأقلام ، ونشأت مراكز القوى ، وأثرى البعض ثراء غير مشروع ، بل لما وقعت هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ .

وقبل أن نترك الاتحاد الاشتراكى ينبغى أن ندوّن بعض ملاحظات كانت دائماً تخطر ببالى كلما استدعتْ ظروف قاهرة أن أدخل هذا البناء ، أو أمرّ قريباً منه .

وأولى هذه الملاحظات هى أن رجال المباحث والمخابرات يطوفون حوله دون انقطاع ، ولا يسمحون لأحد بالوقوف بجواره أو بارتياده دون صك للمرور ، وكنت دائماً أسائل نفسى : هل يمكن أن يكون

(١) صحيفة الأهرام فى ١٩ /٦ /١٩٧٥

هذا البناء يمثّل قوى الشعب العامل مع أن قوى الشعب العامل لا تقرب منه ولا تدخله ؟ .

ومن يخرف أولئك الذين يعيشون به حتى أحاطوه بهذا السياج من المباحث والحرس مع أنهم يدّعون أنهم يمثّلون هذا الشعب ؟ .

وملاحظة أخرى كانت تراودني كلما دخلت هذا البناء ، هي أن صمتاً رهيباً يعيش فيه ، وأنه نظيف جداً ، وليست به ذبابة واحدة ، والسجاد الفاخر الماثق بطرقه وممراته وحجراته لم تخطُ فوقه قدم ، وكنت كلما رأيت ذلك انطلقت صرخة فى جوانحى تقول : إن هذا البناء غريبٌ فى بلادنا ، ولا يعكس حياة قوى الشعب العامل ، وكيف يقال إنه يمثّل الشعب العامل مع أنه بعيد فى جميع سماته عن هذا الشعب وعن حياته .

ولو قارنّا هذا بأبنية الأحزاب كما رأيناها لكان الفرق شاسعاً ، فمراكز الأحزاب كانت مفتوحة للجميع ، وكانت منتدًى وملتقى للشباب والشيوخ والمتعلمين والعمال والفلاحين .

وفى مطلع حياتى كنت أرتاد هذه المراكز فأجدها تعجّ بالزائرين والوافدين حتى كأنها معاهد للسياسة والوطنية .

فى اعتقادى أن الاتحاد الاشتراكى عاش عمره فى عزلة ، وسيموت

يوماً ، ولكنه لن يجد شخصاً واحداً يؤبّنه إلا أولئك الذين استغلوه أو استغلوا الشعب عن طريقه .

والذى يبدو لى أن الاتّحاد الاشتراكى مات فعلا فى كثير من الأمكنة ، فكليتنا يُفترَض أن يكون بها وحدة للاتّحاد الاشتراكى ، ولكنى أقرر أنها منذ مدة لاتوجد بها وحدة على الإطلاق ، ولا نسمع بها ذكراً للاتّحاد الاشتراكى ، ومثل كليتنا كليات وأماكن أخرى كثيرة ، فلنصرخ صرخة الحق ، لنعود للوضع السليم ، ونلغى هذه التسمية إلى الأبد .

وسيرى الناس جميعاً إعراض الغالبية العظمى عنه يوم يتحقق مارسمه الرئيس أنور السادات من أن الانضمام له اختيارى ، حينئذ سيصبح هذا الكائن جسماً بدون روح .

الاتحاد الاشتراكى فى عهده الجديد :

رسم الرئيس أنور السادات خطاً جديداً للاتّحاد الاشتراكى فأعلن أن الانتساب له اختيارى ، ومن الحق أن نقرر أن وجود أنور السادات ظِلا لهذه المؤسسة يُعدّ حماية كبرى ، فلأنور السادات ثقل فى نفوس الناس ، لما قدمه إليهم ولمصر الحبيبة من خير وأفضال .

ولكنى أقرر من ملاحظاتى ومشاهداتى الدقيقة ، أن هناك حدثاً

على القيد من الجهات الرسمية فى الريف والمدن ، وأن هذا الحث انقلب إلى تهديد فى كثير من الأحوال .

وهناك كذلك اتهامات نشرت الصحف ألواناً منها ، فبعضها يشير إلى أن تكتلات مهمة بدأت منذ فتح باب القيد للالتحاق بالاتحاد الاشتراكى ، وأن أصحاب هذه التكتلات حرصوا أحياناً على قفل باب القيد قبل أن يتقدم معارضوهم للقيد به .

وهناك ما يُشير إلى أن القوى هى هى، والأسماء هى هى مما لا يُبشر بتغيّر ذى بال .

وقد نشر الذين يميلون للأحزاب ، ويرونها الوسيلة الحقة للديمقراطية الصحيحة ألوانا من البحوث والدراسات أظهروا فيها تخوفهم من إمكان وجود تعارض بين المنابر المختلفة فى الاتحاد الاشتراكى ، فإذا تكتل اليساريون فى جانب ، ووقف المعتدلون فى جانب آخر ، فكيف يمكن أن يجمعهما إطار واحد ؟

وأنا شخصياً وقفت متردداً فى الالتحاق بهذه المؤسسة لما كتبته عنها فى الطبعة الأولى والثانية من هذا الكتاب ، ولكنى سمعت نغمة تفاؤل عند بعض الناس فخطر ببالى أن أكون متفائلا ودخلت هذه المؤسسة حتى لا يفوتنى أن أسهم فى خير بلادى إن سارت هذه المؤسسة فى طريق الخير ، فإن عادت القهقرى إلى حياتها الأولى عُدت أدراجى إلى السلبية كما كنت من قبل .

عهد فى الميزان
أو حصيلة عشرين عاماً

يقضى الفكر الاجتماعى أن يتوقف الإنسان من حين لآخر وينظر خلفه ليحاسب نفسه وليعرف ماذا كسب وماذا خسر ، وما سرُّ الكسب أو الخسارة ، أو باللغة العلمية يتوقف قليلا لتقييم عمله .

فهل وقف جمال عبد الناصر طيلة عهد حكمه ليرى نتائج سياسته ؟ وليُحْدِث فيها بعض التغيير نتيجة الدرس والحساب ؟

كل المعلومات تجيب بالنفى ؛ فالسجون والمعتقلات بقيت كما هى ولم تقفل إلا بعد انقضاء عهده ، والحراسة ، والمخابرات ، وعلاقاتنا مع دول العالم ، وفصل القضاة ، وصراعنا الأعمى مع إسرائيل . . . . كل هذا ظل كما بدأ حتى زال هذا العهد .

والفترة التى حكمها عبد الناصر تعتبر فترة انقلاب فكرى واجتماعى فى العالم كله ، إنها الفترة التى صعد فيها الإنسان إلى القمر ، وطوّر فيها كل شىء فى الميدان الصناعى والزراعى والاجتماعى ، وقد سارت كل دول العالم فى مجال التقدم ، وإن اختلفت

نسبة التقدم تبعاً لاختلاف الظروف والأحوال ، وحسبك أن تفكر في الدول التي تشبه في مستواها مصر فتضع في الميزان دولة مثل إيران أو تركيا أو العراق أو السعودية لترى كيف كانت سنة ١٩٥٢ وكيف أصبحت سنة ١٩٧٠ وستجد إن التحول الذي حدث في هذه الدول في كل مجالات الحياة تحول يدعو للدهشة والإعجاب ، بل لو نظرنا إلى الدول التي نعمت بالاستقلال في الستينات مثل تونس والجزائر لرأينا أنها حققت حتى الآن مفاخر رائعة في جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياحية وغيرها .

ماذا حدث في مصر خلال هذه العشرين عاماً ؟

وما مدى التطور الذي حققناه في هذا المجال أو ذاك ؟

إن الإجابة سنراها — فيما سنعرضه بعد قليل — حزينة مريرة ، لأننا لم نحقق أي تقدم ، بل لم نبق كما كنا ، وإنما تراجعنا أشواطاً وأشواطاً إلى الوراء ، ويصدق ذلك على أساليب الزراعة وعلى مياه الشرب وعلى المواصلات ، وعلى صناعات ما قبل الثورة ، وعلى التليفونات والمجاري وغيرها كما سنرى بعد قليل ، على أن مصر كانت من أحوج البلاد لتحقيق تقدم واسع في سيرها الحضاري ، لأنها حرمت خلال فترة طويلة من الإصلاح الاجتماعي ومن تنمية الفكر والرقي بالمرافق والصناعات .

... وذلك خلال العهد المملوكى الذى لم يكن السلاطين خلاله على درجة مناسبة من التقدم العسكرى ، وخلال العصر العثمانى الذى اتجه بكل نشاطه إلى الأمور العسكرية ولاقى هزائم تفوق انتصاراته ، وكنا نعانى مع العثمانيين نتائج الهزائم ولا ننعم معهم بنتائج الانتصارات ، ثم جاء الاستعمار البريطانى فعانت البلاد شرور العثمانيين وشرور الاستعمار البريطانى فى آن واحد .

وانقشع عنا ظلام العصر العثمانى وخفت وطأة الاستعمار البريطانى بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وبمعاهدة سنة ١٩٣٦ فحققنا الكثير من التطور فى الميدان الاجتماعى والاقتصادى والثقافى ، ولكن الاستعمار وصراعنا ضده كان يحول دون الانطلاقة الواسعة نحو التقدم .

وزال الاستعمار البريطانى وكنا نتوقع جولة واسعة وسريعة فى مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ولكن جمال عبد الناصر اتجه للأسف للخارج ونسى الداخل تماماً ، فذهبنا نضرب فى مكان وننفق فى كل مكان ، إلاّ فى مصر التى لم تنعم بها إلاّ مشروعات وهمية ذكرناها فيما سبق ، وأصبحنا كالشجرة تلقى ظلها وثمارها بعيداً عن أصحابها ، وكان من نتيجة ذلك ما نعانيه الآن مما سنعطى بعض الصور عنه .

صور مرئية من عهد عبد الناصر

بقيَ عليّ أن أذكّرك بصورة بلادك التي تراها كل يوم ، وما أكتبه هنا — هو بالإضافة إلى أنه تذكير لك — تسجيل لجيل جديد لم يأت بعد ، ليعرف كيف عشنا ، ويدرك ما عانينا ، وأرجو أن يعيش هذا الجيل فى ظروف أحسن من الظروف التي عشناها ، وأن يشكر الله أن احتملنا الصعاب حتى أسلمناه لبر السلامة .

والآن إليك بعض الصور المرئية :

— الأمّية تستوعب أكثر من نصف المواليد الذين جاءوا للحياة فى عهد عبد الناصر .

— مدينة القاهرة الحبيبة: تعيش تحت ثقل السنين والقرون، وحسبك أن تُطِلّ من الأدوار العليا من دار أخبار اليوم لترى أكواخ بولاق وبيوتها المتداعية ، ومثل هذا المنظر تراه فى حى الأزهر الذى يبدو من الداخل كما وجد منذ قامت هذه المنطقة فى عهد الفاطميين ، وتراه كذلك فى باب الشعرية وعلى شواطىء النيل فى ما سبيرو ومصر القديمة وطره ، وتراه فى أى زقاق تنحدر له من الأزقة المتفرعة من شارع الجيش

وشارع عبدالعزيز . . . . وما إن تترك العمائر التى تطل على الشارع وتنساب بضعة أمتار بالداخل حتى تجد نفسك فى عالم لا يليق بالقرن العشرين وبأكبر عاصمة فى إفريقية .

لماذا لم تتجه يد عبد الناصر بعد أن زال الاستعمار لتزيل الآلام عن القاهرة قلب العروبة وأعظم مركز إسلامى فى الأرض ؟ لماذا لم تقم بهذه المناطق ناطحات سحاب تحل أزمة الإسكان ؟ لماذا لم ننقذ السكان الحاليين من مساكن لاتعرف الشمس ولا الضوء ولا الهواء النقى ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لا أحد يجيب .

— القرية المصرية لا تزال تعيش فى ظلام العصور الوسطى ولم توجه لهـــا أية جهود ، ويقول هواة الأرقام إن النفقات التى دفعناها فى اليمن وحدها كانت كافية لإعادة بناء كل قرى مصر ، ونحن هنا نصرخ بأن القرية المصرية هى التى أخرجت أكثر العلماء والضباط والجنود ، وهى التى تنتج الطعام والخضروات والفاكهة، ومع هذا فهى محرومة من كل شىء ، إنها تستحق فى عهد النور تخطيطاً منظماً لإعادة بنائها ، وضمان المياه الصالحة للشرب لها ، وضمان النور ، والنظافة ، والطب ، والمدارس ، والأندية ، والطرق الداخلية بها ، والطرق التى تربطها بسواها ، وحرام أن نضيف يوماً واحداً إلى

العهد الماضى نهمل فيه القرية المصرية التى تمنح كل شىء ولا تنال شيئاً .

حرام أن يبقى فيها الحفاء والجوع والأسمال والأكواخ ، والجهل والانعزالية ، والأمراض ، فلندفع بقريتنا إلى النور فى عهد الأمل والعبور .

ويقولون إن سكان الريف يتدفقون إلى المدن وبخاصة إلى القاهرة ، حتى أصبحت المدن تضيق بالسكان ، وأصبحت القاهرة توشك على الانفجار ونقول لهم إن الوسيلة الحقة لإيقاف الهجرة هو محاولة الرقى بالريف ، وبدون ذلك ستستمر الهجرة كما حدث على مر التاريخ .

إن العناية بالريف لن توقف الهجرة فحسب ، ولكنها يؤمل أن تقوم بعمل مضاد ، أى أن تجذب بعض الناس الذين تقل مصالحهم بالمدن إلى اللجوء للريف حيث الخضرة والطبيعة الجميلة والهدوء الرائع .

— الفلاح المصرى لا يزال يستعمل وسائل الفلاحة التى كانت تستعمل منذ آلاف السنين ، كما جاء فى بيان الرئيس أنور السادات والرئيس نيكسون .

— المواصلات داخل المدن ، وبين مدينة ومدينة لا تليق بالبشر ، ولقد أصبحت عربات الكارو أسهل المواصلات بمصر وأكثرها أمناً .

— المـرافق : مياه الشرب تنزل من الحنفيات حافلة بالأكدار والأوساخ ، والمجارى تندفع فى كل مكان ، وانقطاع الـكهرباء شىء تعوده الناس .

— صناعات ما قبل الثورة ونـكستها : كانت عندنا قبل الثورة صناعات ناجحة ، ولـكن انتـكست كنـكسة يونية سنة ١٩٦٧ ، ومن هذه الصناعات صناعة الصابون والزجاج والعطور والجلود وغيرها .

— اسم بلادنا ونهايته على يد عبد الناصر : لقد قضى عبد الناصر على اسم بلادنا التاريخى (مصر) وسمّاها الجمهورية العربية المتحدة ، لتكون تلك التسمية إطاراً للدول العربية التى توَقع أن تندمج فى الدولة الجديدة ، وأعلنت سوريا الانفصال ، وبَعُدْنا عن كل الأقطار العربية ومع هذا ظلت هذه التسمية بدون مدلول ، ونحن ندعو بالخير للزعيم الذى أعاد لبلادنا اسمها الحبيب .

— صانع الهزيمة : وليتذكر القارىء حقيقة خطيرة هى أن كل جهودنا الآن سياسياً وعسكرياً ترمى للعودة لخطوط ما قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، ومن أجل هذا الهدف أرقنا دماء الآلاف ، وذقنا الحرمان وشظف العيش ، ولا نزال .

من الذى قام بمغامرة الخامس من يونيو ودفعنا إلى هذا المصير ؟ .
لماذا تحركنا للوراء هذا التحرك المرير ؟ .

ولماذا فتحنا ميدانين للحرب فى وقت واحد ، فبينما كانت جيوشنا وكثير من أسلحتنا لا تزال غارقة فى صراع اليمن ، بدأنا صراعاً جديداً ضد إسرائيل ، وفتح ميدانين فى وقت واحد هو عند العسكريين فتح باب فسيح للهزيمة .

— مديرية التحرير : تعبير يزكم الأنوف دائماً ، ويثير التساؤل دائماً ، وتتحدث الجماهير سراً وعلانية عن خيانات وصور من الإهمال والجهل تتصل بمشروع «مديرية التحرير» ومع هذا نظل نعيش فى غموض ، ونرجو أن يجىء اليوم الذى نعرف فيه حقيقة الأمر ، وهل هناك جماعات خانت الشعب وأموال الشعب باسم هذه المؤسسة ؟

— إهمال حقوق الشعب فى استفتاءات عبدالناصر : سألنى قارىء عربى لماذا كانت نتائج الاستفتاءات المتصلة بعبد الناصر تمثل شبه إجماع؟ مع وجود الانحرافات التى إن جهلها البعض فقد عرفها الآخرون ؟

ويبدو أن هذا المتساءل قرأ كتاب محمد حسنين هيكل عن عبد الناصر ، وفى هذا الكتاب يسأل الأستاذ فؤاد مطر عن ارتفاع النسبة المئوية فى الانتخابات المتصلة بعبد الناصر أو بمشروعاته ارتفاعاً يتسم بالمبالغة حين يصل إلى ٨٤ ر ٩٩ ٪ أو أحياناً أكثر من ذلك ، ويجيب هيكل بأن حماسة الناس لعبدالناصر كانت غلابة ، وأنه حرص

على تتبع حماسة الناس فى الاستفتاء على الميثاق وبيان ٣٠ مارس وكان هناك اندفاع هائل للاستجابة والموافقة [١] .

وأشهد الله أننى هنا أروى تجربتى التى انطبقت على جماعات لا يحصيهم العد ، وهى كالآتى :

— لم يكن هناك أحد يستطيع أن يتخلف عن الاستفتاءات أو أن يقول غير ما يريده جمال عبد الناصر ، والويل كل الويل لمن تحدثه نفسه بذلك ، فقد كانت المعتقلات مفتوحة ، والتعذيب فى انتظار المعارضين بدون شفقة ، ومن هنا جاء التدفق الذى رآه هيكل .

— بل لم يكن فى استطاعة أحد أن يمارس هذه الاستفتاءات بطريق الكتابة ، وربما لو حاول ذلك يعرض نفسه للخطر .

— وقد ذهبت مرة إلى صندوق الاستفتاء بالمعادى ، وأنا معروف جداً فى هذه الضاحية ، ولما وقفت أمام الذين يجلسون أمام الصندوق قال لى أحدهم : أهلا يا دكتور شلبى متشكرون . وعدت أدراجى دون أن يسألنى رأيى فهو يعرف أن ليس لأحد رأى ، وسررت بذلك لأنه كفانى مئونة الكذب ، وحمل ذلك بالنيابة عنى ، وحدث ذلك مع كل الناس فى هذه الدائرة .

---

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٠٨ — ١٠٩ .

— وفى قريتنا « علم محافظة الشرقية » كان هناك شاب اسمه « غريب حجازى » لم يكن لديه ما يخاف عليه ، فدخل اللجنة وطلب بطاقة الانتخابات ليمارس حقه كتابةً ، واضطربت اللجنة ، وتجمع ذوو الشأن بالمركز ، وكلهم يخاف أن يوجد فى صندوق الدائرة صوت يقول « لا » لعبد الناصر وهددوا هذا الشاب بكل الوسائل ، وتمسك الشاب بموقفه ، وجرت اتصالات على مستوى عال خضعوا بعدها للشاب ولـكن بعد ما أشاعوا عنه بأن به اختلالا عقلياً أو نفسياً يعفيه من المسئولية .

— وفى إحدى الانتخابات بوحدة من وحدات الجيش لم يكن المرشح عبد الناصر بل أحد أتباعه هو « محمد فائق » وكان يشرف على الانتخابات ضابط مخلص من ضباط الجيش ، وسارت الانتخابات عادية ، يمارس كل عضو حقوقه فيها كما يرى ، وقبيل النهاية جاء مندوب من القصر الجمهورى ليسأل عن سير العمل ، فأجيب بأن كل شىء يسير سيراً عادياً . ودهش هذا الرجل وسأل : ما النتيجة بالنسبة لمحمد فائق ، وأجيب بأن لا أحد يعرف وفُهم من هذا أن الانتخابات حرة وأن محمد فائق قد يرسب فيها أو ينجح بنسبة لا ترضى ولىّ الأمر ، فصرخ : لا يمكن هذا ، واختفى هنيهة ثم عاد بحقيبة حافلة ببطاقات

جديدة ملئت كما يهوى محمد فائق أو سيده ، ووضعت هذه البطاقات في الصندوق وأخذا الرجل في حقيبته الأوراق الصحيحة ، ثم أعلنت النتيجة فكانت كالعهد بها أكثر من ٩٩٪ .

— وفي إحدى المرات كان على مجلس الشعب أن يرشح عبد الناصر لرياسة الجمهورية تبعاً للدستور ، ومجلس الشعب عيّنه عبد الناصر ، وهو لهذا طوع يديه ، ومع هذا فقد صدرت التعليمات لكل المؤسسات والبلدان أن تزحف إلى مجلس الشعب تطلب منه أن يرشح عبد الناصر ، وصدرت هذه التعليمات أيضاً لأساتذة الجامعة ، وزحفنا إلى مجلس الشعب ولم نكن نملك غير هذا إلا إذا كنا مستعدين للفصل من الجامعة كما حدث لزملاء كثيرين منا ، أو مستعدين للتعذيب كما روى لنا بعض الزملاء الذين عذبوا ، وكنا في طابور الزحف ينظر بعضنا إلى بعض نظرات فيها سخرية وفيها شكوى إلى الله ، ولعل هيكل رأى زحف أساتذة الجامعة لمجلس الشعب فأعجبه هذا وأطربه .

وعلى هذا لم تكن الانتخابات والاستفتاءات مؤشراً صادقاً لإقبال الناس على عبد الناصر وحماستهم له ، وكان هناك — على كل حال — وسيلة واحدة عبّر بها الشعب عن انصرافه عن عبد الناصر تماما ، تلك الوسيلة هي الصحيفة التي كان عبد الناصر نفسه صاحب امتيازها ، صحيفة

الجمهورية ، فقد تجاهلها الجمهور تماما ، وأخذت تصدر بالليل وتصدر بالنهار دون جدوى ، ووضع عبد الناصر فى هيئة تحريرها خيرة الأسماء وألمع المفكرين ، ولكن أحدا لم يقدم عليها ، وتركها الناس تموت موتا بطيئاً ، فلقد كان انصرافهم عنها هو وسيلتهم التى لا تقاوم لبيان سخطهم على هذا العهد الأسود .

وفى ختام هذه الدراسة الواقعية لا نريد أن يسخر منا الناس ، وأن يَصِمُونا بالجبن ، فلقد ثُرنا فى الجامعة على الظلم ، وثار العمال فى كفر الدوار ، وثار الإخوان المسلمون ، وثار رجال القضاء ، وثار المحامون والأطباء ، وثار الطلبة . . . ولم تبق هيئة إلا ثارت ضد الظلم ، ولكن زعماء الشرطة وزعماء الجيش كانوا أدوات فى يد عبد الناصر لضرب هذه الثورات وقمع الحركات الوطنية بعد أن سُلِبت قوة الجيش التى كان ينبغى أن تواجه أعداء الإنسانية فى إسرائيل .

صور صوتية عن حكام مصر

من فاروق إلى السادات

— وهناك صور صوتية يردّدها الناس، وهى ترتبط بآخر ثلاثة حكموا مصر : فاروق — عبد الناصر — السادات .

وتقول هذه الأصوات: لقد طَرَدَتْ مصر فاروق وزوجته وأولاده وصادرت قصوره وأملاكه ولكن هؤلاء تذكروا مصر وهى تجاهد سنة ١٩٧٣ ، وبعثوا ببعض المال واشتركوا فى مظاهرات بأوربا لتأييد مصر .

وتقول هذه الأصوات عن أسرة جمال عبد الناصر : إن الدولة تصرف لها مرتبات الرئيس ومخصصاته ، على الرغم من أن كثيراً من أولاده تخرجوا وتزوجوا ، وهيّئت لهم وظائف سخية ، وعلى الرغم من أنهم لايزالون يعيشون لا أقول فى قصر ، وإنما فى شارع خاص بهم بقصوره وحدائقه وبما يصل له الخيال ومالا يدركه الخيال ، ولكن هؤلاء لم ينشر عنهم أنهم اشتركوا بطريق ما فى حومة الوغى ، ولم يقدموا قرشاً واحداً للدماء والأرواح التى لاقت ربها والتى تستحق اللقاء .

وتستمر هذه الأصوات لتنقل فى كثير من الدهشة خبر خطوبة ابن جمال عبد الناصر لحفيدة البدراوى باشا عاشور ، وتبدى حيرةً بالغة ، فقد عاش جمال عبد الناصر عمره يهاجم الإقطاع ويصادر الإقطاعيين ، فكيف لم يتأثر به ابنه ؟ و كيف ألقى بنفسه فى أحضان مايسمى الإقطاع وتقول الأصوات إنه يبدو أن الابن قد قفز إلى الطبقة التى عاش أبوه ومات وهو يحاربها .

وتنسب هذه الأصوات إلى مراكز القوى عملا من أعمال القرصنة، ومع أننا لا نوافق على استعمال تعبير « مراكز القوى » ونرى أن نحاسب عبد الناصر نفسه على كل ما نسب لما يسمى « مراكز القوى » فنحن فى هذا الموضوع بالذات نوافق على أن ننسب هذا العمل لهذه المراكز لسبب ضرورى هو أنها ارتكبته بعد وفاة جمال عبد الناصر، والذين يتكلمون عن موضوع القرصنة هنا هم جماعة من الخبراء يؤكدون أن « التركيبة » الرخامية نادرة المثال الموضوعة فوق قبر جمال عبد الناصر مأخوذة ظلما من الضريح الذى كان الأمير محمد على توفيق قد أعدّه لنفسه . فهل هذا صحيح ؟ وهل جلال التركيبة فى الخارج سيعفى الجثة الحبيسة بالداخل من الحساب ؟ .

وتصل الأصوات إلى الرئيس السادات فتذكر أن الرجل يبذل

طاقة أكبر من طاقة البشر ليعالج أمراض البلاد ، وأن أخاه كان من شهداء الحرب ، وأن زوجته خرجت تكدح وتجاهد فى سبيل الوطن ، وفى عدة مجالات ، وكان خروجها حافزاً لآلاف من السيدات المصريات للخروج إبّان المعركة وبعدها للقيام بدور اجتماعى عظيم ، وبنات الرئيس خرجن وغسلن الأطباق بالمستشفيات ، وبذلن كل مافى وسعهن لخدمة الوطن والمعركة .

وقد لخص أنور السادات أشواط الكفاح التى عاناها من أجل مصر بقوله لوفد من أساتذة الجامعات الأمريكية : لقد عملت بصفة مستمرة من أجل الشعب :

ففى عام ١٩٧١ حققنا لمصر دستورا دائما وصفينا المعتقلات

وفى عام ١٩٧٢ أنهيت خدمة الخبراء السوفييت وقضيت على فكرة الولاية علينا

وفى عام ١٩٧٣ تمت حرب أكتوبر المجيدة بانتصاراتها الرائعة

وفى عام ١٩٧٤ وضعت سياسة الانفتاح

وفى عام ١٩٧٥ أعيد فتح قناة السويس للنشاط العالمى .

ونحن نسجل هذه الأصوات بدون تعليق .

— وصورة أخيرة نلتقطها من أخبار اليوم (٢٧ / ٧ / ١٩٧٤)

يصرخ فيها المحرر بأننا فى حاجة لمن ينتقم لنا من رئيس شركة المياة الغازية الذى يبيع لنا الصراصير داخل الزجاجات .

نريد أن يستجوب لنا وزير التموين عن الجمعيات التعاونية التى تبيع الفراخ المفنة ، والأسماك غير الطازجة ، والزيت غير النقى ، والصابون الذى يلهب الجلد ، والسكر الأسمر اللون .

ونريد من يصرخ فى وجه شركة الأدوية التى تبيع فيتامينات بلا فيتامين ، وحقنا بها شوائب ، وأدوية فقدت فعاليتها .

وهذه المخازى هى نتيجة عصر المزائم ، وتتجه الجهود الآن لعلاجها بعد أن كشف النقدُ البناء القناعَ عنها ، وكانت من قبل مستورة يحميها مقص الرقيب ، وبالتالى يظل الداء بدون دواء .

وأريد فى ختام هذه الصحات أن أقرر ما ذكرته من قبل أن العشرين سنة الماضية حقق فيها العالم أروع انتصاراته ، وقدمت البشرية خلالها أوسع خطواتها ، وينطبق هذا الكلام على العالم أجمع بنسب مختلفة ، ولكن مصر كانت وحدها التى تراجعت شوطاً بعيداً خلال هذه العشرين سنة ، وليس ذلك تشاؤماً ، وإنما هو حقيقة ، وقد عاش جيلنا الفترة الأخيرة التى سبقت عهد الثورة ، وحاربنا ملوكها ، وصفقنا للثورة بحرارة ، ولكن للأسف كان رغيف

ما قبل الثورة أنقى وأنصع بياضاً من رغيف عهد جمال عبد الناصر ، وكان الاقتصاد المصرى أرسخ قدماً ، وكان المجتمع المصرى أشد أمناً ، ومثل هذا يقال عن المواصلات والطرق ، بل عن الأخلاق والذمم .

لماذا تقدم العالم وتراجعنا ؟؟ .

سؤال يتحتم أن نتدارسه ، ونعرف أسبابه بصدق ، ونزيل هذه الأسباب لنعوض مافاتنا ونحن نؤمن أن ذلك ممكن ! ويوم نفعله سنأخذ مكاننا الطبيعى بين الشعوب .

وبعد ، هل لا يزال هذا الجيل مضللا بعد هذا البيان القصير المرير ؟؟ .

الظروف التي ضللت بعض الإخوة العرب

زرتُ كثيراً من البلاد العربية - كما قلت من قبل - واستقبلت في القاهرة أعداداً وفيرة من العرب الوافدين على العاصمة المصرية ، ورأيت وسمعت هنا وهناك تصفيقاً وتقديراً وإعجاباً بعبد الناصر ، مع أنهم كانوا يرون ما نعاني ، ويرون تهافت شبابنا على الهجرة الدائمة أو الهجرة للعمل في بلادهم ، ويرون الفارق الكبير بين حياة الحرمان التي نعيشها وحياة الترف التي تشمل كل البلاد العربية تقريباً ، حتى كان بعضهم يعيِّرنا بأنا أَكَلَة الفول والطعمية ، وهم أكلة مالذّ وطاب ، ومع أنهم سمعوا عن كبت الحريات ، وعن السجون والمعتقلات .

ما الظروف التي ضللت هؤلاء الإخوة العرب ؟

ولماذا تخلّوا عنا في محنتنا الداخلية وصفقوا لمن عذبنا ؟

هذا ما سنجيب عنه فيما يلي :

أولاً — الواجهة والتطبيق :

يقول الأستاذ صالح جودت في المصور الصادر بتاريخ ١٩٧٤/٢/١٥ :

« إحقاقاً للحق ، أقول إن « الماضي » (يقصد بالماضي جمال

عبد الناصر) كان له جانبان : الواجهة والتطبيق ، الواجهة رائعة بقضاء على الرأسمالية ، والإقطاع ، والاستغلال ، والحزبية ، ومكافحة الاستعمار ، وتقوية الجيش ، وإنصاف الفلاحين والعمال ، وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وتصنيع البلاد ، وتوحيد الأمة العربية من المحيط إلى الخليج .

واجهة رائعة ، بهرتنا فى البداية ، كما بهرت الأمة العربية كلها ، إلى حد أن البدوى الساذج ، فى عمق أية صحراء عربية ، كان لا يشترى الراديو إلا إذا تأكد أولا أن هذا الراديو يحمل إليه صوت مصر ، الذى يبشر بهذه الواجهة الرائعة .

وهكذا آمن العرب بهذا « الماضى » إيماناً يقرب من العقيدة ، وأصبح صاحب هذا الماضى نصف إله ، تقام له التماثيل ، وتقدم له القرابين ، وتنشأ باسمه الهيئات والمنظمات التى تهتف باسمه وتعتنق أيديولوجيته .

هذه هى الواجهة .

أما التطبيق فقد كان شيئاً مختلفاً تماماً ، وكان التطبيق لا يصدّر إلى الخارج ولا يصل إلى أسماع العرب خارج حدود مصر ، وهكذا لم يُتح لهم أن يعرفوا عن هذا الماضى إلا الواجهة دون التطبيق .

وكان التطبيق هنا ، عانيناه ـ نحن المصريين وحدنا ـ ولم يكن ي من سمات الواجهة شيء .

وانطلق الأستاذ صالح جودت بعد هذه المقدمة يتحدث عن نماذج سا أوردناه من قبل : اضطهاد ـ سجون ـ كبت حريات ـ تعذيب عتقالات ـ حراسة ـ مجاعة للشعب وإثراء حرام لقلة من الحاكين . . نقتبس فيما يلى سطوراً من هذا المقال بما لم نورده من قبل . .

. العلماء الشبان فى كل ميدان ، هربوا إلى الخارج وملأوا جامعات لدنيا ومعاهدها علماً وابتكاراً وذكاء ، وها نحن أولاء نستجديهم فى هذا العهد ليعودوا إلى حظيرة الوطن .

. وفلذات أكبادنا ، وأولادنا فى الجامعة ، الذين أنفقت عليهم مصر ما أنفقت ليتعلموا وليبنوا مستقبلها ، لم يَبْق لهم أمل بعد أن يتخرجوا أجمل من أن يغادروا مصر ، ويهاجروا إلى الخارج ، حيث العيش الرخى ، والرجل الصحيح فى المكان الصحيح ، والجزاء على قدر العمل .

. عمالنا المهرة : الميكانيكى والنجار والبناء وعامل الفندق . . وحتى السفرجى . . هجروا وطنهم ، وذهبوا إلى السعودية والكويت

وليبيا وغيرها من فجاج الوطن العربى ، التماساً للقمة طيبة ، وابتعاداً عن القهر .

وهكذا كانت الواجهة التى حملتها أجهزة الأعلام عندنا إلى الإخوة العرب شديدة التأثير فيهم مع اختلافها التام عما صحب الواجهة من تطبيق ، وكانت هذه الواجهة من الأسباب التى ضللت الإخوة العرب .

ثانيا — الهجوم على الاستعمار ودراسة حوله :

على أن هناك أسباباً أخرى كانت شديدة التأثير فى الإخوة العرب كذلك ، ووثقت الصلة بينهم وبين جمال عبد الناصر ، ومن أهم هذه الأسباب أن عبد الناصر أطلق لسانه بحدة ضد الدول الاستعمارية ، وكان هناك خوف وكبت لدى الجماهير العربية فى هذا المجال ، فلما انطلق عبد الناصر يسخر من أمريكا ، ويلعن إنجلترا ، ويقلل من شأن ألمانيا ، ولما انطلق يدعو هؤلاء وأولئك ليشربوا من البحر الأبيض أو الأحمر . . . . كان عبد الناصر بذلك ينفّس عن الجماهير ويعبر عما فى نفوسهم ، فأصبح بذلك لسانهم الناطق وعقلهم المفكر .

وفى هذا المجال نذكّر الذين افتتنوا بهذا الموقف من عبد الناصر بحقيقتين مهمتين . .

أولاهما : أن كثيرين من الزعماء المصريين سبقوا عبد الناصر فى

الهجوم على الاستعمار ، ومن هؤلاء المرحوم محمود فهمى النقراشى الذى صرخ فى مجلس الأمن فى الأربعينات قائلا عن الإنجليز إنهم قراصنة ، ومن هؤلاء الزعيم مصطفى النحاس الذى ألغى معاهدة سنة ١٩٣٦ قائلا: « لقد أمضيت هـذه المعاهدة ويقتضينى واجبى أن ألغيها » وأوقف كل عون وكل يد عاملة عن الجيش الإنجليزى ، ووظّف كل عمال القناة ليجدوا لهم بديلا عن العمل لدى قوات بريطانيا ، وكان ذلك أمضى سلاح هدّد جنود الانجليز فى القناة .

ثانيهما : أننا دفعنـا الثمن غالياً لموقف عبـد الناصر وهجومه على الدول الاسـتعمارية ، وكان من ذلك تلك الحروب التى دمرت حياتنا ، وكان منها توقف كثير من المصانع لعـدم ورود أجهزتها من ألمـانيا وغيرها .

ثالثا — الهجوم على الملوك والرؤساء العرب :

ومن الأسـباب التى كانت شديدة التأثير على الإخوة العرب أن عبد الناصر هاجم أكثر الملوك والرؤساء العرب ، وطبيعى أن كثيرين من الناس فى البلاد العربية ارتاحوا لهذا الهجوم ، لأنه كان كذلك تنفيسا عن أشياء فى نفوسهم ضد هؤلاء الملوك والرؤساء .

وتعليقنا على هـذا السبب أنه أضعف الجبهة العربية ، وكان من

أسباب الهزيمة ، وقد تخلى عنه عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧ وبعد تقديم الدعم الذى تطوعت بعض الدول العربية بدفعه ، ومعنى هذا أن الهجوم على الدول العربية لم يكن له أساس صحيح ، وأنه كان من الممكن أن يشترى بالمال .

رابعا — قسوة عبد الناصر كانت على الشعب المصرى وحده :

ومن الأسباب التى كانت شديدة التأثير على الإخوة العرب أنهم لم يمسسهم سوء من عبد الناصر ، وربما مس الخير بعضهم ، فلقد كان عبد الناصر قاسياً على المصريين ومدمراً لحياتهم ، ولـكن نفوذه فى هذا المجال لم يتخط حدود مصر ، وفى نفس الوقت أنفقت مصر بسخاء على كثيرين من الوافدين العرب وبخاصة أولئك الذين لهم صلة بالإعلام والدعاية .

خامسا — الأقلام المأجورة :

وأخيراً هناك سبب مهم جداً فى تضليل الإخوة العرب ، ذلك هو أن عبدالناصر اشترى من الصحافةالعربية والأقلام العربية ما استطاع شراءه ، وبذلك انهالت أموال الشعب المصرى للخارج ، وجاع هذا الشعب ، وعملت هذه الأموال عملها فى تضليل كثير من الشعوب العربيـة .

سادسا – بيروت تستغل سياسة عبد الناصر وتشجعها :

وهناك سبب مهم يتصل بلبنان بوجه خاص ، ذلك البلد العربى الذى وُجد به من يؤيد عبد الناصر أقوى تأييد ، ولكن السبب واضح يعرفه كل من له صلة بلبنان ؛ فلبنان بلد تجارى ، وسِلَعَه التجارية من نوع آخر غير السلع التى يعرفها العالم .

ومصر بالنسبة للعرب جنتهم التى كانوا يرتادونها فيجدون بها كل ما يأملون ؛ وكانت لهم مشتى ومصيفاً ووطناً ومعهداً ومستشفى .

فلما جاء عهد عبد الناصر وساءت علاقة مصر بكل العرب تقريباً اتجهت الوفود العربية إلى لبنان ، وأجادت لبنان انتهاز الفرصة ففتحت ذراعيها للوافدين ، ولكن الوافدين العرب لم يجدوا فى لبنان ما كانوا يجدونه فى مصر الرحبة السمحة التى لا تعرف الاستغلال ولا الانحراف .

وكان أذكياء لبنان يخافون دائماً أن تعود مصر فتفتح أبوابها للعرب ، وعندئذ يفقد لبنان وفود السياح العرب ، وتُسْحب الأموال العربية من بنوك لبنان وتكسد أسواق التجارة اللبنانية .

ومن هنا حَرَص كثيرون من الكتاب فى لبنان أن يمدحوا عبد الناصر ويزيّنوا له طريقه الذى سار فيه ، فأبعدَ عنه وفود العرب وملوك العرب .

وهناك حكاية شهيرة يرويها الكثيرون ، فقد سأل أحدُ المصريين مرة صحفياً لبنانياً هذه السؤال : لماذا تحبون عبد الناصر وتبالغون فى حبه ؟

فصرخ الصحفى اللبنانى قائلاً : نحن يا أخى لا نحب عبد الناصر فقط ، وإنما نعبده ، فعبد الناصر هو الذى فتح لنا أبواب الخير والثراء ، ولولاه ولولا سياسته ما هبّ علينا هذا النسيم .

وعندما بدأت مصر سياسة الانفتاح قلق لبنان وقالت صحافته بوضوح إن الشرق العربى لا يحتمل عاصمتين منفتحتين ، ولا يمكن أن يكون به رخاء لمصر ولبنان معاً . وكأنها بذلك تطالب أن نظل فى الانطواء والانكماش والعوز لتبقى لبنان فى الترف والثراء .

ويوم يرفع العربى القناع عن عقله سيشترك مع المصريين فى إحساسهم ، وسيدرك أن قوة مصر قوةٌ للعرب ، وأنه لا رئيس بدون شعبه ، ولا قوة لفرد بدون تأييد الجماعة .

والآن نقرر أن هذه هى الأسباب التى قادتنا إلى الهزيمة وما كان يمكن أن ننتصر مع هذه الجراح ، ولذلك نسأل لنتبين وجه الحق :

مَنْ المسئول عما وصلت له جبهتنا الداخلية من انهيار ؟

ومن المسئول عما وصلت له علاقاتنا الخارجية من قطيعة وتوتر ؟

ومن المسئول عن هذه الهزائم العسكرية التي لحقت بجيشنا وأراقت دماء الآلاف من أبنائنا ؟

لقد عشنا في مصر قومية واحدة متحابة متعاونة ، وكنا دائماً نحرص على أطيب الصلات بالعرب والمسلمين وسواهم ، وإذا استعرضنا تاريخنا البعيد والقريب لاتضح لنا أن جيشنا حقق أعظم انتصارات في التاريخ القديم على يد أحمس وتحتمس ، وفي التاريخ الوسيط ضد المغول والصليبيين ، وفي التاريخ الحديث في إفريقية والأناضول واليونان ، ولذلك يحق لنا أن نسأل في حسرة :

من المسئول عن هذه الهزائم العسكرية والسياسية والاقتصادية ؟

هل المسئول مراكز القوى أو مراكز النفوذ ؟

وما رأى تراثنا الإسلامي في هـذا التعبير الذي انتشر وشاع ؟ .

إن الإجابة عن هذه الأسئلة ستتضح من الدراسة التالية .

مراكز القوى
تعبير يرفضه التفكير الإسلامى

يختلف الكتاب فى مصر فى تحديد المسئول عن الكوارث التى أوردناها، وأكثرهم يتحدث عما يسمى «مراكز القوى» أو «مراكز النفوذ» وهو نفس التعبير الذى استعمله الرئيس السابق.

أما الأستاذ صالح جودت فيلقى المسئولية على ما يسميه «الماضى» وقد أوشك أن يحدد هذا «الماضى» عندما نسب له نتف ذقون بعض ملوك العرب، وسب أمهات بعضهم، واتهام هذا بالخيانة، وذاك بالجنون، ولكنه لايزيد على ذلك، فهو يكتفى بتحديده بالوصف دون أن يحدده بالاسم.

ولكنى كباحث فى الحضارة الإسلامية لا أستطيع أن أتبع هذا الاتجاه أو ذاك، فالتفكير الإسلامى لايتيح لى نسبة ماوقعنا فيه من كوارث إلى تعبير مبهم مثل «مراكز النفوذ» أو «مراكز القوى» ولا يتيح لى غموض الحديث عن «الماضى».

والتفكير الإسلامى يضع المسئولية بوضوح على ولىّ الأمر؛ فهو المسئول عن حسن اختيار مساعديه، والمسئول عن مراقبتهم

ومتابعتهم بعد الاختيار ، وقد روى عن الرسول قوله : من وَلِيَ من أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه للمسلمين ، فقد خان الله ورسوله . ورُوى عنه كذلك : من قلد رجلا عملا على جماعة وهو يجد في تلك الجماعة من هو أفضل منه ، فقد خان الله ، وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين[1] .

وبناء على ذلك كان الخلفاء الراشدون يَعُدُّون أنفسهم مسئولين عن أخطاء مساعديهم حتى بعد أن يحسنوا اختيارهم ، وكان عمر رضى الله عنه إذا أراد أن يختار والياً ذكر الشروط التى يراها ضرورية فيه ، ثم يترك الحاضرين مساعدته فى تحديد من تنطبق عليه هذه الشروط[2] .

وعن مسئولية الرئيس فى اختيار ولاته ، ومسئوليته فى تتبع أحوالهم بعد الاختيار يقول الإمام علىّ كرم الله وجهه : فَلَى ولىّ الأمر أن يختار للحكم أفضل الرعية ممن لا تضيق به الأمور ، ولا يتمادى فى الزلة ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وينبغى أن يكون اختيارهم بالاختبار لا بالمحاباة والأثرة ، وعليه

(١) الشوكانى : نيل الأوطار

(٢) عباس العقاد : الديمقراطية فى الإسلام ص ٧٩

إن يتفقد أعمالهم ، ويبعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تَتَبُّعه لأمورهم حثٌّ لهم على استعمال الأمانة والعدل مع الرعية[١].

وتنفيذاً لهذا الاتجاه الإسلامى نذكر أن الخليفة طيب الذكر عمر بن الخطاب عزل القائد الذى أبلى فى خدمة الاسلام أعظم البلاء ، خالد بن الوليد ، عند ما أحس بافتتان الناس به مما يوشك أن يكوّن مركز قوة[٢] .

وفى القصة الشهيرة التى حدثت بين عمر والعجوز ، تقول الرواية : إن عمر خرج فى ليلة شديدة البرد كثيرة العواصف فرأى من بُعدٍ ناراً ، فهرول لها ليتعرف خبر أصحاب النار ، فوجد امرأةً ومعها أطفال ورأى قِدْراً منصوبة على النار ، وسمع الأطفال يبكون ، فتقدم عمر نحو المرأة ، ودار حوار بين عمر والمرأة وضّحت فيه المرأة مايعانيه أطفالها من جوع ، وكيف أنها تخدعهم بقِدْرٍ بها ماء حتى يناموا ، وصرخت فى وجه عمر وهى لاتعرفه قائلة : الله بيننا وبين عمر . فاهتز عمر لهذه الصرخة ، وقال لها : وما يدرى عمر بكم ؟ فأجابت المرأة : يتولى مورنا ويغفل عنا . وهكذا شَكَتْ المرأة ما اعتقدته غفلة

(١) نهج البلاغة ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٢٧٦

من عمر ، وعمر لم يكن غافلا عنها وإنما كان بجوارها .

وتستمر القصة لتروى أن عمر أسرع لبيت المال وأحضر الدقيق واشترك فى الطهو وإطعام الأطفال . . . . . .

وقد وضّح عمر بن عبد العزيز مدى مسئولية الحاكم ؛ فيروى أنه عقب تولّيه الخلافة رآه مولاه « مزاحم » مغتمًّا كئيباً ، فسأله : مالى أراك مغتما ؟ ، فأجاب عمر : لمثل ما أنا فيه يُغْتَمُّ ، ليس أحد من الأمة إلا وأنا ملزم أن أوصل إليه حقه غير كاتبٍ إلىّ فيه ولا طالبه منى[١] .

فانظر مدى إدراك عمر بن عبد العزيز المسئولية منذ اللحظة الأولى.

ويروى أن زوجته دخلت عليه عقب توليته الخلافة ، فوجدته يبكى ، فقالت له : ألشيء حدث ؟ قال : لقد توليت أمر أمة محمد ، ففكرت فى الفقير ، والمريض ، والمقهور ، والمظلوم ، والغريب ، والأسير ، والشيخ الكبير ، وعرفت أن ربى سائلى عنهم جميعاً ، فخشيت ألا تثبت لى حجة فبكيت[٢] .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣١

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٩

واستكمالا لعرض الفكر الإسلامى فى هـذا الموضوع نسأل سؤالا قد يخطر بالبال ، وهو : ماذا لو عظم مركز من مراكز القوى بحيث أحسّ ولى الأمر أنه لا يستطيع عَزْله ؟

والاجابة قوية واضحة هى أن الرئيس إذا لم يكن كامل السيطرة على مساعديه ، التزم أن يخلى مكانه فى الحال ، ويرد الأمانة إلى الشعب الذى اختاره ، وإلا تحمل المسئولية كاملة لكل ما يرتكبه هؤلاء المساعدون .

وبناء على التفكير الاسلامى الذى أوردنا عناصره ، نقرر أننا كما ننسب للرئيس السابق جمال عبد الناصر حسين مفاخر عهده مثل مبدأ تحديد الملكية الزراعية التى كانت أمل الملايين ، ومثل جعل سياسة مصر ترسم فى مصر ، ولا تَقدُمها أوتفرض عليها من الخارج[1] ، فإننا ننسب له الأخطاء التى أوردناها ، لأنه الشخص المسئول عن أحداث عصره وأخطاء معاونيه .

---

(١) كانت هذه هى سياسة مصر فترة ، ثم فوض عبد الناصر الاتحاد السوفييتى فى أن يتكلم باسم مصر ، وقرر أن مصر تعطى هـذا التفويض بدون حدود وقد شرحنا ذلك بإفاضة عند كلامنا عن نهاية الاحتلال البريطانى .

ومن ناحية أخرى لا يمكن أن نعترف أن الأحداث الكبرى خلال هذه الفترة كانت تجرى من خلف جمال عبد الناصر حسين ، فقد كان صوته شخصياً واضحاً فى فرض الحراسة ، وفى فصل القضاة ، وفى القبض على بعض الجماعات ، وفى المحاكمات والعقوبات ، وفى الخلاف بيننا وبين الدول العربية ، وفى الخلافات بيننا وبين أمريكا وألمانيا وغيرها . وفى التحرك إلى اليمن ، وفى التحركات التى ارتبطت بمعركة يونيو الخاسرة .

ويقول الأستاذ حلمى سلام أحد الصحفيين الذين كانوا قريبين من عبد الناصر ما يلى : عبد الناصر هو الذى كان يملك ، ويحكم ، لا أحد فوقه ، ولا أحد معه ، ولا أحد بجانبه[1] وقد اتضح ذلك وضوحاً لا يحتمل الشك مما أوردناه من قبل من تشكيله محكمة الدجوى وإهماله مجلس الرياسة واستبداده بالأمر .

ونقطة أخرى وقع فيها أكثر الكتاب سيراً وراء جمال عبد الناصر حسين ، فقد كان هو أول من نسب الأخطاء والخطايا التى نزلت بمصر إلى مصدر أسماه « مراكز القوى » أو « مراكز النفوذ » ولم يحدد

(١) مجلة الفجر القطرية عدد ٧٥/٦/٢١

شخصاً أو أشخاصاً ينطبق عليهم هـذا التعبير ، ونحن نسأل : لمصلحة من ننسب ما عانيناه من كوارث إلى مصدر مبهم ؟ ونقرر أننا نستنكر أن نتستر على مجرم فى حق الوطن ، وندعو الـكتاب إلى الـكف عن هذا التعبير الزائف .

وسؤال آخر هو : أين نضع جمال عبد الناصر إذا تصورنا خاتمه فى يد غيره ؟ وأن الدنيا تدار من حوله بدون رأيه ؟ فى اعتقادى أن من يقول بذلك ينتقص الرجل من حيث لا يدرى .

وسؤال ثالث هو: أين مراكز القوى الآن أى بعد جمال عبد الناصر ؟

والاجابة أنها انهارت أو على الأقل ضعفت فى عهد أنور السادات . ومعنى هـذه الاجابة أن مراكز القوى كانت معروفة ، وأن القضاء عليها أو تقليم أظافرها كان ممكناً ، ولذلك نسأل : لمـاذا لم يفعل جمال عبد الناصر ما فعله أنور السادات ليتخلص من أعوان السوء ؟

ولا يبقى بعد هذا إلا الاعتقاد بأنها كانت تعبيراً عن هواه ، وامتداداً لنفوذه .

وقد أوردنا من قبل معلومات محددة وصلت مباشرة إلى أذن جمال عبد الناصر حسين وبطريق محافظ من المحافظين الذين عينهم جمال عبد الناصر ، ولـكن هـذا الرئيس بدل أن يكشف الغمة عن

المظلومين صاح فى المحافظ قائلا : إنك لاتعرف ما يجرى فى محافظتك .

وقد أعلن جمال عبد الناصر بوضوح أنه المسئول عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ وعن غيرها من المشكلات ، ولست أدرى بعد ذلك لماذا يلف الباحثون ويدورن دون أن يسيروا فى الطريق الواضح المستقيم ، ودون أن يحددوا المسئول عن الخير وعن الشر ، وهو واضح لكل عين ترى وعقل يفكر ، أما مراكز القوى التى يتحدثون عنها فقد كانت تدور فى فلكه ، وتعمل بتوجيهه ، وعند ما أراد كشف مفاسد بعضهم كشف ذلك ، ولم تستطع هذه المراكز أن تفعل شيئاً .

فلنقلها كلمة صريحة لوجه الله والتاريخ : إن جمال عبد الناصر حسين هو المسئول عن أحداث عهده ، وهذه الفكرة هى التى تحمى حاضرنا ومستقبلنا ، وهى التى نضعها أمام كل رئيس فى كل زمان وفى كل مكان ، دون أن نخلق تعبيرات زائفة تعطى فرصة التقليد والانحراف ، وبالتالى الرزايا والكوارث ، وإنه لمن العجب أن يعيش هذا الشعب فى فقر ، وفى قلق ، وأن يعانى الهزيمة فى كل حرب خاضها عبد الناصر ، ومع هذا يقف مدافعاً عنه ، إنها أبواق الدعاية ، وصور الخوف التى قلبت الحق باطلا ردحا من الزمن .

رعى الله بلادنا وعاون قادتها فيما يبذلون من جهد لتصحيح مسار الحياة .

والآن ، وظلمة الليل تتراجع أمام أشعة الصباح ينبغى علينا أن نذكر كلمة نصور فيها الانسان المصرى على حقيقته ، ونصور كذلك أصحاب السلطان والنفوذ الذين اتخذوا وسائل متعددة لتزييف إرادته ، وسلب حقوقه السياسية ، لقد ظنوا أنهم يخدعونه ، لكنهم فى الحق لم يخدعوا إلا أنفسهم .

الإنسان المصرى

وموقف بعض الحكام منه

الفلاح المصرى فى حقله مجدٌّ دءوب لا يجد الوسائل اللازمة لتطوير عمله ، ولكنه يبذل من فكرة وعرقه ما يعوضه عن هذه الوسائل .

والعامل المصرى فى مصنعه كادح ذكى صبور .

ومثل هذا يقال عن التاجر المصرى ، والمهندس المصرى ، والطبيب المصرى ، والمعلّم المصرى . . . .

وهذه حقيقة نراها على أرض مصر ، ونراها بمزيد من الوضوح خارج مصر ، عندما ينتقل هذا الإنسان ليعمل بدولة أخرى ، أو مهاجراً ، لوطن جديد ، وينافس سواه من الكفاءات العالمية .

هذا من ناحية العمل .

ومن ناحية الحقوق السياسية والالتزامات الوطنية ، عرّفَ الإنسانُ المصرى هذه الحقوق وأدّى هذه الالتزامات ، فقد رأيناه يهب مدافعاً عن بلاده ضد الفرنسيين عندما تخلّى العثمانيون والمماليك عن الدفاع

منها ، ولم يتأخر مواطن عن هـذا الشرف من رشيد إلى أسوان ، حتى أصبحت كل قرية مركز ثورة ، وقدّم الإنسان المصرى دمه بسخاء ، ودون مَنٍّ كلما دق ناقوس الخطر أو أُعلِن الجهاد .

واستعمل الإنسان المصرى حقوقه السياسية أحسن استعمال ، فهو الذى اختار زعماءه وأيدهم قبيل أسرة محمد على فأحسن الاختيار ، وهو الذى اختار زعماء ثورة ١٩١٩ وثار وأرغى وأزبد عندما قبضت قوات الاحتلال البريطانى على زعيم هذا الوفد ورفاقه ، وظل الجمهور المصرى مخلصاً لحزب الوفد ، فكلما أتيحت له فرصة التعبير الحقيقى عن نفسه كان يختار ممثليه من هذا الحزب .

هذا هو دور الإنسان المصرى على مر التاريخ فى مجال العمل وفى مجال السياسة .

فما هو دور الملوك والرؤساء وبعض الكبار من هذا الإنسان ؟

إنه كان للأسف دوراً يكثر فيه الجور عليه ، وسلب حقوقه ، وقد سلك هؤلاء طرقاً متعددة لتحقيق هذا الجور :

جاروا عليه عندما أنزلوا به ألواناً من القهر والظلم كما رأينا فى هذا الكتاب .

وجاروا عليه عندما استغلوا فقره وحاجته فقدموا له المال ليخربار

من لا يرتضيه ممثلا له فى البرلمان ، وكثيراً ما خدعهم ، أخذ أموالهم ولم يستجب لإرادتهم .

وجار عليه ملك حل مجلس النواب فى أول جلسة له وأقال حزب الأغلبية عدة مرات .

وجاروا عليه عندما زيفوا إرادته وعينوا من يمثله مع انقطاع الصلة الروحية بين الجانبين .

وجاروا عليه عند ما أرغموه فى استفتاء أو فى انتخاب ليقول مالا يعتقد .

ثم راح هؤلاء يصفونه بأنه لا يستحق هذه الحقوق ، لأنه لا يستطيع أن يمارسها ، والحق أنهم هم الذين لا يعرفون الحقوق والواجبات ، وأنهم هم الذين ينبغى أن يعرفوا مدى حقوقهم ومدى التزاماتهم .

إنها كلمة حق نقولها للظلمة أن يكفوا ألسنتهم عن اتهام الإنسان المصرى ، وأن يرفعوا الوصاية التى فرضوها عليه ، وحينئذ سيستعيد مكانه ويمارس حقوقه على خير وجه كما فعل على مر التاريخ .

لقد صارع العدو الأجنبى بقوة وإيمان ، وكان يكره دائما أن يصارع فى الداخل ، فلا تظنوا به الظنون .

إن من يسلب الحق السياسى لإنسان ما ، يرتكب جرماً أعظم ممن يسرق مالا أو متاعاً .

وكما أن سارق المال لا يُثرى بالمال الحرام، فسارق الحقوق السياسية لن ينال شرفاً بما سرق ، بل سينال سوء الذكرى ولعنة التاريخ .

والآن ، بعد هذا الليل الذى طال ، والكوارث المدلهمة التى انتابتنا ، والذعر الذى حطم نفوسنا ، انتهى ذلك العهد مخلفاً أمر الذكريات وهتفنا فى صمت ورجاء : ليكن الله معنا ونحن نبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الكنانة الحبيبة .

الفجر الجديد

من عهد إلى عهد

فى وسط هذا الظلام المطبق ، والألم القاتل تولى أنور السادات رياسة الجمهورية ، وكان الناس يشفقون عليه من حمل هذا العبء الثقيل ، ولم يكن أكثر الناس يعرفون أنور السادات معرفة حقيقية[1] على الرغم من أنه الذى أذاع البيان الأول للثورة ، وأنه الذى كان يمكن أن يقاد إلى المقصلة لو فشلت هذه الثورة ، فلم يكن قد برز من أسماء قادة الثورة إلا هو واللواء محمد نجيب ، وإن كان الأخير لم يكن من مدبرى الثورة ، ولكنه اختير فى آخر لحظة لقيادتها لسنّه ، ولما كان ينعم به من مكانة نتيجة وقوفه فى وجه الملك فاروق دون خوف أو هلع .

ولكن بعد نجاح الثورة وتمكّنها ، أبعَدَ جمال عبد الناصر

---

(١) من الحقائق التى دونتها فى كتابى « رحلة حياة » أنى — عقب أن فصلنى مجلس قيادة الثورة من الجامعة سنة ١٩٥٤ — عملت فى المؤتمر الإسلامى وكان الرئيس أنور السادات سكرتيراً عاماً لهذه المؤسسة ، وقد كنت بحكم هذا العمل غير بعيد عنه ، وأشهد الله لقد رأيت منه صورا جمة توضح سعة الأفق ، وعمق السياسة ، وصفاء النفس ، والقلب الكبير ، ولذلك عندما تولى أنور السادات رئاسة الجمهورية أحسست بالأمل ينبثق ، وتوقعت على يده كثيراً من الخير .

محمد نجيب واستأثر بكل السلطة ، وكان يضع أعضاء مجلس قيادة الثورة في الضوء ، أو يدفعهم إلى الظل حسبما يشاء ، وذلك هو اعتقادى كمؤرخ كونته من متابعة الأحداث ، فلقد شهدنا الكثيرين من أعضاء مجلس قيادة الثورة يُبْعَدون عن أمكنتهم الواحد تلو الآخر في ظروف متعددة .

ومن حسن حظ هذا البلد أن أنور السادات قد حفظه الله، ثم عُيِّن نائباً لرئيس الجمهورية عندما كان هذا مسافراً إلى روسيا ، وقد ظل أنور السادات فى هذا المنصب حتى وفاة الرئيس السابق ، فآل له هذا التراث ، وتم اختياره رئيساً للجمهورية فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠ وبعد شهور على توليه هذا المنصب هبت عواصف تريد سلب السلطة منه لأنه اتجه بالحكم وجهة جديدة فيها بشائر الحرية والوضوح ، وحدثت أزمة ١٥ مايو سنة ١٩٧١ وتمت حركة التصحيح ، فبدأ خط جديد فى حياة مصر ، أساسه القضاء على مراكز النفوذ التى تربت فى العهد الماضى وأرادت أن تستمر فى نفوذها الجائر فى العهد الجديد .

دعائم النصر :

ومنذ ذلك الحين اتجهت مصر اتجاها حقيقيا للاستعداد للمعركة ، فأزالت عن المواطنين كابوس الظلم ، وأعادت القضاة المعزولين ،

وأوقفت المصادرة التى كانت تتخذ كلمة الحراسة اسماً لها ، وقررت نوعاً من الحرية للصحافة والمجتمع[1] .

وقد لخص الرئيس أنور السادات هذه العوامل فى ورقة أكتوبر ، وكل كلمة من كلماته لها معان عميقة ، استمع إليه يقول :

ـ كان لابد أن يزول الخوف ، وأن تختفى بذور الشك ، وأن تتراجع الحزازات والأحقاد .

ـ وكان لابد أن يحس كل فرد أنه آمن على يومه وغده ، وعلى نفسه وأهله ورأيه وماله .

ـ وكان لابد أن يعرف كل مواطن أن الحرب التى هو مقدم عليها لن تحرر له أرضه فقط ، ولكنها سوف تحمل له حياة أكرم وأرحب ، وقيماً أعلى وأرفع .

ـ وكان لابد أن يدرك كذلك أن النصر سوف يحقق للشعب أملا فى أن يتطلع إلى مزيد من الديمقراطية ، لن تتحقق له كاملة إلا فى وطن عزيز متحرر .

---

(١) أقول نوعاً من الحرية ، فلا نزال ننتظر المزيد من أنور السادات فى مجالات مختلفة ، كأن يختار رئيس الجمهورية بالانتخاب الحر لا بالاستفتاء ، وأن توفر الحرية الكاملة فى انتخابات مجلس الشعب ، وتمنح الصحافة حرية تامة ، وترتفع حرية الرأى لأساتذة الجامعة إلى أوسع مدى .

ـ وكان عامل النصر الخامس هو وضوح الرؤية ، وتحديد الهدف ، فقد كان لابد أن يخضع قرار الحرب لحساب دقيق ، وينطلق من عزم قاطع ، ووضوح فى الرؤية شديد ، وإلمام بمشرات من العناصر العسكرية والسياسية والاقتصادية والنفسية ، المحلّى منها والدولى على السواء . فقد سيقت الأمة العربية إلى الحرب مع إسرائيل عدة مرات خلال ربع قرن من الزمان ، دون أن يكون لهذه الحسابات وجود ، ودون تحديد سابق لهدف الحرب وغايتها وكل الاحتمالات التى تصاحبها .

الشعب والقائد :

ذلك هو برنامج الرئيس أنور السادات الذى وضعه لمواجهة إسرائيل ، وقد حقق هذا البرنامج كثيراً من آمال المواطنين ، فالتقى القائد والشعب فى الحلبة ، وأحس الشعب العربى فى مصر برئيس يحبه ويقبل عليه ، ويعيش له ، ويدبر أمره بحكمة ، وسرعان ما اتجه الشعب للرئيس الجديد بكل الجهد وكل الكفاءة ، نافضاً غبار الماضى ومحطماً اتجاهات الركود والتواكل ، فإن معدن هذا الشعب أصيل ، ولكن السنين المريرة ربّت فوقه طبقة من الصدأ ، ولهذا الشعب بطولات نادرة ولكنه كان حبيس قفص من الاضطهادات والعسف ، و و

شعب يحب العمل والكدح ولكنه خلد إلى اللامبالاة عند ماسَرَقَتْ عصابة من المغتصبين نتائج كدحه ، وهو شعب حقق انتصارات عالمية، ولكن قادة العهد الماضى فرضوا عليه الهزائم ، وفى ربا النيل بدأ موكب الحضارة ، ولكن جهل الحكام قضى علينا بالتخلف ودفع أعداءنا إلى السبق .

فلما أشرق الصبح ، وظهر أنور السادات مقبلا على مصر ، أقبلت عليه مصر بكل طاقاتها وقدراتها ، فبدأ الطريق يمهّد للنصر المؤزر .

وقبل أن نسترسل فى الحديث عن هذا العهد الذى مهد للنصر المبين ، وعمل جاهداً لتحقيق أهداف ثورة ١٩٥٢ ، ينبغى أن نقف وقفة نتحدث فيها عن الثورات التى هبت بمصر فى العصر الحديث لتقود الشعب وتعبر عن آماله ، ونوضح مدى نجاح هذه الثورات فى تحقيق هذه الآمال، فليست ثورة١٩٥٢ إلا حلقة فى سلسلة الثورات المصرية ، وفيما يلى هذا البيان :

الثورات المصرية فى العصر الحديث وما حققته من أهداف

عمر مكرم والسادات والشرقاوى :

دخل العثمانيون مصر سنة ١٥١٧ ، وأصبحت مصر بذلك جزءاً من الإمبراطورية العثمانية الفسيحة ، والذى يدرس تاريخ مصر خلال العهد العثمانى يُدرك أن المصريين لم يروا فى العثمانيين إبان عهودهم الأولى غزاة أو مستعمرين ، بل اعتبروهم قادة يعملون على توحيد الصف الإسلامى وإعادة مجد الخلافة الإسلامية ، ومن هنا لم يحدث صراع بين المصريين وبين العثمانيين خلال فترة طويلة، وكان المصريون يفسرون انحراف السلاطين العثمانيين على أنه انحراف شخص الخليفة ، ويتطلعون إلى خليفة يبتعد عن الانحراف .

وكان المماليك ينعمون بخيرات مصر ، ويستبدون بالأمر فيها قبل العثمانيين ، وكان هؤلاء المماليك يُعَدُّون مصريين ، إذ لم يكن لهم وطن سوى مصر ، ويسميهم الجبرتى « الأمراء المصريين » .

وعاش المصريون ردحاً من الزمن يسلمون زمام السلطات للمماليك والعثمانيين فى ضوء التفسير السابق .

وعندما جاءت الحملة الفرنسية انهار العثمانيون والمماليك أمامها وعقب انهيارهم تخلّى هؤلاء وأولئك عن مصر ، ولم يشغلوا أنفسهم بإعادة الاستعداد للدفاع عنها ، وحمل المصريون وحدهم هذا العبء ، وثارت مدن مصر وقراها من رشيد حتى أسوان ، وقدّم المصريون الضحايا غير مبالين بشيء ، وأنزلوا بالعدو ضربات شديدة قتلوا بها ديبون وكليبر وغيرهما .

وتحدّت الحملة الفرنسية هذا التصرف فبطشت واستعملت كل ضروب القسوة ، ولكن المصريين لم يلينوا ولم يخضعوا ، وكان علماء الأزهر هم قادة هذه الحركة وعلى رأسهم السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى ، والشيخ السادات ، وكان ذلك مبدأ بروز الشخصية المصرية الحقيقية .

وخرجت الحملة الفرنسية من مصر واستمرت الشخصية المصرية فى حمل مسئولياتها وفى مسيرتها ، وتحدّت تركيا ، وعزلت الوالى الذى عينته الأستانة وهو خورشيد باشا ، وعين المصريون محمد على واليًا على مصر ، واضطرت الأستانة أن تنحنى أمام هذه الرغبة وتوافق على هذا التعيين .

وتُعَدُّ حركة مصر بقيادة العلماء أولى الثورات المصرية فى العصر

الحديث وقد نجحت هـذه الثورة ، إذ أبرزت الإرادة المصرية وأعلنت الشخصية المصرية[1] .

ثورة عرابى :

وقد حقق محمد على وحفيده إسماعيل كثيراً من الأمجاد الداخلية لمصر تحدثنا عنها فى الجزء الخامس والجزء السادس من موسوعة التاريخ ، وانحرف أحد أبناء محمد على وهو الخديوى توفيق، متآمراً مع الشراكسة والإنجليز ضد البلاد ، فجاءت ثورة جديدة بقيادة أحمد عرابى لتعيد مكانة الشخصية المصرية، ولكن ثورة أحمد عرابى لم يقدر لها النجاح ، وانتصر الإنجليز عليه ودخلوا مصر ، وبدأ الاحتلال البريطانى البغيض.

مصطفى كامل والحزب الوطنى :

وجاءت الثورة الثالثة بقيادة مصطفى كامل والحزب الوطنى ، واتجهت بقوتها لمصارعة الاحتلال الانجليزى ، واضطر مصطفى كامل أن يحسن صلته بالعثمانيين ليتخذهم عوناً فى صراعه ضد المحتل الأوربى ، وكان العثمانيون لا تزال لهم علاقة بمصر من الناحية الشكلية ، ولكن

---

(١) انظر تاريخ مصر فى الجزء الخامس من « موسوعة التاريخ الإسلامى » للمؤلف .

وفاة مصطفى كامل المبكرة ، ونفى خلفه محمد فريد ، وضجيج الحرب العالمية الأولى ، وقرار بريطانيا بقطع الصلة بين الأتراك العثمانيين وبين مصر . . . كل هذه العوامل وغيرها أضعفت صوت هذه الثورة .

ثورة ١٩١٩ وسعد زغلول :

وهبت الثورة الرابعة سنة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول واستجاب لها الشعب من كل أطراف البلاد ، وأرغمت هذه الثورة المستعمر أن ينحنى لها ويستجيب إلى كثير من مطالبها ، فأصدر تصريح ٢٨ فبراير وأصبحت مصر تنعم بدستور وبرلمان وصحافة حرة ، وبدأت مصر فى ظل الوضع الجديد تحقق كثيراً من أهدافها ، ثم جاءت معاهدة ١٩٣٦ ، وكانت هذه المعاهدة امتداداً لثورة ١٩١٩ وفى ظل المعاهدة الجديدة أضافت مصر إلى النجاح نجاحاً ، وخطت بالبلاد خطوات واسعة لاستكمال استقلالها ولتحقيق مزيد من التقدم فى الميادين المتعددة ، فى الداخل والخارج ، ففى المجال العلمى نهضت البلاد نهضة واسعة ، فكثرت بها المدارس من رياض الأطفال حتى التعليم الجامعى ، وقُضِىَ على الازدواج فى التعليم بالمرحلة الأولى ، وانتشرت الجامعات بمصر خلالها ، فقد أصبحت الجامعة المصرية القديمة جامعة رسمية حكومية بها كل نظم

الجامعات ودرجاتها منذ سنة ١٩٢٥ ، وجاء بعدها جامعة الإسكندرية ، فجامعة عين شمس ، فجامعة أسيوط ، ونال الأزهر عناية كبرى فى هذه الفترة ، فصدرت قوانين إصلاحه ، وأنشئت به الكليات وكثرت المعاهد فى عدة أقاليم .

وفى هذه الفترة نظم الرى والصرف ، وتم بناء قناطر نجع حمادى ، ووُجهت عناية كبرى للزراعة ، وأنشىء المتحف الزراعى .

وفى المجال الاقتصادى أنشأ طلعت حرب بنك مصر وشركاته، وصدر قانون الشركات ، وخفضت الضريبة على صغار الملاك ، وارتفع صوت محمد خطاب فى برلمانات ذلك العهد بضرورة القضاء على الإقطاع وتحديد الملكية الزراعية .

وفى الميدان السياسى صارعت هذه الفترة الاحتلال البريطانى صراعاً لا هوادة فيه، حتى أنها ألغت معاهدة ١٩٣٦ ومنعت العمال المصريين من العمل فى المعسكرات البريطانية بالقناة ، وأوجدت لهم وظائف بديلة ، ومنعت عن الجيش المحتل كل خيرات البلاد ، وكان ذلك من الأسباب التى أضعفت شأنه .

وهكذا حققت هذه الثورة ألواناً من النجاح فى ميادين متعددة[1] .

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ للمؤلف .

ولكن الملك فؤاد والملك فاروق هالهما أن ينعم الشعب بهذه الحقوق الواسعة التى خلقها الوضع الجديد ، وهالهما كذلك أن تحدد سلطاتهما ، فتآمرا مع الاستعمار ضد هذه الثورة ، وعملا على إبعاد حزب الأغلبية ، وعلى جعل الدستور كلمات لا مدلول لها ، وحتى الملك فؤاد والملك فاروق الإقطاع ورأس المال ، فقد كانا هما والأسرة المالكة أوسع الإقطاعيين أرضاً وأكثرهم ثراء ، ولم يتحمس الملكان ضد الاحتلال الإنجليزى ، فقد كان فيهما تراث من الخديوى توفيق الذى تعاون مع الاستعمار وجامله .

ثورة ١٩٥٢ ومبادئها ونتائجها :

وهبت بذلك ثورة ١٩٥٢ لتقضى على الأسرة المالكة التى كان يتمثل فيها التحدى ومقاومة آمال الشعب ، وأعلنت برنامجها فى نقاط ست هى :

— القضاء على الاستعمار وأعوانه .

— القضاء على الإقطاع

— القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .

— إقامة عدالة اجتماعية

— إقامة جيش وطنى قوى .

— إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وصفق الناس لهذه الثورة ، فقد كان برنامجها يعبر عن آمال الشعب وأمانيه ، ومر الزمن حتى سنة ١٩٧٠ ، حينما انتهت حياة الرئيس جمال عبد الناصر ، وإذا وضعنا هذه الحقبة فى الميزان يتبين لنا أنها كانت حقبة تعمق فيها الأسى والضر ، وتعرض الشعب خلالها لألوان من الآلام والهوان حتى أصبحت الهجرة أعظم مطمع يتجه له المواطنون ، واحتوتنا عزلة مريرة ؛ بعد أن انقطعت صلاتنا بأكثر الدول العربيــة والاسلاميــة والعالمية ؛ وانشغلت صحافتنا بالمهاترات ضد من أسموهم الرجعية ، والثورة المضادة ، وضد الملوك والرؤساء العرب ، كما انشغلت بتضليل الشعب ، وذقنا طعم الهزائم عدة مرات ، وقد تحدثنا من قبل عن هذه المواقف ؛ والمهم أن هذه المشــكلات شغلت عصر جمال عبد الناصر ، فلم تتحقق على يده مبادىء ثورة ١٩٥٢ :

صحيح أن الاستعمار الانجليزى قد انتهى ، ولــكن هذا العهد جلب لمصر — بسياسته وهزائمه — استعماراً أقسى وأمر هو الاستعمار الصهيونى الذى احتل جزءاً عزيزاً من بلادنا وهدد الباقى بشراسة .

وقد يكون الاقطاع الزراعى قد انتهى ، ولـكن الذى لاشك فيه أنه قد حلت محله صنوف أخرى من الاقطاع فى الشركات والعمارات والاثراء الحرام .

ولم تعد لرأس المـال فعلا سيطرة على الحـكم ، ولـكن مراكز النفوذ سيطرت عليه ، وكانت أخطر على الحـكم ألف مرة من رأس المـال .

ولم تتحقق العدالة الاجتماعية ، فقد افتقر الأغنياء وجاع الفقراء وقد سبق أن اقتبسنا ذلك .

أما الجيش فى العهد الماضى فقد ذاق طعم الهزائم فى كل معاركه ، وكان اليهود يصفونه بالأرانب ، وذلك بسبب قيـادته الهزيلة المنسيبة المنحرفة .

ولا يمكن أن يدّعى أحد أن بلادنا شهدت الديمقراطية السليمة فى ذلك العهد ، فقد وصل الأمر إلى تعيين مجلس الأمة ، وتحديد من يلتزم الناس باختياره ، وحجب الحرية تماماً عن الصحافة ، وفصل الأحرار من وظائفهم ، وتحطيم الأقلام والنفوس .

ومن أجل هـذا الاخفاق فى مختلف النواحى ثار جيل ثورة

٢٣ يوليو ؛ ويصف الأستاذ موسى صبرى ذلك فى الأخبار يوم ٢١/٤/١٩٧٤ بقوله :

« إن جيل ثورة ٢٣ يوليو تمرد على قيادتها فى مظاهرات عام ١٩٦٨ بعد الهزيمة المرة ، وأعلن حينئذ سقوط جميع اللافتات ، وطالب بالحرية ، ورفض أن تمر الهزيمة بغير حساب ، ودعا إلى الديمقراطية وحكم الدستور ، وتحدى سياسية القمع » .

أنور السادات وثورة التصحيح

اختير أنور السادات — كما ذكرنا — نائباً لرئيس الجمهورية ، ثم اختير رئيساً للجمهورية عقب وفاة جمال عبد الناصر ، وحاولت مراكز النفوذ أن يسير عهد أنور السادات كما سار عهد سلفه ولكن الرجل كان طبيعة أخرى ، بعثته العناية الإلهية دواء للجراح ، وأملاً بعد اليأس ، ورجاء بعد الشدة ، وضوءاً بعد الظلام الذى طال وامتد فتصدى بقوة للخفافيش التى تجمعت فى الظلام ، وأمده الله بالعون فقضى على أوكارهم فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، وبدأ بذلك عهد جديد.

هل يعد عهد أنور السادات عهداً جديداً أو استمراراً لعهد جمال عبد الناصر ؟

فى الإجابة عن هذا السؤال نقرر بإصرار أن عهد أنور السادات عهد جديد ، بقيم جديدة ، وتخطيط جديد ، وأنه فى سياسته الداخلية والخارجية يسير فى فلك جديد ، وفى ضوء جديد ، فلا اعتقالات ولا كبت ، ولا حراسة ولا تأميم ، ولا صراع بيننا وبين الدول العربية ، ولا قطيعة بيننا وبين دول العالم ، وسنرى ذلك بعد قليل عند الكلام عن ملامح العهد الجديد . ولعل ذلك هو الذى حدا بالدكتور وحيد رأفت

والدكتور مصطفى أبو زيد أن يسميا عهد أنور السادات بعد ١٥ مايو سنة ١٩٧١ بالجمهورية الثانية .

واستمراراً لهذا الاتجاه يرى بعض المفكرين أن شرعية الحكم بعصر قد سقطت نهائياً فى يونيو ١٩٦٧ ، بعد الفشل الشامل فى كل مرافق الحياة ، وأننا عشنا فترة غير شرعية منذ ذلك التاريخ ، حتى قامت شرعية جديدة مختلفة فى نوعيتها وأخلاقياتها ، وتطبيقاتها يوم ١٥ مايو سنة ١٩٧١ [١] .

وسؤال آخر هو : هل يعتبر أنور السادات مسئولاً عن عهد سلفه ؟ .

يقول الرئيس أنور السادات فى الإجابة عن هذا السؤال : إنه مسئول عن عهد سلفه ، ونحن نصرخ معارضين هذا الاتجاه تحكمنا فى ذلك مقاييس علمية يتحتم أن نخضع لها ،وفى قمة هذه المقاييس قوله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » [٢] . ثم إن الرئيس أنور السادات بعد حل مجلس قيادة الثورة فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٤ شغل مناصب كثيرة بعيدة عن السلطة التنفيذية ، فقد كان سيادته سكرتيراً عاماً للمؤتمر الإسلامى ،

---

(١) الأستاذ صالح جودت : مجلة المصور فى ٨ مارس ١٩٧٤ .

(٢) سورة فاطر : الآية ١٨ .

وكان مشرفاً على دار التحرير للصحافة ، وكان رئيساً لمجلس الشعب ، ولا يمكن بهذا أن يعد مسئولا عن قرارات اتخذتها السلطة التنفيذية .

وقد رأينا الرئيس السادات يلغى قرارات كثيرة صدرت فى عهد سلفه مما يدل على عدم رضاه عنها ، وذلك كإلغاء الحراسة، وإعادة أساتذة الجامعة المفصولين ظلماً ، والعفو عن المسجونين السياسيين وغير ذلك .

ولا يمكن أن يعتبر أنور السادات راضياً عما حدث قبله ، بدليل أنه بَعُدَ بعداً واسعاً عن سياسة ذلك العهد ، التى طالما فزع منها الشعب وشكا إلى الله ، وقد برهن أنور السادات عن أن طبيعته فى الحكم تختلف اختلافاً تاماً عن طبيعة العهد الذى سبقه ، وتلك حقيقة نقررها ونؤكدها لوجه الحق والدين والوطن .

وسؤال ثالث هو : ما العلاقة بين أنور السادات وثورة ٢٣ يوليو ؟

إن أنور السادات وثيق العلاقة بالإعداد لهذه الثورة ، وهو الذى تحمل مخاطر إعلان قيامها كما قلنا من قبل ، ولكن الثورة بقيادة جمال عبد الناصر اتجهت وجهة خاصة ، تحت مسئولية هذا القائد الذى أعلن بصراحة أنه المسئول عن هزائم سنة ١٩٦٧ ، وعن الزحف على اليمن وغير ذلك من الأحداث ، وفَشَلَ هذا العهد فى مسيرته ، وفشل

فى تحقيق أهداف الثورة كما شرحنا آنفاً ، وآل الأمر لأنور السادات الذى بدأ من جديد يعمل لتحقيق الأهداف التى أعلنها باسم الثورة فى صبيحة الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، وعلى هـذا فارتباط أنور السادات بالثورة يكون بإسقاط حقبة طويلة تبدأ منذ انحرفت الثورة عن مسارها الصحيح فى مطلع عام ١٩٥٤ حتى أعادها سيادته إلى وضعها الطبيعى بثورة التصحيح ، ونحن ندعو لسيادته من كل قلوبنا أن يوفّق فى تحقيق مبادىء الثورة التى فشل سواه فى تحقيقها ، وأن يجعل اليُمْن على يديه ، وخير البلاد مقروناً باسمه .

ومن المحقق أن التعرف على الداء هو الوسيلة الضرورية لوصف الدواء ، وقد منعتنا القوى الجائرة ردحاً من الزمن أن نصف الداء ، فظل المرض كامناً ، واستمر ينتشر ويتعمق ، وقد أتيح لنا بعد لأى أن نتعرف على الدواء ونعلنه ، وبالتالى أن نصف الدواء ليزول به سقم المريض ، ويسترد المريض صحته ، رجاء أن نلحق بركب التقدم الحضارى الذى يسارع الخطا .

... كلمة أخيرة نختم بها حديثنا عن ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ هى أن ثورة ١٩١٩ مهدت الطريق لثورة ١٩٥٢ ، ولم تجىء هذه من فراغ

كما قال الرئيس أنور السادات ، ومن مفاخر ثورة ١٩١٩ أنها صقلت المجتمع المصرى ، وخلقت لمصر جيشاً استطاع أن يثور على الباطل ، وشيدت طرقاً وجامعات ومستشفيات عظيمة ، وظهر فى أحضانها رجال عمالقة ، ومع هذا فهناك اتجاه لإخفاء تاريخ هؤلاء الرجال ، وإن الإنسان لتأخذه الدهشة حينما لا يجد مدرسة أو شارعاً أو مؤسسة ذات بال تحمل اسم مصطفى النحاس أو محمد حسين هيكل ، بينما يسمى أعظم طريق فى القاهرة باسم صلاح سالم ، ونرجو أن يتدارك عهد أنور السادات هذا النقص المشين .

ملامح العهد الجديد

اتجه العهد الجديد وجهة إصلاح للداخل ، ولا نقول إن الإصلاح شمل كل شيء ، فلا تزال المتاعب الاقتصادية تطحن الناس ، ولا تزال المرافق تعانى من الضغط الشديد ، ولكن الإصلاح اتجه للنفوس بالدواء ، فأمَّن هذا العهدُ كل فرد على نفسه وعلى ماله وعلى ذويه ، وأوصدت أبواب المعتقلات ، ولم تعد القلوب تدق رهبة إذا طرق طارقٌ أبوابَ الناس بالليل ، ولم تعد هناك حراسة ، وظهر نوع من الحريات يرجى أن يكتمل ، وعلت الابتسامة الوجوه التى عرفت الهم والقلق والوجوم عدة أعوام ، وأعلن أنور السادات أن الحب هو الذى يسيطر على مجتمعنا الجديد وأنه لا مكان فى مصر بعد اليوم للحقد والضغينة والبغضاء .

والحق أن أنور السادات جدير أن يتصرف هذا التصرف ، لأنه عانى فى شبابه صوراً من الظلم ، عرف الفصل من العمل ، وعرف السجون والمعتقلات والاستهانة بكرامة الإنسان ، هذا بالإضافة إلى ماتثبته الأيام عنه من سماحة النفس وصفاء الضمير ، وتلك كلمات نقولها باسم الحق ولحق التاريخ .

واتجهت الدولة بعد هذا الإصلاح الداخلي تعيد بناء صلاتنا بالإخوة العرب ، وكانت استجابة هؤلاء سريعة وشاملة ، فسرعان ما نسى الملوك والرؤساء ما أصيبوا به من غمزات أو لمزات ، ومدوا أيديهم إلى مصر وفتحوا خزائنهم ، فتبادُلُ المنفعة هو وحده الذى يحمى مصر ويحمى العرب .

واتجهت مصر الدول الإسلامية تعيد الارتباط الذى رسمته يد الله عندما قال جل وعلا « إن هذه أمتكم أمة واحدة »[1] والذى أيده سيدنا رسول الله عندما قال «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» .

واتجهت مصر إلى إفريقية كأخت كبرى لاتتطلع إلى زعامة ولا تنتقص من أحد ، وإنما تَمُدُّ يدها بالعون ما استطاعت وترجو الخير لـكل الجيران ، معتقدة أن الخير يمتد ظله وتقوى أشعته .

حرب النصر

وتهيأت مصر بذلك لتُعِدّ المعركة الـكبرى ، ومرت شهور حافلة بالجهد والعرق فى ظل الإيمان والإخلاص حتى الأول من أكتوبر سنة ١٩٧٣ عندما عُقِدَ اجتماع على أعلى مستوى عسكرى حضره الرئيس أنور السادات ، وتمت الخطة بالتعاون مع أبطال سوريا على

(١) سورة الأنبياء الاية ٩٢

بدء الهجوم ظهر السادس من أكتوبر ، وكان تعاون مصر وسوريا هذه المرة مبنيا على أسس سليمة ، ويقول المرحوم المشير أحمد إسماعيل:

لقد كان التنسيق الجاد المخلص مع القوات السورية هو قراري منذ اللحظة الأولى للإعداد للمعركة ، وكنا نقصد بذلك أن نرغم العدو على القتال فى جبهتين فى وقت واحد لتشتيت جهوده ، وبذلك نتحاشى ما حدث فى حرب ١٩٦٧ ، إذ كان التنسيق فيها بين مصر وسوريا غير صادق من الطرفين ، ويستمر المشير أحمد إسماعيل قائلا : وأسجل أن تعاون القوات السورية معى كان تعاونا صادقا ومشرفا ، وهذا يسّر السبيل لتنظيم خطواتنا ، وتحديد ساعة الصفر . . . وبذلك تحقق العبور العظيم .

وقد وُضع قرار الحرب على الرغم من أن القوتين الكبيرتين كانتا قد اتفقتا على ما سمى بالاسترخاء العسكرى فى منطقة الشرق الأوسط ، وعلى الرغم من أن الاتحاد السوفيتى لم يوف بتعهداته فى إرسال السلاح لمصر على نحو ما أرادت مصر .

وكانت إسرائيل قد دبرت أمرها طيلة سنى الهزيمة ، فأعدت عدة شيطانية لحماية نفسها ضد أية محاولة تقوم بها مصر،وكانت قناة السويس تعد مجرى يؤمن لها الحياة ، وبجوار المجرى كان يقف خط بارليف

العنيد ، ثم الساتر الترابى الشاهق الذى كان يحمى كل التحركات والاستعدادات خلفه ، وانتشرت هنا وهناك قوة ضارية كبيرة أمدتها أمريكا وألمانيا ودول أوربية أخرى بالمال والعتاد ، ولكن مصر كانت قد أعدت نفسها للثأر ولتحرير الأرض ولاستعادة تاريخها الطويل فى البطولات والانتصارات ، مؤكدة أن الهزيمة أو الهزائم السابقة نشأت عن إهمال راح إلى غير عودة .

مع حرب السادس من أكتوبر يوماً بيوم

فى قفزة أقرب إلى الخيال تغير كل شىء فى المنطقة ، فالطائرات المصرية لم تعد تلك التى تهاجم وهى رابضة ، بل راحت تزأر حتى شلت حركة الفانتوم التى كانت تعتمد عليها إسرائيل ، وقصرت خطواتها .

ولنرفع أيدينا عن الكلام لنعطى الزمام لقادة المعركة الظافرة ، وقد تحدثوا بعض الشىء ، وكشفوا ما يمكن كشفه من أسرار المعركة ومن أحاديثهم نقتبس بعض لقطات .

يقول الفريق سعد الدين الشاذلى رئيس الأركان السابق عن فترة ما قبل المعركة :

« إن تحركات استعدادنا كان يصحبها تحركات أخرى نقوم بها للخداع ، لنحدث ارتباكا فى تقديرات من يرقب ، ولنقوده إلى النتيجة الخاطئة ، وكانت أصعب أيام الخداع هى الأيام الثلاثة الأخيرة ، فهى تقتضى تحركات معينة ، فاحتجنا إلى دقة شديدة فى التقدير لإخفاء هدفها ، ولكنها أولا وأخيراً رعاية الله لنا ، التى مكنتنا من تحقيق المفاجأة بالصورة التى تمت بها .

ويقول المرحوم المشير أحمد إسماعيل :

عندما انطلقت « الشرارة » كما أسماها الرئيس أنور السادات وبدأت خطة « بدر » كما أطلق عليها العسكريون بدأ كل شىء يتحرك وفقاً لهذه الخطة :

ضربة الطيران الرئيسية : مائتا طائرة تقوم من الجبهة المصرية بالضربة الأولى على مواقع العدو الحساسة ، ومائة طائرة تقوم بالضربة الأولى من الجبهة السورية .

تمهيد هائل بالمدفعية : ألفا مدفع تهدر فى قصفات متلاحقة .

موجات الهجوم الأول : فجأة وجد العدو أمامه ثمانية آلاف رجل ينزلون إلى قوارب المطاط وغيرها من الوسائل ويبدأون العبور تحت النار .

قاوم العدو من النقط الحصينة لخط بارليف على طول القناة ، وبواسطة الدبابات الرابضة فى مكامنها بجانب النقط الحصينة ، واشتركت المدفعية التى تعززها فى صد موجات الهجوم الأولى .

جنودنا يصلون إلى النقط الحصينة برغم كل مقاومة ، بعض النقط الحصينة كانت عنيدة فى دفاعها ، ولكن جنودنا يقتحمون بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية هذه الحصون .

كان الساتر الترابى فى بعض المواقع عرضه مائتا متر ، ولم تكن الأرض صالحة لنصب كبارى العبور ، لكن المهندسين كانوا فى أعظم لحظات حياتهم ، وكان مدير سلاح المهندسين يشرف بنفسه على مواقع الجسور ، واستشهد نائب مدير سلاح المهندسين على أحد جسور العبور .

قواتنا البحرية تتحرك لتضرب أهدافاً حيوية للعدو على شاطىء البحر الأبيض وعلى شاطىء البحر الأحمر

قواتنا الخاصة تنزل وراء خطوط العدو فى عمق سيناء لتضرب خطوط إمداده ولتعطل هجماته المضادة وتعرقلها .

التدفق من الغرب إلى الشرق مستمر فى نفس الوقت ، لا يتوقف ولا ينقطع .

فى أربع وعشرين ساعة كانت لدينا فى الشرق خمس فرق كاملة ، وذلك شىء لم يحدث مثله من قبل فى تاريخ الحروب .

أخذنا ننسف مواقع خط بارليف ونزيلها من مكانها إلى الأبد ، محتفظين بواحدة منها للعبرة والذكرى . فى أول يوم دمرنا ١٤ موقعاً ، وفى اليوم التالى تسعة ، وهكذا حتى تحولت المواقع ، حلم إسرائيل فى الأمن المطلق ، إلى أنقاض وركام .

* * *

وقناة السويس كانت تعتبر مانعاً مائياً فريداً يختلف عن جميع الأنهار والقنوات للأسباب التالية :

١ — انحدار الشاطىء من الناحيتين وتدبيشه ، مما يعوق المركبات البرمائية من النزول إلى المانع المائى أو الصعود منه إلا بعد تجهيزات هندسية صعبة . ولا يشترك مع قناة السويس فى هذه الصفة سوى قناة بنما وعدد محدود من القنوات الصناعية .

٢ — قيام العدو بإنشاء ساتر ترابى على الضفة الشرقية للقناة مباشرة بارتفاع ١٠ إلى ٢٠ متراً مما يجعل من المستحيل على أى مركبة برمائية العبور إلا بعد إزالة هذا الساتر .

٣ — إنشاء خط بارليف على طول الساحل الشرقى للضرب على

أى قوات تحاول العبور . وقد انتخبت مواقع هذا الخط بعناية فائقة ، بحيث تتحكم فى جميع الاتجاهات وتستطيع أن تغمر بالنيران الجانبية أى قوات تعبر القناة وفى أى جزء منها .

٤ — وجود خزانات للمواد الملتهبة يسع كل واحد منها مائتى طن من هذه المواد ، على مسافات متقاربة ، بحيث يمكن العدو أن يدفعها فوق سطح المياه ثم يشعلها ، فيتحول سطح القناة إلى جحيم ملتهبة تحرق كل شىء فوق الماء ، بل تشوى الأسماك فى عمق القناة وتلفح حرارتها الشخص الذى يبعد عنها بمسافة ٢٠٠ متر ، ويستطيع العدو أن يتحكم فى استمرار هذه النيران باستمرار دفع المواد الملتهبة إلى سطح الماء .

ومن هنا نجد أن قناة السويس ليست مجرد مانع مائى ، بل أنه مانع فريد ليس له شبيه فى العالم ، وليست هناك خبرة سابقة فى التاريخ لعبور مثل هذا المانع ، وكان لا بد من حل جميع المشاكل ، وقد قمنا بتجزئة مشكلة العبور الكبرى إلى عدد من المشاكل ، وأخذنا نحاول ونجرب ونعدل ، إلى أن تم حل جميع هذه المشاكل . .

والآن ، كيف بدأ العبور ؟ وكيف تم التغلب على المشاكل التى اعترضتنا ؟

مشكلات العبور والتغلب عليها

يقول رئيس الأركان السابق : كانت المشكلة الأولى التى يجب علينا أن نتغلب عليها هى كيف نتغلب على النيران الملتهبة التى سوف تغطى سطح القناة عند بدء العبور ، وقد اتجه تفكيرنا أول الأمر إلى إطفائها وقمنا بعمل تجارب على ذلك فى أماكن شبيهة بالقناة ، فاتضح لنا أن عملية الإطفاء تحتاج إلى مجهودات ضخمة ، وأن النيران تبقى مشتعلة حوالى نصف ساعة إذا لم يتم تزويدها بكميات إضافية من المواد الملتهبة ، ومن هنا اتجه تفكيرنا إلى ضرورة إبطال استخدام هذه المواد قبل العبور ، وإذا حدث أن أخفقنا فى إبطال استخدامها فى بعض الحالات ، وجب علينا أن نمنع العدو من تغذية الحريق بكميات إضافية من المواد الملتهبة وذلك لإنقاص فترة تعرض قواتنا للحريق إلى أقل وقت ممكن ، ومن هنا بدأنا العمل ، وتم استطلاع تجهيزات العدو الخاصة بهذا الموضوع ، فاتضح أنه يضع هذه المواد فى خزانات كبيرة مدفونة تحت سطح الأرض حتى يصعب تدميرها بواسطة المدفعية ، وكانت هذه الخزانات متصلة بمواسير تحت سطح المياه لتندفع منها السوائل الملتهبة إلى سطح المياه . وكان من الواضح أنه لو أمكن إغلاق هذه المواسير بأى وسيلة قبل بدء

عملية العبور ، فإن السوائل الملتهبة لن تصل إلى سطح الماء ولن يحدث الحريق وكان هذا هو الاتجاه الذى أخذنا به وبدأنا نتدرب عليه . وهكذا اتجهنا إلى أن نبعث ببعض الأفراد المتسللين لإغلاق هذه المواسير بالأسمنت مع تكليف بعض أفراد من الصاعقة بسرعة الاستيلاء على هذه المستودعات ومنع استخدامها فى حالة الفشل فى إغلاق المواسير الموصلة إلى الميـاه ، وزيادة فى الحيطة درسنا اتجاه التيار فى القناة على طول ساعات اليوم وانتخبنا قطاعات الاختراق بحيث تعبر قواتنا فوق التيار ، وبذلك نتفادى النيران فوق سطح الماء ، وقد تمت العملية بنجاح تام ، ولم ينجح العدو فى إشعال حريق واحد فوق سطح القناة ، وتم الاستيلاء على مستودعات المواد المل سليمة بكل ما فيها ، بل وتم أسر الضابط المهندس الإسرائيلى قام بتصميمها ، وقد أدلى فى أقواله أنه حضر إلى القناة فى اليوم الس القتال لكى يختبر هذه المستودعات .

وكانت المشكلة الثانية هى كيف يمكن إزالة الساتر الترابى الذى أقامه العدو على الضفة الشرقية حتى يمكن أن تقيم المعديات والكبارى على القناة ، ويمكننا أن نتصور ضخامة هذه العملية إذا علمنا أن ثغرة واحدة فى الساتر الترابى عرضها حوالى سبعة أمتار تعنى إزالة ١٥٠٠ متر

مكعب من الأتربة ، وكانت احتياجات العبور تتطلب فتح ٦٠ ثغرة على طول القناة فى كل جانب ، أى إزالة حوالى ٩٠٫٠٠٠ متر مكعب من الأتربة من الساتر الترابى شرق القناة ، فإذا علمنا أننا خلال السنوات الست الماضية كنا قد أقمنا أيضاً ساتراً ترابياً فى غرب القناة خشية أن يقوم العدو بهجوم مفاجىء علينا ، اتضح أن المشكلة أصبحت مضاعفة ، وأنه يتحتم علينا أن نفتح ثغرات مماثلة فى الساتر الترابى الغربى ، فاتجه تفكيرنا أول الأمر إلى أن نفتح هذه الثغرات بواسطة التفجير ، واستمرت نظرية التفجير هى السائدة حتى منتصف عام ١٩٧١ إلى أن اقترح أحد الضباط المهندسين الشبان نظرية التجريف ، وهى استخدام المياه المندفعة تحت ضغط عال فى إزالة هذه الرمال وقمنا بعمل التجارب وثبت نجاحها وأفضليتها على نظرية التفجير ، وأخذنا ندخل التحسينات بزيادة قوة الماكينات إلى أن أصبح فى مقدور رجال سلاح المهندسين أن يفتحوا الثغرة الواحدة فى مدة تتراوح بين ثلاث ساعات وخمس ساعات .

لم يكن فتح الثغرة فى الساتر الترابى هو نهاية المشكلة بل كان من الضرورى تهذيب جوانب القناة بالنسف والتسوية حتى يمكن

تثبيت الكبارى أو تجهيز هذه الثغرات لتشغيل المعديات وعبور المركبات البرمائية .

وإذا جاز لنا أن نقدم كشف حساب عما قام به المهندسون العسكريون ، فإننا نقول إنهم قاموا بشق ٦٠ ثغرة فى الساتر الترابى ، وأقاموا عشرة كبارى ، وما يقرب من ٥٠ معدية عبر القناة ، كل ذلك خلال فترة مابين ٦ و ٩ ساعات ، وقد تم التنفيذ طبقاً لما كان مخططاً تماماً فيما عدا القطاع الجنوبى من القناة ، حيث كانت الأرض غير صالحة لعمليات التجريف ونتج عن ذلك بعض التأخير فى إقامة الكبارى والمعديات عما كان مخططاً ، وإن هذه الأعمال الهندسية الباهرة سوف تكون دائماً مثار فخر للمهندسين المصريين فى جميع أنحاء العالم .

وكانت المشكلة الثالثة هى كيف يستطيع المهندسون أن يقوموا بهذه الأعمال الهندسية الضخمة وهم تحت نيران العدو المسيطر فى الضفة الشرقية ، وكانت الإجابة الفورية هى ضرورة دفع المشاة عبر القناة لتأمين المهندسين ، وهو مايطلق عليه فى التعبير العسكرى «تأمين رؤوس الكبارى» .

وكانت المشكلة الرابعة هى كيف يستطيع المشاة أن يعبروا القناة ويؤمنوا رؤوس الكبارى إلى أن تتدفق الدبابات والمدافع والأسلحة

الثقيلة عبر المعديات والكبارى التى أقامها المهندسون ؟ وكيف يصمد المشاة أمام هجمات العدو المضادة بواسطة الدبابات لمدة تتراوح بين ١٢ و ٢٤ ساعة إلى أن يكتمل عبور الدبابات والأسلحة الثقيلة ؟ وبعد دراسة مطولة أمكننا حل هذه المشكلة بناء على الأسس التالية :

(١) قوة المشاة التى تشكل العبور تحمل معها أقل ما يمكن من التعيين والمياه ، وأكثر ما يمكن حمله من سلاح وذخيرة ، وكان إجمالى ما يحمله كل جندى حوالى ٢٥ كيلو جراماً ، وكان يصل أحياناً مع بعض الجنود إلى ٢٥ كيلو جراماً .

(٢) ابتكار عربات جر صغيرة يضع فيها المشاة ما لا يستطيعون حمله ، ويجرونها بأيديهم عبر الساتر الترابى وعند تحركهم شرق القناة .

(٣) تسليح المشاة بأسلحة مضادة للدبابات ، ولا سيما الصواريخ الخفيفة التى يمكن حملها بواسطة الأفراد ، وذلك لصد هجمات العدو المضادة بواسطة الدبابات .

(٤) تسليح المشاة بالأسلحة المضادة للطائرات ، وبخاصة الصواريخ الخفيفة التى يمكن حملها بواسطة الأفراد ، وذلك لصد هجمات العدو الجوية ضد قواتنا فى أثناء العبور وبعده.

(٥) تجهيز المشاة بسلالم لمساعدتهم فى تسلق الساتر الترابى وجر أسلحتهم وذخائرهم المحملة فى عربات الجر .

(٦) تنظيم عبور المشاة فى قوارب تنظيماً تفصيلياً بحيث يعلم كل جندى مكانه فى القارب ومكان العبور ووقته وواجبه فى أثناء العبور . . . إلخ .

(٧) التسلل خلال خط بارليف وعدم مهاجمة النقط القوية لهذا الخط إلا بعد استكمال عملية العبور وإكمال حصارها .

وخلاصة القول لقد استخدمنا المشاة بنفس الأسلوب الذى كان يستخدم به المشاة منذ العصور القديمة ، وإن اختلفت الأسلحة التى كانت فى أيدينا عن تلك التى كانت فى أيديهم .

وكانت المشكلة الخامسة هى كيف يمكن لقوة المشاة أن تعبر هذا المانع بنجاح ما لم نقم بتدمير وإسكات الرشاشات والمدافع التى تطل من فتحات خط بارليف وتغمر القناة بطولها . وقد قامت مدفعيتنا بحل هذه المشكلة على أحسن وجه . وكانت نتيجة ذلك أن تمكن مشاتنا من عبور القناة بخسائر طفيفة جداً .

وكانت المشكلة السادسة هى كيف نعيد تنظيم قواتنا على الشاطىء الشرقى ؟ وكيف تصل الدبابات والمدافع والذخيرة إلى وحدات المشاة

التى سبق عبورها . ؟ كيف يتم كل ذلك ليلا وتحت ضغط العدو ، وكيف تميّز هذه الدبابات والأسلحة طريقها وتتعرف على وحداتها ؟ ويمكننا أن نتصور هذه المشكلة إذا تخيلنا أن آلاف الدبابات والمركبات والمدافع الثقيلة كان يتحتم عبورها لتنضم إلى وحدات المشاة التى عبرت لتزيد من قدرتها على التمسك بالأرض ، وضد هجمات العدو المتكررة . . وقد أدّى سلاح الإشارة وإدارة الشرطة العسكرية واجبهما على الوجه الأكمل ، فقد أمكن مدُّ كوابل الإشارة عبر القناة منذ اللحظات الأولى للعبور ، وتم تحديد الطرق والمدقات بحيث كان يعلم السائق أنه إذا اتبع اللون الأحمر مثلا فإنه سيصل إلى وحدته فى رأس الكوبرى بينما يتبع سائق آخر اللون الأخضر ، وهكذا . وقد دُرّبت القوات قبل المعركة على ذلك وقامت بتنفيذها بكفاءة تامة .

وامتلأ ميدان المعركة برائحة الدخان والدم والموت ، كما امتلأ بالضجيج والتراب والرمال . . أصوات انفجارات ، وأزيز طلقات الرصاص ، وصفير القنابل الساقطة من جوف الطائرات ، وصيحات العدو الذى لايعرف كيف يصد الهجوم .

وكان هذا بالضبط ما أرادته القيادة:أن تغرق مواقع خط بارليف المنيع بموجات متتالية من البشر ، وعلى امتداد خط المواجهة كله ،

فى وقت واحد ، حتى لا تتاح فرصة لموقع لمساندة موقع آخر ، وحتى تعجز القيادة الإسرائيلية عن نجدة هذه المواقع كلها . .

كانت القيادة المصرية تعرف أن هناك احتياطيات معدة لنجدة المواقع المختلفة ، وأن هذه المواقع قادرة على التدخل لنجدة بعضها البعض .. ولكن تخطيطنا جعل كل موقع جزيرة معزولة محاطة بأمواج بشرية مصرية . .

وعندما اندفعت هذه الاحتياطات لصد الهجوم المصرى ، كانت الصواريخ المضادة الدبابات فى انتظارها . . وانفجرت عشرات الدبابات والعربات المدرعة الإسرائيلية ، واصطدمت الدوريات الإسرائيلية بالكمائن المصرية المعدة للتعامل معها .

ومع الموجات الثانية عبرت مجموعات من المشاة تحمل صواريخ « ستوريلا » سام ٧ لحماية القوات التى ستنشىء رؤوس الجسور من التدخل الجوى . .

وظهرت بطولات وتضحيات أسطورية لا يتسع لها المجال .

لقد فشل العدو فى مقاومة العبور ، وخاب أمل موشى ديان الذى صرح بأن العملية سوف يقضى عليها فى يوم واحد ، فلقد بنى رأيه على التقديرات التالية :

(ا) ضرورة فشل المصريين فى العبور نتيجة النيران الكاسحة التى يمكن أن تطلق عليهم من حصون خط بارليف وكذلك السوائل الملتهبة التى كان يأمل أن تغطى القناة . وبذلك فليس هناك أى أمل فى وصولنا إلى الشاطىء الشرقى .

(ب) عدم قدرة المهندسين فى إزالة الساتر الترابى وإنشاء الكبارى والمعديات دون تأمين الجانب الشرقى ، وأنه بفرض نجاح المصريين فى اقتحام جزء من القناة فإن المهندسين سوف يحتاجون إلى حوالى ٢٤ ساعة لإنشاء هذه الكبارى، وبالتالى فإن الدبابات والأسلحة الثقيلة لن يتم عبورها قبل حوالى ٤٨ ساعة من بدء الهجوم ، وكان هذا الوقت يكفى لجلب الاحتياطات المدرعة من العمق لتقوم بتصفية القوات التى نجحت فى إنشاء رؤوس الكبارى فى الشرق .

وقد أخطأ ديان الحساب عند تقديره لإمكانياتنا فى العبور وبخاصة فى النقاط الرئيسية التالية .

(١) قدرة المشاة على صد الدبابات والطائرات المغيرة التى تكون على ارتفاع منخفض ، والتشبث بالأرض ولو بدون أسلحة ثقيلة لمدة طويلة .

(٢) كفاءة مهندسينا وقدرتهم فى إقامة الكبارى والمعديات على هذا المانع فى مدة تتراوح بين ٦ و ٩ ساعات .

(٣) التنظيم الجيد للعبور، والذى وصل إلى أن كل ضابط وجندى فى القوات التى تقوم بالعبور أو تقوم بتقديم الدعم له ، كان يعلم جيداً دوره بالتفصيل ، والوقت الذى ينفذ فيه هذا الدور بالدقيقة ، إلى الحد الذى جعل عملية العبور تعتبر سيمفونية رائعة يشترك فيها عشرات الألوف من البشر فى وقت واحد .

(٤) المفاجأة التى حققتها قواتنا والتى ظهرت نتيجتها بوضوح فى الأيام الأولى المعركة ، حيث كانت جميع تصرفات العدو تتسم بعدم التنسيق والارتجال لمدة يومين على الأقل .

(٥) العقيدة والإصرار الذى كان يقاتل بها جنودنا البواسل ، فلقد كان كل ضابط وجندى يعلم جيداً أنه يدافع عن شرف مصر وشرف العروبة الذى لطخته بالتراب أحداث ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ظلماً ، وكان يحاول أن يسترد أرضه ، ويستعيد كرامته وعزته ، بينما كان الجندى الإسرائيلى يقاتل دون هدف واضح مقنع . هل وضع ديان فى حسابه الأثر المعنوى الذى أحدثه الهتاف العظيم « الله أكبر » الذى ردده الجنود وهم يعبرون القناة ؟ لا أعتقد أنه أدخل ذلك فى حساباته.

شهادة من المعهد البريطانى للجندى المصرى

أصدر المعهد البريطانى لدراسات الحروب تقريراً ذكر فيه أن عبور الجيش المصرى لقناة السويس الذى تمّ فى السادس من أكتوبر كان يصعب تحقيقه بهذا النجاح حتى لو كان الأمر مجرد عملية تدريب بدون عدو مواجه ، وقبل أن نورد فقرة هذا التقرير التى تحمل هذا المعنى نذكر أن الجندى الذى عبر القناة فى سنة ١٩٧٣ هو نفس الجندى الذى هزم سنة ١٩٦٧ أو أخوه أو ابن عمه ، وكل ما تغير فى الأمر هو ظروف مصر وقيادة مصر ، ونص الفقرة التى أشرنا إليها هو :

« كل التقارير تشير إلى أن المصريين هاجموا بشجاعة بالغة وإصرار ، ودافعوا عندما كان عليهم أن يفعلوا ذلك بعزيمة ونجاح ، ولقد صمد مشاتهم بكل تأكيد أمام هجوم كبير بالدبابات ، وهى من أكثر الأشياء إثارة للرعب عند مواجهتها .

ولسوف يوافق كل المحترفين على أن عبور القناة قد تم بصورة رائعة غير عادية . . . . ولو افترضنا أن المرء كان مكلفاً بأية

تدريبات فى أى ظرف آخر دون أن يكون هناك أى عدو ، وكان عليه أن يقوم بكل أعمال تجميع القوات الهندسية والقيام بواجبات أركان الحرب ، والانطلاق بها دون أية غلطة ، لكان الأمر من الصعوبة بمكان ، وكان إنجازه بلا خطأ أمراً مرضياً جداً مع عدم وجود عدو .
ولم يكن هناك من يصدق أن المصريين كانوا قادرين على ذلك منذ عشر سنوات ، ولكنهم فعلوه .. لقد دفعوا بقوات هجومهم عبر القناة ، وحققوا النتائج التى تعرفونها .. لقد استيقظت روح القتال بكل تأكيد لدى المصريين » .

مزاعم باطلة عن أسباب النصر

لقد شرحنا من قبل الأسباب الحقيقية التى قادت إلى النصر ، والتى بدأت من إطلاق الحريات ، ثم أزالت الصدع من الجبهة الداخلية ، وأقامت علاقات طيبة بيننا وبين الدول العربية ، وبذلت أقصى الجهد فى الإعداد الحقيقى للجيش ، فأزالت القيادات العابثة المتسيبة ، ووضعت القيادات السليمة المشهود لها بالكفاءة . . . . .

ولكن عندما حققت جولةُ الجيش انتصاراتها الباهرة فى العاشر من رمضان (٦ أكتوبر ٧٣) بفضل ذلك الجهد الأدبى والمادى ، أطلت الأشباح من مكامنها تنسب هذه الانتصارات إلى عبد الناصر ،

استمع إلى ابن جمال عبد الناصر يقول لمندوب روز اليوسف فى العدد الصادر فى ١٩٧٥/١/١٣ : ومنذ ١١ يونيو سنة ١٩٦٧ أعطى عبد الناصر لشعبه كل قوته وصحته وعمره ، وبدأ مرحلة بناء القوات المسلحة حتى تحقق لنا النصر فى أكتوبر ١٩٧٣ .

ويردد محمد حسنين هيكل هذا المعنى فيقول عن جمال عبد الناصر إنه بنى حائط الصواريخ الذى كان نقطة الارتكاز فى عملية العبور فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ [1] .

ونحن نسائل هذه الأصوات : أين جهود عبدالناصر فى حرب ١٩٥٦ ؟ وفى حرب اليمن ؟ وفى حرب ١٩٦٧ ؟ ولماذا كانت الهزائم قاصمة وسريعة فى كل هذه الحروب ؟ وأين الاستعدادات العسكرية الهائلة والأسلحة الجبارة التى كانت معنا وغنمتها منا إسرائيل ، وكانت فى بعض الأحيان تأخذها بصناديقها دون أن تفتح ، إن المسألة لم تكن سلاحاً ولا أجهزة ولكن كانت فكراً ورجالا ، وإن حائط الصواريخ بدون رجال كان سيمثل صنماً يقفز عليه المعتدون ، فليكف الناس عن الباطل ولترتفع كلمة الحق لوجه الله ووجه الوطن .

---

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٧١ .

نتائج معارك أكتوبر

حدد الرئيس أنور السادات نتائج معارك أكتوبر بقوله فى المؤتمر القومى يوم ١٩٧٥/٧/٢٢ : إن من نتائج هذه المعارك انهيار نظرية الأمن الإسرائيلى ، وتصدير أزمة الشك والتمزق وعدم الثقة من العالم العربى إلى المجتمع الإسرائيلى ، واقتناع العالم بأن إسرائيل لم تعد سلاح الإرهاب الذى يستخدم ضد العرب ويحمى المصالح الخارجية . . وأن هذه المصالح لا يحميها إلا التفاهم مع العرب . . ثم ظهور القوة البترولية والمالية للعالم العربى ، وإقبال كل القوى العالمية على الحوار معنا ، وترتيب مستقبلها فى التفاهم مع أصحاب الأرض .

ويقول الزعيم الحبيب بورقيبة : إن حرب أكتوبر مكنتنا من أن نرفع رءوسنا بعد هزيمة ١٩٦٧ المرة ، ولولا معونة أمريكا لإسرائيل فى هذه الحرب لمنيت إسرائيل بهزيمة ساحقة [١] .

ويقول الرئيس جعفر النميرى : إن الواقع العربى محكوم وسيظل محكوماً لفترة طويلة بالنتائج الباهرة التى حققتها حرب أكتوبر ، وإن حرب أكتوبر طحنت الكيان الإسرائيلى ومزقته ، وأفقدت إسرائيل قوى الدعم الخارجى ، وحولت الرأى العام العالمى لصالح العرب [٢] .

(١) مجلة الفجر القطرية الصادرة فى ١٩٧٥/٦/٢١ .
(٢) حديث نصر فى الأخبار أول يوليو سنة ١٩٧٥ .

وأجاب المرحوم المشير أحمد إسماعيل على سؤال للأستاذ محمد حسنين هيكل عن نتائج ٦ أكتوبر الإيجابية . قال :

هناك نتائج محققة ، وهذه النتائج يمكن تقسيمها إلى مجموعات مختلفة :

هناك مجموعة من النتائج العسكرية هي كما يلي :

١ - لقد زالت خرافة الجندي الإسرائيلي ، بعد أن كادت تثبت في بعض الأذهان بطريقة خطيرة ، لقد وجدناه جنديا عاديا ، دُرب تدريبا حسنا عزّز من قدرته القتالية ، وهذا هو كل شيء . أي أنه في مقدور أي جندي آخر غيره درب تدريبا حسنا يعزز قدرته القتالية أن يتصدى له وأن يهزمه .

٢ — لقد ثبت لي أن الجندي المصري من أشجع الجنود وأصلبهم في العالم ، ويكفيه صبره وبسالته ، فلقد مرت علينا أيام كان لنا فيها جنود يعيشون على نصف التعيين المقرر لغذائهم ، ولكن استعدادهم للقتال لم يتأثر . وهناك ضمانات يجب أن نعطيها للجندي المصري لنأخذ منه أحسن ما عنده : تدريب جيد ، وسلاح يثق فيه ، وضابط يشعر به ، هذا هو كل شيء .

٣ — إن أي عمل يحسن التخطيط له علميا ، ويحسن التدريب عليه عمليا قابل للنجاح بنسبة مائة في المائة .

٤ — هناك دروس أخرى مستفادة ، فى نواح فنية ، ولا أظنها مما يهم الناس بصفة عامة ، وإنما هى تهم القوات المسلحة بصفة خاصة .

ويواصل المرحوم المشير أحمد إسماعيل قائلا :

أنتقل بعد ذلك إلى مجموعة أخرى من النتائج السياسية والاستراتيجية، وأعدها كما يلى :

١ — لقد كسرنا الجمود الذى كان يحيط بأزمة الشرق الأوسط .

٢ — لقد غيرنا صورتنا أمام العالم كله ، فبعد أن كان يظننا جثة هامدة ، رآنا قادرين على الحركة ، قادرين على القتال ، قادرين على الانتصار ، ولم تتغير صورة مصر وحدها أمام العالم ، ولكن تغيرت صورة الأمة العربية كلها .

٣ — لقد أثبتنا لإسرائيل أن منطقها فى الحدود الآمنة منطق مضروب : لم تكن قناة السويس مانعاً كافياً أمام إرادة مصممة ، ولم يكن خط بارليف عائقاً كافياً أمام استعدادنا للتضحية ، وإذن فإن على إسرائيل أن تبحث عن منطق آخر فى الأمن ، وفوق ذلك ، فإن إسرائيل فى أى منطق الآن تحاول العثور عليه ، لا بد لها أن تعرف أن أمامها فى مصر عدواً يتحتم عليها أن تحسب حسابه ، بل أقول وعليها أن ترهبه .

٤ — إن الحرب أثبتت بطريقة قاطعة أن شرم الشيخ ليست لها الأهمية الكبرى التى كانت إسرائيل تظنها وتبنى عليها بقاءها فى سيناء، إن شرم الشيخ لم تعد مفتاح إيلات ، وإنما نزل هذا المفتاح إلى أقصى الجنوب عندما ظهرت استراتيجية عربية للبحر الأحمر قررنا بمقتضاها قفل باب المندب .

ويلخص اللواء سعد مأمون مساعد وزير الحربية ما حققته حرب أكتوبر فيما يلى :[1]

إن القوات المصرية ، كما قال الرئيس أنور السادات ، قامت بمعجزة على أى مقياس عسكرى ، وأن التاريخ العسكرى سوف يتوقف طويلا أمام عملية السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، ولقد أثبتت هذه الحرب بالدليل القاطع خطأ نظرية الحدود الآمنة المستندة إلى أقوى التجهيزات العسكرية والموانع الطبيعية ، واضطر وزير الجيش الأمريكى يوم ١٨ أكتوبر إلى الاعتراف بأن عبور القوات المصرية لقناة السويس هو علامة بارزة فى الحرب الحديثة سوف تغير الاستراتيجية العسكرية ، والواقع أنه لأول مرة فى التاريخ العسكرى الحديث تتمكن قوة عسكرية من إنجاز عملية عبور ضخمة كهذه فى مواجهة عدو مزود بطيران حديث دون أن تفقد القوات التى عبرت أية طائرة من طائراتها .

---

(١) جريدة الأهرام ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٣.

العرب والمعركة

وهذا الانتصار الكاسح الذى ظهر منذ اللحظات الأولى للزحف حقق نتائج سريعة كانت بدورها شديدة التأثير فى نجاح المعركة ، فالإخوة العرب هزهم هذا الانتصار وملأهم سروراً ، وأزال عن نفوسهم كابوساً كان ثقيلا ومريراً ، فراحوا يتغنون بالمنتصرين ويشجعونهم ، وأخذت الصحف العربية تتحدث عن الانتصارات قائلة : تخطى جيشنا ، واستطاع رجالنا ، وحقق أبطالنا . . . . وأمثال هذه العبارات ، فقد اعتبر الجميع أن جيش مصر جيشهم وأبطال مصر أبطالهم ، وهذه حقيقة نقررها ونفخر بها ، وأسرعت وحدات من الجيوش العربية إلى أمكنتها فى ساحات القتال ، وكان ذلك شرفاً حرص الجميع على أن ينالوا منه نصيبا ، وفى وسط أهازيج النصر فتح بعض العرب خزائنهم ليقدموا للجيش المصرى والسورى ما يحتاجانه من إمدادات وأسلحة ومساعدات .

ثم خطا العرب خطوة أخرى كانت عظيمة النتائج ، فقد قرروا تخفيض ضخ البترول بنسب معينة ، ومنع تصديره تماماً إلى الولايات المتحدة وهولندا ، فتوقفت مصانع ، وظهرت أزمة الطاقة كأكبر معلم من معالم سنة ١٩٧٣ وكان السادس من أكتوبر هو صاحب

الفضل فى هذا التجمع العربى الهائل ، وبدون السادس من أكتوبر كان تحقيق هذا التضامن يحتاج لمدة قرون[1] .

أمريكا والمعركة

واضطربت الولايات المتحدة لما أحرزته مصر من انتصاراتها ، ورأت أن هزيمة إسرائيل هزيمة لأسلحتها ، كما صرح بذلك وزير خارجية الولايات المتحدة ، اندفعت لإسرائيل بأحدث الأسلحة ، وأمدتها إمدادات مجنونة مسعورة حتى تحفظ وجهها أمام العالم ، ويقول الرئيس أنور السادات : إنه أصبح واضحاً أن أمريكا طرف أساسى فى المعركة ، إذ تدخلت تدخلا كاملا ، وأقامت جسراً جوياً هائلا إلى سيناء ، فأصبح مطار العريش يستقبل الطائرات الضخمة التى تبلغ سعة كل منها ١٢٠ طناً ، وكانت الدبابات تنزل فى المطار وهى جاهزة ببنزينها وطاقمها كله ، وتتجه مباشرة إلى الدفرسوار[2] .

ويقول فى تصريح آخر إن هناك أموراً لم تعلن ، وأسراراً لم تكشف بعد عن حرب أكتوبر ، وهى مذهلة يشيب لها شعر الوليد ، وستعلن فى الوقت المناسب ، فلقد كان هدف أمريكا القضاء على قواته

---

(١) من حديث الرئيس أنور السادات نشر فى ٣ / ١ / ١٩٧٥

(٢) الأهرام فى ٣ / ١ / ١٩٧٥

مصر ، وذلك بإبادة جماعية مدروسة ، وذلك دون سواه هو الذى جعلنى أقبل وقف إطلاق النار[1] .

وتسبب عن هذه الإمدادات الهائلة بالمال والأسلحة والخبراء وطائراته الاستطلاع الحديثة (س ٧١) أن استطاع جيش إسرائيل أن يحدث ثغرة يدخل بها غرب القناة ، ولكن ذلك حدث بعد صراع مرير وتضحيات هائلة من الجانبين ، ولكن هذه الثغرة لم تكن سوى عمل سياسى لأنها من الناحية العسكرية أوقعت الجنود الإسرائيليين فى الفخ ، وأحاط بهم الجيش المصرى كحائط من فولاذ ، وأخذ يصطادهم بشراسة ، ولاشك أن كل مصرى يفخر بالعهد الجديد عندما يقارن الجهود الجبارة التى واجهنا بها جيش إسرائيل غرب القناة بالاستسلام الذى انتابنا عقب هزيمة ١٩٦٧ والذى عبر عنه قائد ذلك العهد بأنه لم يكن هناك جندى واحد بين الجيش الإسرائيلى الزاحف وبين القاهرة .

---

(١) الأهرام فى ١٩٧٥/١/١٠

الثغرة فخ حرص اليهود على الخلاص منه

ونعود إلى الثغرة فنقرر أنها لم تكن سوى فخ وقع فيه الإسرائيليون وأحاط بهم جنودنا من كل اتجاه، مستعدين للانقضاض عليهم مهما كلفهم ذلك، وقد أدرك ساسة إسرائيل هذا الوضع فتلمسوا الوسيلة لنجاح المفاوضات لفك الارتباط لينسحبوا من هذا الفخ المحكم كما سنرى فيما بعد.

ولو تدارسنا توقف المفاوضات التي قام بها الدكتور كيسنجر في مارس سنة ١٩٧٥ لفك ارتباط جديد، لأدركنا أن سبب تشدد إسرائيل هو إحساسهم بشيء من الأمن في منطقة الممرات، ولو كانوا يعانون نفس الخطر الذي رأوه في الثغرة لنجحت المفاوضات، ولعل ذلك أبلغ رد على جبهة الرفض التي تحاول أن تقلل من قيمة ما حققه جيشنا من نجاح، وتعظم شأن هذه الثغرة التي لو كانت عملا مفيداً من الناحية العسكرية لزاد بها صلف إسرائيل، ولم يختف هذا الصلف إلا لأن إسرائيل أدركت أن هذه الثغرة يمكن أن يلاقي فيها جنودهم نهايتهم الأليمة.

مجلس الأمن والمعركة

وأصدر مجلس الأمن قراره بوقف القتال على أن ينفذ قرار مجلس الأمن الصادر فى نوفمبر سنة ١٩٦٧ والذى يقضى بجلاء إسرائيل عن كل الأرض التى احتلتها فى معارك يونيو المشئومة ، وقبلت كل الأطراف هذا القرار ، وكتب الرئيس أنور السادات للرئيس حافظ الأسد كتاباً تاريخياً فى ١٩ أكتوبر يوضح فيه سبب قبول مصر لهذا القرار ، وفيما يلى نص هذا الخطاب :

أخى الرئيس حافظ الأسد :

« لقد حاربنا إسرائيل إلى اليوم الخامس عشر ، وفى الأيام الأربعة الأولى كانت إسرائيل وحدها ، فكشفنا موقفها فى الجبهتين المصرية والسورية ، وسقط لهم باعترافهم ٨٠٠ دبابة على الجبهتين وأكثر من مائتى طائرة ، أما فى الأيام العشرة الأخيرة ، فإننى على الجبهة المصرية أحارب أمريكا بأحدث ما لديها من أسلحة .

« إننى ببساطة لا أستطيع أن أحارب أمريكا أوأن أتحمل المسئولية التاريخية لتدمير قواتنا المسلحة مرة أخرى ، لذلك فإننى قد أخطرت الاتحاد السوفيتى بأننى أقبل وقف إطلاق النار على الحدود الحالية بالشروط التالية :

١ — ضمان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة بانسحاب إسرائيل كما عرض الاتحاد السوفيتى .

٢ — بدء مؤتمر سلام فى الأمم المتحدة للاتفاق على تسوية شاملة كما عرض الاتحاد السوفيتى[1] .

« إن قلبى ليقطر دماً ، وأنا أخطرك بهذا ، ولكننى أحس أن مسئوليتى تحتم على اتخاذ هذا القرار ، ولسوف أواجه شعبنا وأمتنا فى الوقت المناسب لكى يحاسبنى الشعب » .

مع أطيب تمنياتى .

أنور السادات

ويقول الرئيس أنور السادات : إننى عندما وافقت على وقف إطلاق النار آنذاك ، ثم وافقت بعد ذلك على فك الارتباط ، لم يكن هذا ولا ذاك مع إسرائيل ، وإنما كان مع أمريكا[2] .

وتوقف القتال بعد محاولات غدر قامت بها إسرائيل ، ولكن المصريين لم يلقوا السلاح ، فراحوا يهاجمون الأعداء كل يوم ، وكل

---

(١) كوسيجين كان قد زار السادات فى أثناء المعركة ، وألح عليه بوقف إطلاق النار فرفض .

(٢) الأهرام فى ١٩٧٥/١/٣

دقيقة ، حتى جعلوا مقامهم فى هذه الثغرة محفوفاً بالمخاطر ، وزرعت إسرائيل سبعمائة وخمسين ألفاً من الألغام لحماية جنودها ولـكن ذلك لم يُجْدِ فتيلا ، وصدرت القرارات المصرية على أن كل فرقة يتحتم أن تتقدم كل يوم حوالى مائة متر وألا تترك العدو ينعم لحظة بهدوء .

وظهرت بطولات أسطورية فى مواقع كبريت ، والجزيرة الخضراء ، وفى الجيش الثالث ، وهذه البطولات أعادت مجد المقاتل المصرى وغسلت العار عن أخيه وابن عمه الذى قيل إنه انهزم سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ ، ولـكن الهزيمة كانت من القادة وللقادة ، أما الجيش فمن الظلم أن نصفه بأنه انهزم لأنه فى الحقيقة لم يخض المعركة وإنما أمر بالانسحاب ، وكان هذا الأمر بمثابة القضاء عليه بالهزيمة .

بعد المعركة

ضعفت ثقة أمريكا فى كلب الحراسة ، وهزّ الانتصار العربى والوحدة العربية دول العالم ، فراح الكل يمد يده للتعاون مع العرب ، وأخذت أمريكا دور القيادة فى الوصول إلى حل ، وتم الاتفاق على الفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية بأن تنسحب إسرائيل إلى ما يقرب من منطقة الممرات فى سيناء ، وتم ذلك فى الخامس من مارس سنة ١٩٧٤ ، وعادت القناة لمصر مع حطام خط بارليف ، ومع حطام عدد ضخم من الطائرات والدبابات ومع آلاف الضحايا من اليهود .

وكذلك تم الاتفاق على الفصل بين القوات السورية والإسرائيلية فى الجولان فى أوائل يونيو .

وفى كلمة سريعة : لقد تغيرت صفحة العالم ، وابتسم الفجر الجديد على أخوّة عربية طيبة ، وامتدت الابتسامة إلى العالم الإسلامى فعُقِد مؤتمر لاهور فى مارس سنة ١٩٧٤ ، واتخذ المجتمعون قراراً بضرورة إكمال الانسحاب وتحرير القدس ، وبقائها عربية ، وبحقوق شعب فلسطين .

والباخرة تسير باسم الله مجراها ومرساها .

المعركة والمستقبل

من الحق أن نقرر أنه من الغفلة أن نعتقد أن انتصارات أكتوبر قد وضعت نهاية للصراع بين العرب وإسرائيل ، فهزيمة إسرائيل فى الأيام الأولى من المعركة ، وضحايا إسرائيل من البشر لم تمر بسهولة ، فقد سقطت وزارة وقامت وزارة ، وأُلِّفت بإسرائيل لجان للتحقيق لمعرفة أسباب الهزيمة ، وصرخ أهل القتلى بأصوات عالية ، وانعكس كل هذا على زعماء الصهيونية فى العالم وبخاصة فى أمريكا ، فعُزِل نيكسون لأنه بدأ يعرف الحق ويَعِدُ ــ مجرد وعد ــ أن يعمل لتحقيقه ، وقُدمت الإعانات المسعورة وأحدث الأسلحة لإسرائيل ، وبدأ العالم يتكهن بحرب جديدة تحاول فيها إسرائيل أن تثأر لضحاياها ، وتسترد كرامتها التى امتُهنت ، وتقلل من أمجاد العرب التى أخذت ترتفع خفاقة شامخة .

وعلى هذا فالمعركة لا تزال دائرة ، والجهد الذى يجب أن يبذل لحماية النصر ينبغى أن يفوق الجهد الذى يُبذل للحصول على هذا النصر ، فمن الشائع أن كثيرين يستطيعون أن يصلوا إلى المجد ، ولكن قلة قليلة تستطيع أن تحافظ على المجد الذى حققته .

ومن أجل هذا فإننا فى ختام هذا البحث عن الماضى ، نتطلع إلى

المستقبل ، ونسهم مع المفكرين فى رسم خططه ، واعتقادى أن عبء الإعداد للمستقبل بالنسبة للمصريين وبالنسبة للعرب يمكن أن يُرتسم فى الخطوط العريضة التالية :

مصر ومستقبل الصراع ضد إسرائيل

إن جند مصر يقفون بثقة وإيمان فى الميدان ، ليذودوا عن الوطن العربى بأرقى درجات البسالة والاستعداد للتضحية ، وليحافظوا على النصر الذى حققوه ، وليضيفوا إليه جديداً عند ما يجدُّ الجد .

ويقف الشعب المصرى من خلفهم كتلة قوية كادحة ، تقدم لهم السلاح والعون ، ليظل مع الجند لواء النصر .

ولا شك أن هنالك شائعات تنبثق من حين لآخر باحتمال قيام صلح منفرد بين مصر وإسرائيل ، وتلك فى الحقيقة أمنية إسرائيلية تظهر بوسائل متعددة ، وقد سمعتها شخصياً كأمل كبير شرحه مفكر يهودى عالمى ، ولكن مصر ترى أن هذه الشائعات مجرد خرافة ، فليس هناك مصرى يقبل أن يدير ظهره لسوريا الحبيبة أو إلى الإخوة العرب ، أو يكف يده عن عونهم ، ومن جهة أخرى فنحن نحس أن من يؤثر السلامة الآن سيأكله الوحش يوماً ويصرخ : إنما أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض .

بيد أن هناك نقاطاً ترتبط بمستقبل مصر فى الكفاح ينبغى أن نعطيها شيئاً من التفصيل .

١ — فى مطلع عام ١٩٧٥ هبت مظاهرات بالقاهرة ، ويقرر الفكر العلمى حق الطوائف فى المظاهرات لإعلان رأى وشرحه والدعاية له ، ولكن إذا تحولت المظاهرات إلى تدمير ، وإذا حاول المتظاهرون أن يرغموا سواهم على السير معهم ، فتلك هى الفوضى والخيانة الوطنية ولا بد من إيقافها بكل حزم حماية للشعب وممتلكاته وانتصاراته .

وربما انضم للمتظاهرين جماعة من الذين يعانون مستوى الغلاء وشظف العيش ، ومن الواضح أن الغلاء يطحن الناس طحنا ، وأن هذا الجيل احتمل من المشاق الاقتصادية أكثر من طاقة البشر ، ولكنا إحقاقا للحق نقرر أن العهد الحالى ليس هو المسئول عن هذا العناء ، فلقد ورث هذا العهد تركة مثقلة ، ولنورد هنا بعض أرقام عن الماضى

٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ٦ تكاليف شراء أسلحة حتى سنة ١٩٦٧ .

٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ « « « بعد سنة ١٩٦٧

لتعويض الأسلحة التى ضاعت فى الحرب الخاسرة .

. . . . أرقام لا حدود لها أُنفقت فى الخارج لمساعدة حكومات متداعية أو ضد حكومات معادية ، وعلى هذا فنحن نهيب بالعهد الحالى ألا يذكر أنه المسئول عن الماضى ، ونهيب به كذلك أن يقلل من عناء الشعب ، فالجائع لا يفكر ولكنه يثور ويضطرب .

٢ — هناك تعبير ذائع فى بعض الأوساط فى الخارج ، ولدى بعض الناس فى مصر ولكنْ لا يُعْرَف له مدلول واضح ، وذلك التعبير هو « الناصرية » ونحن فى التفكير الإسلامى لا نحب أن نسمى الإسلام باسم سيدنا رسول الله فلا نقول « الدين المحمدى » وانتقدنا بروفسور « جب » عندما سمى كتابه عن الإسلام Muhammadanism ومن أجل هذا نسأل : ما الناصرية ؟ وهل تختلف أو تتفق مع مبادىء الثورة ومبادىء العرب ؟ وقد كفانا الرئيس أنور السادات مئونة التفكير فى هذا الموضوع عندما قال : هناك مبادىء ٢٣ يوليو وليس هناك ناصرية [1] . . .

ولكن مع هذا الاتجاه القويم نرى مؤتمرات تعقد فى القاهرة

---

(١) الأهرام ١٩/١/١٩٧٥ .

عن الناصرية ، وذلك لا يتمشى مع ما قاله أنور السادات وما يدين به الشعب .

وقد خلف العهد الماضى فى حياتنا جراحاً عميقة ، ولا نحب أن تعيش فى حياتنا الحاضرة كلمات كالناصرية توحى بأنها تحمل اتجاهات الماضى المرير ، تلك الاتجاهات التى قادتنا إلى الهزائم والآلام .

٣ — إن الدين الإسلامى أساس مهم من أسس نهضتنا ، وهو عميق الغور فى تكوين أخلاقنا ، والهتاف العظيم « الله أكبر » كان مطلعا قوياً افتتح به جنودنا معركة النصر ، ولكن الأزهر الذى حمل راية الإسلام أكثر من ألف عام مسه الضر فى العهد الماضى باسم « التطوير » الذى يشبه سما وضع فى عسل ، وقد شرحت بإفاضة مشكلات تطوير الأزهر فى كتابى « رحلة حياة » وأنا هنا أدعو للعودة لدراسة هذا الموضوع ، كما أدعو لإعداد الشعب إعداداً روحيا فى كل الكليات والمعاهد ، فذلك خير سلاح نواجه به مستقبلنا العسكرى والاجتماعى .

٤ — يقولون إن مصر وحدها بين بلاد العالم هى التى تدفع لرئيسين مرتبات ومخصصات ، فهل يليق هذا الأمر مع ما نعانى من أزمات اقتصادية ؟ وإذا جاز هذا عندما كانت أعباء أسرة

جمال عبد الناصر ثقيلة ، فهل يستمر بعد أن زالت هذه الأعباء بتخرج أكثر أولاده وحصولهم على وظائف عالية المستوى والمرتب ؟

على أن هذه النقطة تحتاج إلى مزيد من الإيضاح ، فلقد ذكرتها فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وأنا أعرف أن قراء الكتب قليلون فهم نوع من الخاصة ومحبى الاطلاع ، ولكن هذه الفكرة تكررت فى مقال الصحفى الفاضل الأستاذ إبراهيم سعدة الذى نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٨ / ٣ / ٧٥ ، وتوقعتُ بعد ذلك أن يتحرك المسئولون عن المال العام وعن عرق الفقير ، ولكن أحداً لم يستجب، ومن هنا فأنا أضع أمام القراء كلمات الأستاذ إبراهيم سعدة ، لعل إجماع القول وكثرة ترداد كلمة الحق تدعو إلى إنصاف الشعب من تصرف قام به من يسمون « مراكز القوى » منتهزين فرصة تهييج العواطف على إثر وفاة جمال عبد الناصر . وفيما يلى سطور من كلمة الصحفى الفاضل :

المال لمن لا يستحقه

لو كنت أحد نواب مجلس الشعب ، لطالبت بإعادة النظر فى المخصصات التى يحصل عليها البعض بدون وجه حق .

ولن يكون هذا بدعاً فى تاريخ الحياة النيابية فى العالم ؛ فمجلس

العموم البريطانى شهد هذه الأيام ، حملة من هذا النوع ، تزعمها النائب العمالى ويلى هاملتون . ويطالب بمنع التصديق على منح الأسرة المالكة البريطانية علاوة ، تساعدها على مواجهة أعباء الحياة وارتفاع الأسعار .

ولحسن الحظ أن مصر سبقت بريطانيا فى إنهاء النظام الملكى وإعلان النظام الجمهورى ، ولكن من سوء حظ مصر أن بريطانيا سبقتها فى المطالبة بوضع نهاية لهذه المخصصات الخيالية التى يتقاضاها من هم ليسوا فى حاجة إليها !

وهناك الذى انتقل إلى رحمة الله ، بعد حياة حافلة ، وأسرفت الدولة فى منح أسرته « معاشا استثنائيا » ، كما تقرر أن يصرف لأسرة المرحوم كافة المخصصات التى كان رب الأسرة يتمتع بها فى حياته . .

والغريب أن الذين يحصلون على تلك المخصصات ، ليسوا حقيقة فى حاجة إليها . أو على الأقل لايستحقونها كما ينص القانون .

والأغرب من هذا كله أن أولاد وبنات المرحوم استمروا فى صرف المخصصات التى تقررت لهم ، بعد وفاة والدهم ، رغم أن الأولاد كبروا ، وتخرجوا فى الجامعة ، وحصلوا على وظائف مرموقة ومرتبات مغرية ، ورغم أن البنات كبرن ، وتخرجن فى الجامعة ، وتزوجن ، ويعشن فى فيلات

خاصة بهن. ويعملن فى وظائف مريحة ومجزية. فما الداعى إذن لاستمرار صرف هذه المخصصات من خزانة الدولة ، التى يمولها المواطن العادى من عرقه وقوته ؟

هذه لمحات سريعة نرجو أن تكون موضع العناية والاهتمام .

العرب ومستقبل الصراع ضد إسرائيل

فيما يتعلق بالعرب ومكانهم فى صراع المستقبل ضد إسرائيل يمكننا أن نورد بعض الحقائق التى نعتقد أن كل المفكرين يقبلونها دون مراء .

١ — إن أطماع إسرائيل والاستعمار لا تقف عند حد ، وإن البترول العربى يشد ببريقه هذه الأطماع ، وقد سبق لاسرائيل أن هددت بأن ذراعها طويلة تستطيع بها أن تضرب البعيد كما تضرب القريب ، وقال شارون فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٣ « لقد غدت إسرائيل من القوة لدرجة أن باستطاعتها أن تغزو المنطقة العربية كلها من الخرطوم إلى بغداد إلى الجزائر ، فى غضون أسبوع واحد ، إذا دعت الضرورة لذلك » ثم إن أمريكا التى تسلح إسرائيل ، وتمدها للعدوان تتجه أطماعها إلى منابع البترول أكثر من اتجاهها إلى سوريا أو الأردن . . . .

٢ — إن أكثر الدول المنتجة للبترول أقل عددا وعدة من أن تقف أمام أطماع إسرائيل وأطماع الاستعمار ، ولن يكون من الممكن أن تحاول ذلك .

٣ — إن دول المواجهة لا تدافع عن نفسها فحسب ، وإنما تدافع عن الجبهة العربية ، وإذا ضعفت دول المواجهة عن ذلك امتدت المعركة إلى نطاق جديد ، وإن الصراع الذى يدور الآن ضد دول المواجهة ليس موجها لما فى ذاتها ، وإنما هو فى الحق محاولة لإضعاف الجبهة العربية ، وإذا — لا قدر الله — ضعفت جبهة القتال كانت السيطرة على الدول المنتجة للبترول سهلة ويسيرة ، وبلغة أخرى أكثر صراحة تقول أن الجنود الرابضين على خط النار يدافعون عن الثراء العربى والبترول العربى ، وينبغى ألا نصل إلى الدرجة التى عبر عنها العربى القديم بقوله : واحد يمسك بقرنى البقرة ليتال آخر حليبها ! !

٤ — إن دول المواجهة خسرت فى وقوفها أمام إسرائيل دماء زكية كثيرة ، وخسرت آلاف الملايين من الجنيهات فى حال الحرب أو الاستعداد لها . ويقدر الباحثون ما خسرته مصر وحدها فى حروبها مع إسرائيل بآلاف الملايين من الجنيهات .

٥ — إن حرب أكتوبر سببت ارتفاعا باهظاً فى أسعار البترول وبالتالى فى مزيد من الأرباح للدول العربية المنتجة للبترول ، وعانى الشعب المصرى من ارتفاع أسعار السلع الذى تسبب عن ارتفاع أسعار البترول .

٦ — نحن نعطى من الدماء ومن القوت ، وينتفع بجهدنا كل عربى حتى ذلك الذى يعيش فى الترف والثراء ولديه فائض لا تحصيه الأرقام

٧ — صحيح أن العرب قدموا دما أو قدموا منحاً ، ولكن المسألة كما نراها ليست كذلك ، إنها التزام تحمل كل دولة نصيبها فى تكاليفه بنسبة دخلها ، وفى ضحاياه بنسبة عدد سكانها ، ولما أن تشترك فى إدارة هذه المعارك حتى النهاية .

هذه صرخة لا أقول إنها نابعة من فكرى بل إنها تتردد هنا وهناك ، وأرجو أن تجد أذناً صاغية وعقلا واعياً ، وليتذكر الجميع أن المعركة لا تزال فى عنفوانها ، وأن أصابع الصهيونية التى عزلت نيكسون وقصرت خطا أمريكا نحو السلام تحتاج منا إلى تعاون منظم فى مختلف الميادين الفكرية والعسكرية والاقتصادية والسياسية ، ومثل هذا التعاون يضمن النصر الذى نطمع فيه .

وبالله التوفيق

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
مقدمة الطبعة الأولى	١٤ — ١٦
مقدمة الطبعة الثانية وتشمل دراسات عن :	
عنوان الكتاب	١٨
أهمية دراسة الحروب	١٩
الأسباب الحقيقية لأزمتنا الاقتصادية	٢١
مصادر هذا الكتاب	٢٢
حقيقة الثورات وتأثير ثورة ٢٣ يوليو على المؤرخ المصرى	٢٦ — ٣٢

حرب ١٩٦٧

أحداثها — نتائج الهزيمة فيها — الأسباب الحقيقية للهزيمة

يوميات حرب يونيو وتعليقات عليها	٣٦
المؤتمر الصحفى الذى عقده عبد الناصر فى ٢٨ مايو	٤٠
مشاعر الناس حتى الرابع من يونيو	٤٤
الخامس الحزين والمعركة الخاسرة	٤٦
صدى الهزيمة	٤٩
جماهير ٩ و١٠ يوليو	٥٠

الموضوع	الصفحة
مؤتمر القمة بالخرطوم	٥٣
خسارة مصر الفادحة فى هذه الحرب	٥٥

نتائج هزيمة ١٩٦٧

النتائج العسكرية	٥٧
الأضرار الأدبية	٥٩
الأضرار الاقتصادية	٦٠
الأضرار النفسية والاجتماعية	٦١

الأسباب الحقيقية للهزيمة

١ — أسباب ترتبط بالجبهة الداخلية وتصدعها

الفزع والهلع :	٦٤
ملك التعذيب	٦٦
تعذيب المفكرين والكتاب من الظلم	٦٩
محكمة الدجوى وكيف شكلت بقرار مزور	٧١
الاضطهادات والسجون	٧٨
الأبرياء فى مستشفى الأمراض العقلية	٧٩
قصة الشيخ عاشور	٨٠

الموضوع | الصفحة

غيبة العدالة :

مأساة كشيش كنموذج من الظلم ٨٢

رأى محافظ المنوفية فى مأساة كمشيش ٨٣

حيثيات الحكم بالبراءة بعد الإدانة ٨٨

مذبحة القضاء ٩٥

الثقة لا الكفاءة ٩٦

صورة لنائب الرئيس فى ذلك العهد ٩٩

المشير والذهب ١٠٠

الحراسة... ... ... ١٠٦

النفاق ١١٣

الإنسان بضاعة فى طرد ١١٨

٢ — وسائل أضعفت الجيش

العلاقة بين عبد الناصر والمشير ١٢٠

مواهب المشير كما يراها هيكل ١٢٢

كبار ضباط الجيش فى الوظائف المدنية ١٢٣

إبعاد الأكفاء من الضباط عن الجيش... ... ... ١٢٤

الاستيلاء على أكياس الذهب باليمن ١٢٥

الاستيلاء على جواهر القصور بمصر ١٢٦

الموضوع	الصفحة

قادة النصر يحددون المسئول عن الهزيمة :

أنور السادات يحكي أسباب الهزيمة ١٢٨

أحمد إسماعيل على يروى أسباب النكبة... ... ... ١٢٨

الجمسى يبرز أسباب الهزيمة ١٣٠

٣ — أسباب خارجية

مكانة مصر فى العالم العربى والإسلامى ١٣٣

ماذا قال عبد الناصر عن ملوك العرب ورؤسائهم ١٣٥

حرب اليمن ونتائجها السياسية والاقتصادية... ... ... ١٣٩

علاقاتنا الدبلوماسية مع الدول الإسلامية بين الضعف والقطيعة ١٤١

علاقاتنا مع روسيا وأمريكا وأوربا ١٤٣

المصرى بالخارج بين عهدين ١٤٥

جيل مضلل

الأسباب التى ضللت الجيل الناشىء بمصر ١٤٩

مكاسب عهد عبد الناصر فى الميزان

الاشتراكية : بين المبادىء والتطبيق ١٥٤

الإصلاح الزراعى : مفهومه العلمى وماذا تحقق منه ؟... ... ١٥٩

الموضوع | الصفحة

السد العالى : أهدافه وماذا حقق؟ وماذا تقول عنه البحوث العلمية؟ ١٦١
سياسة عبد الناصر وهل جلبت الجلاء أو الاحتلال ١٦٦
تأميم القناة ومدى نفعه ١٧٤
التصنيع وبعض الحقائق عنه ١٧٦
الاتحاد الاشتراكى وحقيقته ١٧٩
عهد فى الميزان أو حصيلة عشرين عاما ١٨٦
صور مرئية من عهد عبد الناصر ١٨٩
صورة صوتية عن حكام مصر من فاروق إلى السادات... ... ١٩٨

الظروف التى ضللت بعض الإخوة العرب :

— الواجهة والتطبيق ٢٠٣
— الهجوم على الاستعمار ودراسة حوله ٢٠٦
— الهجوم على الملوك والرؤساء العرب وأثره ٢٠٧
— قسوة عبد الناصر كانت على الشعب المصرى وحده .. ٢٠٨
— الأقلام المأجورة ٢٠٨
— بيروت تستغل سياسة عبد الناصر وتشجعها ٢٠٩

« مراكز القوى » تعبير يرفضه التفكير الإسلامى ٢١٢
الإنسان المصرى وموقف بعض الحكام منه ٢٢١

الموضوع | الصفحة

الفجر الجديد

من عهد إلى عهد ٢٢٧
دعائم النصر ٢٢٨
الشعب والقائد ٢٣٠
الثورات المصرية فى العصر الحديث وما حققته من أهداف :
— عمر مكرم والسادات والشرقاوى ٢٣٢
— أحمد عرابى ٢٣٤
— مصطفى كامل والحزب الوطنى ٢٣٤
— ثورة ١٩١٩ وسعد زغلول ٢٣٥
— ثورة يوليو ١٩٥٢ ومبادئها ونتائجها ٢٣٧
— أنور السادات وثورة التصحيح :
هل يعد عهد أنور السادات عهداً جديداً ؟ ٢٤١
هل يعتبر أنور السادات مسئولا عن عهد سلفه ؟ ... ٢٤٢
ما العلاقة بين أنور السادات وثورة ٢٣ يوليو ؟ ٢٠٣
ملامح العهد الجديد ٢٤٦

حرب النصر

قرار الحرب والتعاون مع سوريا ٢٤٧
مع حرب السادس من أكتوبر يوما بيوم ٢٤٩

الموضوع	الصفحة
مشكلات العبور والتغلب عليها	٢٥٤
شهادة من معهد الحرب البريطاني للجندي المصري	٢٦٤
مزاعم باطلة عن أسباب النصر	٢٦٥

نتائج معارك أكتوبر

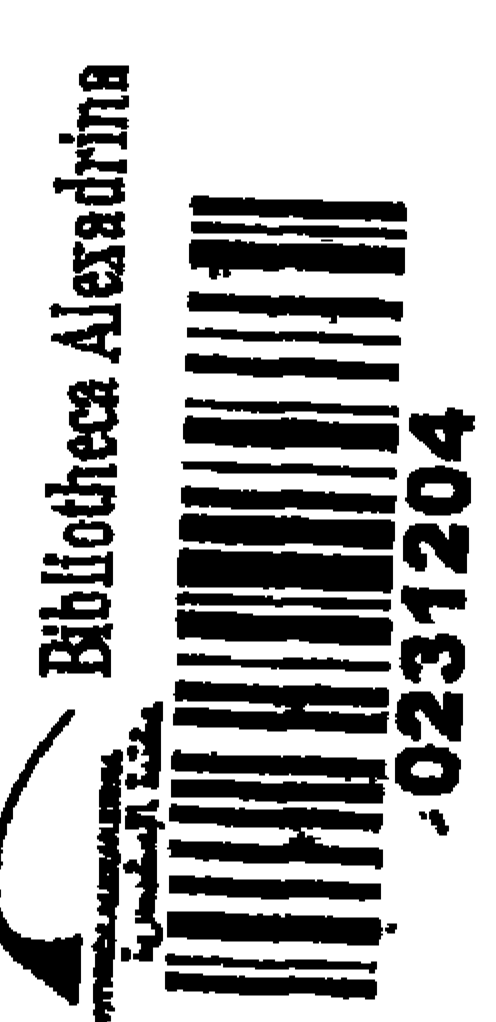
في رأي الرؤساء : السادات وبورقيبة ونميري	٢٦٧
في رأي العسكريين	٢٦٨
العرب والمعركة	٢٧١
أمريكا والمعركة	٢٧٢
الثغرة فخ حرص اليهود على الفرار منه	٢٧٤
مجلس الأمن والمعركة	٢٧٥
بعد المعركة	٢٧٨
المعركة والمستقبل :	
مصر ومستقبل الصراع ضد إسرائيل	٢٨٠
العرب ومستقبل الصراع ضد إسرائيل	٢٨٦

رقم الإيداع ١٨٢٤/١٩٧٥

أوشك عصر عبد الناصر أن يظهر للتاريخ على غير حقيقته ، فقد سُخِّرت لمدحه الكلمة المقولة والكلمة المكتوبة ، وكثيراً ما كانت الكلمة بعيدة كل البعد عن الواقع ؛ فعندما حلت بنا الهزيمة سنة ١٩٥٦ قالوا إننا انتصرنا وغنّى بذلك المغنون ، وخلال عهده كثر التباهي بالعدالة والديمقراطية مع أن القانون كان في إجازة وطالت غيبته ، وزحف على اليمن وخضب ترابها بالدماء العربية ، ودعاته يتصايحون بأنه حامي العرب وناصر العروبة ، وعقب كارثة ١٩٦٧ صرّح بأنه كان يتوقّع العدو من الشمال فجاء من الغرب ، ومع هذا كانوا يصفونه بالمُلهَم !! ....

ولا تزال توجد أقلام مسخرة لهذا الاتجاه ، ولكن من المؤكد أن صمودها لن يطول .

وكنت كمؤرخ معاصر أدوّن التاريخ من الأحداث لا من الكلمات ، فجاء هذا الكتاب حصيلة لعمل دقيق ، وَصَفَ بصدق حياة مصر في عهد عبد الناصر وعهد السادات ، وبالتالي أبرز أسباب المزائم و... ووضح أننا كنا كشجرة تُلقِي ظلالها وثمارها للخارج و... من الظلال والثمار ، وظللنا نعاني ونعاني حتى جاء عهد النو... مسار مصر ومسار التاريخ .



الثمن ٨٠ ص